سلسلة
القصص القرآني

دكتور
حمزة النشرتي
عبد الحفيظ فرغلي د. عبد الحميد مصطفى د. محمد شعلان

المجلد الحادي عشر

سلسلة
القصص القرآنى

دكتور
حمزة النشرتى
عبد الحفيظ فرغلى د. عبد الحميد مصطفى

المجلد الحادى عشر



الجهاد في الإسلام

- مرحلة جديدة من مراحل الدعوة .
- متى شرع القتال ؟
- تشكيك المغرضين في أهداف الجهاد في الإسلام .
- كيف انتشر الإسلام ؟
- السيف سلاح مؤقت .
- لماذا حارب المسلمون ؟
- أهداف الجهاد في الإسلام .
- معطيات كلمة الجهاد في القرآن الكريم .
- أنواع الجهاد .

مرحلة جـديدة

سبق أن ذكرنا أنه بانتقال النبى - ﷺ - بالاسلام الى المدينة بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الدعوة الاسلامية .

فقد انتقل المسلمون من حالة الضعف التى كانوا عليها ، إلى حالة القوة التى اكتسبوها بمجاورتهم الانصار الذين أفسحوا لهم قلوبهم ودورهم ، وشاركوهم فى أموالهم وثمراتهم عن رضا وايثار .

وكان الأنصار - كما علمنا - قد أقبلوا على هذا الدين بحب ورغبة ويقين ، وباعوا له أرواحهم ، وأحبوا النبى - ﷺ - والمهاجرين معه من كل قلوبهم .

وكانوا حين بايعوا النبى - ﷺ - قد بايعوه على أن يدافعوا عنه ضد أعدائه ، وأن يسيروا معه تحت لوائه .

وقد مرت بنا كلمة البراء بن معرور - رضى الله عنه - حين قال النبى - ﷺ - : أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . قال البراء : وقد أخذ بيد الرسول - ﷺ - : نعم ، والذى بعثك بالحق ، لنمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحروب ، وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر .

وقد عنى بالحلقة السلاح عامة أو الدروع خاصة ، وهذا يدل على أن الأنصار قد بايعوا النبى - ﷺ - من أول الأمر على أن يحاربوا معه ، ويدافعوا عنه ويعملوا على نشر هذه الدعوة التى اعتنقوها .

ولقد أرادوا أن يستوثقوا لأنفسهم من أن النبى - ﷺ - سيظل معهم ، ولن يتركهم حين يظهر الله أمره ، فقال له أبوالهيثم بن التيهان : يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالا وإنا لقاطعوها - يعنى بذلك اليهود - فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم النبى - ﷺ - ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم[1]

يعنى بذلك أن دمه هو دمهم وأن حرمته وحرمتهم سواء ، وذمته وذمتهم واحدة .. ولقد وفى النبى - ﷺ - فحين استسلمت مكة له وخشى الانصار أن يبقى النبى - ﷺ - فيها ، ولا يعود معهم إلى المدينة - أصر على الرجوع معهم ..

لقد تنفس المسلمون فى المدينة بعد هجرتهم إليها نسائم الحرية ، ولأول مرة شعروا أنهم يستطيعون ممارسة عبادتهم دون خوف أو رقيب ..

لقد ارتفعت فيها شعائر الاسلام - وسُمِعَت تكبيرة الاحرام عالية مجلجلة تصافح السماء وتعانق الجوزاء ، وتتجاوب معها هتافات الملائكة بالترحيب والدعاء ..

أين هم الآن مما كانوا عليه فى مكة حين كانوا يتفرقون فى شعاب مكة فرادى لا يكادون يجتمعون على إمام واحد ؟

---

(١) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٥٠

واستشعروا العزة التى ألبسها إياهم الاسلام دين العزة والكرامة ، وبدأوا يتحدثون عن وسائل نشر كلمة الله فى الآفاق ليحرروا بها عباد الله الذين أذلتهم العصبية ، أو أثقلت كواهلهم أرجاس الجاهلية .. ولكن الأمر لم يكن قد حان بعد فى الأمر بالقتال ..

متى شرع القتال ؟

يرى ابن هشام فى سيرته أن الأمر بالقتال نزل فى مكة قبل الهجرة ... يقول فى ذلك : وكان رسول الله ﷺ لم يؤذن له فى القتال ولم يؤمر به قبل بيعة العقبة فكان يدعو إلى الله وكان يصبر على الاذى ويصفح عن الجاهل والسفية والمعتدى وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من قومه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم ، فهم بين مفتون فى دينه ، أو معذب فى أيديهم ، أو هارب فى البلاد فرارا منهم ... بأرض الحبشة أو غيرها ..

فلما عتت قريش على الله ـ عز وجل ـ وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه ـ ﷺ ـ وعَذَّبوا ونَفَوْا من عَبَدَالله ووحده وصدق نبيه واعتصم بدينه ـ أذن الله ـ عز وجل ـ لرسوله ـ ﷺ ـ فى القتال والامتناع والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم . فكانت أول آية أنزلت فى إذنه له فى الحرب والقتال لمن بغى عليهم ـ فيما ذكره عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله ـ تبارك وتعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (٢)

فقد أذن الله لهم بالقتال لأنهم ظلموا ولم يكن لهم ذنب فيها بينهم وبين الناس إلا أنهم يعبدون الله ، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .. والمقصود بالذين ظلموا هو النبى ـ ﷺ ـ ومن آمن به رضى الله عنهم .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه قوله :

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (٣)

---

(٢) الحج ٣٩ : ٤١
(٣) البقرة ١٩٣

أى حتى لا يفتن مؤمن عن دينه وحتى لا يعبد مع الله غيره[٤]

فهذا الكلام الذى يتحدث به ابن هشام راويا له عن ابن اسحاق يفيد أن الأمر بالقتال كان مبكرا عن الهجرة ، ولعله استند فى ذلك إلى أن الآية الأولى الواردة فى سورة الحج مكية .

ولكن السيوطى ـ رحمه الله ـ يذكر فى أسباب النزول أن هذه الآية نزلت بعد الخروج من مكة ـ يقول : أخرج أحمد والترمذى وحسنه ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : خرج النبى ـ ﷺ ـ من مكة ، فقال أبوبكر : أخرجوا نبيهم ليهلكن ، فأنزل الله

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا[٥] »

على أنه على فرض نزول هذه الآية فى مكة أى قبل الهجرة فانه لم يعمل بها إلا بعد الهجرة ، وقد يسبق النزول الحكم ، وربما كانت بيعة العقبة هى المقدمة الكبرى للجهاد الذى شرع فى الاسلام ، ووضعت له التنظيمات المتعددة والقوانين المنظمة له . .

جاء فى كتاب فقه السيرة : « ومن هنا نعلم أن مشروعية القتال فى الاسلام لم تكن إلا بعد هجرته ـ ﷺ ـ على الصحيح ، وليس كما قد يفهم من كلام ابن هشام فى سيرته أنه شرع قبل الهجرة عند بيعة العقبة الثانية . إذ ليس من بنود البيعة ما قد يدل على مشروعية القتال حينئذ ، لأن النبى ـ ﷺ ـ حين أخذ على أهل المدينة العهد بالجهاد والدفاع عنه وعن الاسلام ـ

---

(٤) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٧٥ ط دار التحرير

(٥) لباب النقول وأسباب النزول للسيوطى ص ١٢٠ ط دار التحرير

نظر إلى المستقبل عندما سيهاجر إليهم ويقيم بينهم فى المدينة ، والدليل على هذا قول العباس بن عبادة للنبى - ﷺ - بعد البيعة : والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غدا بأسيافنا ، فقال له رسول الله - ﷺ - : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم(٦)

مهمة النبى فى مكة

لقد كانت مهمة النبى - ﷺ - فى مكة إلى جانب نشر الدعوة إعداد النفوس وتهيئة الرجال وتربيتهم التربية الاسلامية الصحيحة التى تتشرب مبادىء الدعوة بيقين كامل وإيمان عميق ، حتى تصبح التضحية بالروح فى سبيل هذه العقيدة سهلة وشيئا تلقائيا لا يحتاج إلى حافز . .

وهذا لون من الجهاد المعنوى لا يقل خطرا عن الجهاد بالسيف ، وهذا ما يسمى بالروح القتالية فى مفهوم العسكريين .

لقد كان العرب فى الجاهلية يقاتلون ، ولكن هدف قتالهم يختلف تماما عن هدف القتال فى الاسلام . وشتان بين من يحارب فى سبيل الثأر أو الغلبة على ماء أو كلأ ، أو تعصبا لقبيلة أو دعوى جاهلية - وبين من يحارب فى سبيل إعلاء كلمة الله وحفاظا على الكرامة الانسانية وعزة الانسان . وقد أشارت الآية الكريمة التالية إلى هدف القتال فى الاسلام

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ

---

(٦) انظر فقه السيرة د . محمد سعيد رمضان البوطى ص ١٣٢

ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [٧]

« وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة »

أى حتى لا يفتن أحد عن دينه ويكره على البقاء على دين لا يريده . . .

ثم انظر الى الهدف الذى حدده الله للمجاهدين فى سبيل دينه حين يمكن الله لهم فى الأرض :

وفى هذه الآية ما يشير إلى أن القتال فى سبيل نشر الدين هو أشرف أنواع القتال ، لأنه قتال يقصد به الحق والعدل ، وحرية الدين وهو المراد بقوله ـ تعالى ـ

« الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر »

فهل هناك أشرف من هذا الهدف ؟

أما غير ذلك من ألوان القتال ـ وواقعنا المرير يشهد بمئات الصور منه ـ فإنما يقصد به الملك والعظمة والسيطرة والاستغلال والإذلال . وتحكم الغالب القوى فى المغلوب الضعيف .

وقد ضعف المسلمون وغلبوا عندما اتجهت حروبهم الى أهداف أخرى غير نشر مبادىء الاسلام وإعلاء كلمة الله .

---

(٧) النساء ٧٦

إنّ تشرب هذه المبادىء القيمة ليس أمرا سهلا يمكن إدراكه بين يوم وليلة ولكنه أمر يحتاج الى وقت تتغير فيه العقائد البالية لتحل محلها عقائد روحية باقية . وهذه هى المهمة التى قام بها النبى - ﷺ - فى مكة وَرَوَّض عليها أصحابه وأعدهم لها طوال ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة

حتى إذا ما هاجروا هاجروا بأرواح عالية ونفوس رفيعة وهمم لا تعرف الكلل وعزائم لا يعتريها الملل ، وقلوب كبيرة ملأها الإيمان حبا ويقينا وإيثارا للآخرة على الأولى .

والجهاد يحتاج إلى ثكنة عسكرية يأوى إليها المجاهد ، ويتحصن بها ، وهذه الثكنة لم تتهيأ فى مكة ، لأنها كانت ثكنة لأعداء الاسلام لا للاسلام ، وقد تهيأت هذه الثكنة فى المدينة بعد الهجرة ، فقد أصبحت المدينة دار إسلام ومعقل أمان وإيمان ، فوجب الجهاد بوجود المكان المناسب والظروف المواتية .

تشكيك المغرضين فى أهداف الجهاد فى الإسلام

ولقد أرجف المرجفون كثيرا حول قضية القتال فى الاسلام ، وتحدثوا طويلا بالباطل زاعمين أن الاسلام قام على السيف ولولا السيف ما انتشر ، وان المنطق والحجة والبرهان ليست هى الأسلحة التى انتشر بها هذا الدين الحنيف ، كما زعموا أن الاسلام دين توسعى .

وقد رأينا التعرض لهذه القضية التى كانت قد أثيرت قديما وأدحضت على يد علمائنا الأفاضل ومفكرينا العظام - لأنها عادت إلى الظهور مرة أخرى . .

وربما كان السبب فى ظهورها مرة أخرى ما يريده العدو الآن جريا على عادته من تزييف الحق وإشاعة الباطل وتشويه الوقائع .

ومن خططه المدروسة فى محاربة المسلمين ـ تلك الحرب النفسية التى يشنها عليهم محاولا بذلك إيقاع البلبلة فى أذهانهم ، وإثارة الشكوك فى عقائدهم ، وربما انزلق بعض البسطاء من المسلمين فى تصديق ما يزعمه هؤلاء المشككون بسبب براعتهم فى أسلوب الزيف ، وإحكام وضع السم فى العسل ، فيرددون ما يريده هؤلاء الأعداء .

ومغالطة المزيفين والحاقدين فى هذا الامر ـ قائمة على شقين :
الشق الأول منها : أن الاسلام قام على السيف والاكراه .
والشق الثانى أن الدين لا ينبغى أن يقوم على الحرب والقتال وإنما على المحبة والسلام .

وكلا الأمرين يحتاج إلى مناقشة وتوضيح . .
لقد أشاع هؤلاء المشككون أولا قولتهم الأولى ـ فلما قام الغيورون من علماء الإسلام بالرد عليها ، إذ بهؤلاء المشككين أنفسهم يرددون المقولة الثانية محاولين بذلك تشكيك بسطاء المسلمين ، وخداعهم وصرفهم عن واجبهم نحو دينهم . .
وقد استراح البعض لهذه المقولة الثانية وأخذ يرددها بحماس ، وكأن الاسلام لا يجب أن يحارب الباطل ، ولا ينبغى أن يواجه الطغيان أو يعمل على دفع الشر ودحر الظلم ، وانما هو دين يرضى بالأمر الواقع ، ويرضى

بما يقوله القائلون : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر . لقد وافق بعض البسطاء من المسلمين على ما أراد الأعداء إشاعته من أن الإسلام دين مسالمة وموادعة لا شأن له بالآخرين إلا إذا داهموه فى عقر داره ، وفات هؤلاء البسطاء الهدف الحقيقى لأعداء الإسلام من وراء نشر هذه المقولة ، ولم يعرفوا أن هذا هو بعينه الغرض الذى التقى عليه فى السر كل من روج للمقولة الاولى التى تقول : إن الاسلام لم ينتشر إلا بحد السيف . . فكلتا المقولتين من مصدر واحد . .

ان الهدف من كل ذلك هو إماتة روح الطموح فى نفوس المسلمين وتربيتهم على الاستنامة والرضوخ وعدم التحرك أمام العدوان .

إن الغربيين وأعداء الاسلام يخافون من ظهور فكرة الجهاد فى أوساط المسلمين حتى لا تتوحد كلمتهم فيقفوا أمام أعدائهم ، ولذلك يحاولون الترويج لفكرة نسخ الجهاد ، وصدق الله العظيم اذ يقول فيمن لا إيمان لهم :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ ﴾ [٨]

لقد حاول بعض المستشرقين ان ينشر بين أبناء المسلمين فكرة أن الجهاد اليوم ليس بفرض ـ بناء على ما يزعمونه من أن الأحكام تتغير بتغير الأزمان ـ

---

(٨) محمد ٢٠

إذ ان الجهاد فى رأيهم وزعمهم لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة،لارتباط المسلمين بالمنظمات العالمية والمعاهدات الدولية ، ولأن الجهاد فى زعمهم وسيلة لحمل الناس على الاسلام ، وأوضاع الحرية ورقى العقول لا تقبل فكرة تُفْرض بالقوة . . فانظر إلى ما يريد أن يصل إليه هؤلاء الأعداء الذين يضمرون للاسلام والمسلمين كل حقد وشر[٩] .

وقد رد كثير من المفكرين على من يزعم أن الاسلام قد فرض بالقوة . . يقول العقاد :

« شاع عن الاسلام أنه دين السيف ، وهو قول لا يصح ، وغلط بيِّن إذا أريد به أن الاسلام قد انتشر بحد السيف ، أو أنه يضع القتال موضع الاقناع .

وقد فطن لسخف هذا الادعاء كاتب غربي كبير هو « توماس كارليل » صاحب كتاب « الابطال والبطولة » فقد اتخذ محمداً ـ ﷺ ـ مثلا لبطولة النبوة وقال ما معناه :

« إن اتهامه بالتعويل على السيف فى حمل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم ، اذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يُشْهِرَ رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته . .

والواقع الثابت فى أخبار الدعوة الاسلامية أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسر والتعذيب قبل أن يقدروا على دفع الأذى الواقع عليهم من مشركى قريش فى مكة المكرمة ، فهجروا ديارهم وتغربوا من أهليهم حتى بلغوا إلى

---

(٩) انظر فقه السيرة ومحمد سعيد رمضان البوطى ص ١٣٥

الحبشة فى هجرتهم . وذلك قبل التجائهم الى يثرب ، وإقامتهم فى جوار أخوال النبى ـ ﷺ ـ

« ولم يكن أهل يثرب ليرحبوا بمقدمهم لولا ما بين القبيلتين الكبيرتين فيها من نزاع فتح بينهما ثغرة يأوى اليها المسلمون بعد أن ضاق بهم جوار الكعبة ، وهو الجوار الذى لم يضق من قبل بكل لائذ به فى عهد الجاهلية .

« ولم يعمد المسلمون قط الى القوة إلا لمحاربة القوة التى تصدهم عن الاقناع ، فاذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها واذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء[10] »

فاذا ما رجعنا الى منطق الاسلام نفسه فاننا نجده يفند دعوى قيامه بالسيف ، فدستوره الخالد يقول :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [11]

ويقول مخاطبا النبى ـ ﷺ ـ وهو قائد أمته

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [12]

(١٠) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ـ عباس محمود العقاد ص ٢٢٧
(١١) البقرة ٢٥٦ (١٢) يونس ٩٩

ويقول له أيضاً :

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ (١٣)

فهذه الآيات الكريمة تلقى ضوءا كاملا على مفهوم رسالة الاسلام . تلك الرسالة التى قامت على الحجة الكاملة والمنطق السليم ، ولم يكن فى حسابها على الاطلاق أن يحمل النبى - ﷺ - السيف - يدعم به الدعوة التى تحض على استعمال العقل والتفكر فى خلق السموات والارض ، للاستدلال من مظاهر إبداعها على قدرة إبداع الخالق والايمان به ربا واحدا لا شريك له .

بُعِث النبى - ﷺ - وحده لا سند له إلا إيمانه القوى بصدق رسالته وقوة عقيدته ، ولا مال معه ، ولا جيش يظاهره ، ولا قوة غير قوة الحق تؤيده ، فكل نجاح يلقاه فى طريق دعوته ، فأمر هذا النجاح موكول إلى صدق جهاده وبلاغة حجته وهيمنة اليقين الذى يدعم موقفه . . ترى ذلك واضحا فى عمق إيمانه حين هاجر من مكة إلى المدينة ، ولا سند له بعد الله إلا صاحبه وصفيه ، تراه يقول له فى يقين كامل : « لا تحزن إن الله معنا »

كيف انتشر الاسلام ؟

ولعل مدلول هذا اليقين الكامل هو الذى يفتح أمامنا الطريق للإجابة الكاملة عن كيفية انتشار الإسلام الذى لا يمكن أن ينتشر هذا الانتشار

---

(١٣) النحل ١٢٥

الواسع بواسطة شخص واحد ليس معه سوى صاحبه الخائف عليه ، ان لم يكن وراء هذين الصاحبين قوة إلهية جبارة هى التى مكنت لهذا الدين ونشرته فى أرجاء الأرض . . وهذا هو الذى يفهم من بقية الآية بعد قوله ـ تعالى ـ

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١٤)

إن آية الهجرة هذه دليل على أن الاسلام لم ينتشر بالسيف ، ولكنه انتشر بمعونة الله وفضله ، وتهيئة الاذهان والعقول وشرح الصدور له . .

فقد نزلت هذه الآية الكريمة فى أعقاب غزوة تبوك ، بعد فتح مكة فى معرض بيان فضل الله على رسول الله ﷺ ـ وفيها مقارنة بين حال المسلمين فى أول الهجرة وما وصلوا اليه بعد ذلك حينما أظهرهم الله على عدوهم ، وهيأ لهم من أسباب العزة والمنعة ما مكن لهم وأعلى شأنهم .

وقد ركز الاسلام فى انتشاره على الدعوة إلى الله بالحكمة واهتم بها اهتماما كبيرا،ومبادئه القويمة هى التى نشرته ، وقد اعتنقه وآمن به الكثيرون عن

---

(١٤) التوبة ٤٠

طريق الاقتناع العقلي فهو دين الفطرة الصافية ، وصدق الله إذ يقول :

﴿ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (١٥)

فالصبغة هي الفطرة وهي ابتداء الخلق وكل مولود يولد على الفطرة ، ولذلك فان الدين الاسلامي لا يستعصى فهمه على العقل ، وليس فيه غموض أو تعقيد أو التواءات . ولا يحتاج الداخل فيه الى طقوس أو وساطة . وقد جاء التعبير بقوله : صبغة الله ـ ليرد به على من يصبغون أولادهم بماء يقال له ماء المعمودية زاعمين أن في هذا تطهيراً لهم . . فما من عاقل يلقي سمعه إلى مبادىء الاسلام أو يسمع بعض آيات من القرآن إلا ويقبل عليه بقلب منشرح وحب شديد .

والذى منع المشركين في مكة من الاقبال عليه هو روح التعصب الممقوت والتمسك بما ورثوه من عقائد بالية . . وقد كانت الغالبية العظمى منهم تعرف أن دين محمد ـ ﷺ ـ حق ولكن منعهم من اتباعه تمسكهم بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم . .

أما غير أهل مكة كالانصار مثلا فقد تجاوبت أرواحهم مع هذه الدعوة التى ترد للإنسان كرامته ، وتعلى من شأنه وقدره في الحياة .

لقد انتشر الاسلام ومازال ينتشر بقوته الذاتية ـ أى بتعاليمه وأحكامه وأسسه وأخلاقياته السامية وحدها . . فكل من فتح عقله وقلبه لفهم دعوته

---

(١٥) البقرة ١٣٨

تجاوب معها واعتنق الاسلام طواعية واختيار . . والدليل على ذلك أن كل البلاد التى انتشرت فيها الاسلام بعد قتال مع المتحكمين فى شعبها المستذلين له ـ أيقن أهلها أن المعركة ليست ضدهم وانما هى ضد هؤلاء الحكام المستغلين ، والدليل على ذلك ـ مصر ـ . . فحين فتحت رحب الاقباط بالمسلمين وساندوهم ضد الروم الغاصبين الذين نهبوا ثروة البلاد وأذلوا العباد .

وحين رأوا حسن معاملة المسلمين ازدادوا حبا لهم ، وأقبلوا على الإسلام يعتنقونه حباً وطواعية . لقد أدركوا الفرق الواضح بين تعمير المسلمين وتدمير الروم ، وبين إعزاز الإسلام للناس وإذلال الروم لهم .

لقد كان المسلمون فى معاملتهم مثلا أعلى فى التعامل الانسانى الحضارى وكانت سياستهم مع أهل البلاد المفتوحة على غاية عظمى من العدالة والرحمة وإقرار الحرية . . فاتجه الناس الى هذا الدين الذى يدعو الى هذه الفضائل

حضر وفد من أهل سمرقند إلى دمشق يشكون إلى عمر بن عبدالعزيز الخليفة الأموى أن القائد مسلم بن قتيبة دخل مدينتهم ، وأسكن المسلمين بها ، فحول الخليفة شكواهم الى القاضى ، ولما تحقق القاضى من صدق كلامهم ، أمر بإخراج المسلمين من البلدة ، فكان هذا الموقف سببا فى دخولهم الإسلام جميعا حينما رأوا هذه العدالة المنقطعة النظير .

فليسمع الآن العالم الذى يزعم أنه وصل الى نهاية الحضارة ما تفعله إسرائيل فى الأرض المحتلة من تشريد وطرد لسكانها وأصحابها من العرب ،

وهدم للبيوت على سكانها لتقيم محلها مستوطنات لاقامة اليهود القادمين إليها من كل مكان فى العالم ، تغريهم للهجرة اليها بمختلف الطرق والوسائل . . وليقارن العالم بين هذه التصرفات الشائنة وتصرفات الخليفة عمر بن عبدالعزيز . . ولكن أين الثرى من الثريا ؟؟

وهناك الكثير من الأدلة على أن الاسلام انتصر بقوته الذاتية ، لا بالسيف والقمع والاكراه كما يزعم البعض ـ ومن ذلك ما رآه الجميع وسجله التاريخ من إقبال التتار على الإسلام بعد أن حاربوه وملكوا دياره وهدموا مدنه وأحرقوا كتبه وقوضوا الكثير من المعالم الاسلامية الشاهقة . . هؤلاء الذين كانوا يكنون للاسلام كل عداء ، سرعان ما اتجهوا اليه يعتنقون دعوته بعد أن تبينت لهم مبادئه الكريمة وتعاليمه القويمة ، وأصبحوا جنودا للاسلام يحاربون فى سبيله وينشرون دعوته ويفتحون البلاد باسمه . . ولو كان الاسلام يقوم على الاكراه لما وجد طريقه إلى قلوب هؤلاء الذين جاءوا كالاعصار الشديد لا يقف فى طريقه شىء . .

وان أعوزتك أدلة أكثر من ذلك فانظر إلى أكثر البلاد عددا من المسلمين مثل اندونسيا والملايو والصين وسواحل أفريقيا ، وسل نفسك كيف انتشر الاسلام فى هذه البلاد ؟ وسوف تجد أنه انتشر فيها دون أن يرفع فيها سيف ، أو يرمى فيها بسهم أو يذهب اليها جيش ، لقد دخلها الاسلام ودان أهلها به رغبة فى مبادئه وحبا فى تعاليمه .

هذا ومازال الاسلام حتى وقتنا هذا ينتشر فى ربوع العالم ، ويعتنقه رجال الفكر من الشرق والغرب بعد أن يتأملوا فى معانيه ، ويناقشوا مراميه ،

ويتبينوا أهدافه ، ويضعوا تعاليمه أمام مجهر الحق ويزنوها بميزان القسط والعدل .. وما تزال الأنباء تحمل إلينا كل يوم خبرا جديدا عن إسلام عالم هنا ومفكر هناك .

وقد انتشرت المراكز والمعالم الاسلامية فى كثير من عواصم الغرب التى كانت تقابل الإسلام بأقسى ألوان العداء والمقاومة وأصبحت مآذن المساجد يدوى من فوقها الأذان الذى يعلن صباح مساء كلمة الحق ـ الله أكبر الله أكبر أشهد الا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ..

فهل الذين أسلموا فى فرنسا وانجلترا اللتين قادتا الحملات الصليبية المسعورة واحتلتا فى زمن من الدهر بيت المقدس ، ونكلتا بالمسلمين فيه تنكيلا فظيعا ، هل الذين اعتنقوا الاسلام من هؤلاء اعتنقوه بالسيف والاكراه ؟

كلا ، إنه لم ينتشر الا بفضل مبادئه الكريمة التى تنادى بالإخاء والحب والسلام ..

السيف سلاح مؤقت

إن الإسلام حين استخدم السيف إنما استخدمه فى وقت دعت الحاجة اليه ، ولم يكن أمام المسلمين مفر من استخدامه حتى يحموا أنفسهم وعقيدتهم من عدوان أعدائهم . فهو استخدام المضطر لا استخدام الراغب فيه المحب له ..

والاسلام يترك هذا السلاح المؤقت طالما كانت هناك إمكانات لعدم استعماله . وما أكثر هذه الامكانات .

يقول العقاد : انظر الى خريطة العالم - فى الوقت الحاضر تعلم أن السيف لم يستعمل إلا دفاعا عن الاسلام ، وأن الاسلام قد انتشر بالاقناع والقدوة الحسنة ، بدليل أن البلاد التى قلت فيها حروب الإسلام هى البلاد التى يقيم فيها أكثر مسلمى العالم ، وهى بلاد اندونيسيا والهند والصين وسواحل القارة الافريقية وما يليها من سهول الصحارى الواسعة ، فان عدد المسلمين فيها قد قارب الألف مليون الآن[١٦] . ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد إلا القليل الذى لا يجدى فى تحويل الآلاف عن دينهم ، فضلا عن الملايين . . وما لنا نذهب بعيدا وهذه هى البلاد التى اتجهت اليها غزوات المسلمين لأول مرة فى صدر الدعوة الاسلامية ، وهى بلاد العراق والشام . فقد عاش بين المسلمين فى تلك البلاد كثيرون ممن اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود وغيرهم . .

وقد دخل المسلمون بلاد الاندلس وأقاموا فيها قرونا ، ولم يقل أحد على الاطلاق إنهم أجبروا أحدا من سكانها على ترك دينه واعتناق دين الاسلام .

إن روح الاسلام فى العلاقة بين المسلم وسائر بنى الانسان تشف عنها كل آية وردت فى القرآن الكريم ، الذى علم المسلمين كيف تكون المودة والرحمة ، وكيف تتصل وشائج المحبة والتعارف والتقارب بين البشر[١٧]

---

(١٦) ذكر العقاد أن هذا العدد قريب من ثلثمائة مليون ولكن ذلك كان وقت أن ألفّ العقاد كتابه سنة ١٩٥٧ - أما الآن فقد تضاعف هذا العدد أكثر من مرة .

(١٧) انظر حقائق الاسلام وأباطيل خصومه ص ٢٣٢

من ذلك كله نخلص إلى أن الاسلام دين سلام ، فهو يجعل السلام أساس العلاقات الانسانية والدولية ، وأن الحرب فى شريعته ضرورة تضطره اليها الظروف أحيانا . .

ولنتأكد جميعاً أن الاسلام لم يضق بمخاليفه ذرعاً ، بل وجدوا فى ظله الأمن والأمان طالما سالموه ولم يكيدوا له أو يثيروا ضد أبنائه القلاقل .

وقد شملت سماحة الاسلام المسلمين وغيرهم ، فهم جميعا فى شرعته سواء ، وقد قال النبى ـ ﷺ ـ فى حق الذميين الذين عاشوا فى ظل الإسلام ـ كلمته الرائعة : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا »

« من ظلم معاهدا فأنا حجيجه يوم القيامة »

لماذا حارب المسلمون إذن ؟

لم ينتشر الاسلام بالسيف ـ كما ذكرنا ـ وهذا واقع لا شك فيه . ولم يلجأ الى القوة إلا لمحاربة القوة التى تصد المسلمين عن الاقناع ـ فماذا يفعل الإسلام إذا وجد المعادين له قد رصدوا جنودهم لمحاربته ومحاولة القضاء عليه ؟ أيقف عاجزا أم يواجه القوة بالقوة ؟ إن منطق العقل يقول : إن القوة لا تحارب إلا بالقوة .

والأمثلة لذلك كثيرة من واقع التاريخ ـ فالمسلمون مثلا لم يحاربوا الحبشة ولكنهم حاربوا الفرس الذين حرضوا على قتل الرسول ـ ﷺ ـ وحاربوا الروم الذين أرسلوا طلائعهم إلى تبوك ، فجرد النبى ـ ﷺ ـ عليهم حملة عادت بدون قتال ، حين علم عدم تأهبهم للزحف ، ولكن حين علم

أبوبكر بعد ذلك أنهم حرضوا القبائل العربية فى العراق والشام على غزو الحجاز حاربهم وانتصر عليهم .

وهكذا فى كل قتال بدأ فى ذلك الوقت أو بعد ذلك الوقت ، كان له سبب يمت إلى الهدف الأسمى من الجهاد ، حتى فى فتح الاندلس فى العام الثانى والتسعين من الهجرة ، فان المسلمين لم يفكروا فى فتحها إلا بعد أن استنجد أهلها بالمسلمين لتخليصهم من الظلم الاجتماعى الواقع عليهم .

إن المتأمل فى رسالة الاسلام يجد أنها رسالة سامية لا تقف عند حد الابلاغ والدعوة . . ولكن الله أراد لها أن تكون رسالة شاملة للبشر أجمعين قال تعالى :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (١٨)

وقال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (١٩)

---

(١٨) الأعراف ١٥٨ (١٩) سبأ ٢٨

وقال :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ (٢٠)

وقال جل شأنه :

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٢١)

وبمقتضى هذا الشمول الذى تشير إليه هذه الآيات الكريمة كان لابد من إيصاله إلى الناس عن طريق الحسنى والقدوة الحسنة ، فأُرسِلت الرسل والكتب إلى كافة الأرجاء ، ولكن كثيرا ممن أرسلت إليهم الكتب لم يحسنوا استقبال هذه الكتب بل إن بعضهم أساء إلى الرسل . .

إن الالتزام الدينى والأخلاقى الذى التزم به المسلمون نحو هذا الدين أوجب عليهم أن يبشروا به فى كافة أنحاء العالم رغبة منهم فى إشاعة مبادئه الكريمة التى يعمل الدين على غرسها فى النفوس . .

ولقد عبر عن هذا المعنى عالم غربى هو « ليوبولد فايس » الذى اعتنق الاسلام عن اقتناع ونظر ، وسمى نفسه « محمد أسد » وألف كتابا أسماه « الاسلام على مفترق الطرق » تحدث فيه عن الفتوح الاسلامية وقرر أنها

---

(٢٠) آل عمران ١٩

(٢١) آل عمران ٨٥

نوع من تحمل المسئولية الشخصية عند المسلم فى أن ينشر كل مبادىء العدل والكرامة حوله وأن يسعى إلى إقرار الحق وإزهاق الباطل فى كل زمان ومكان مصداقا لقوله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) ﴾ (٢٢)

والعبرة بالهدف من وراء هذه الحروب التى قام بها الاسلام ، فلم يكن الباعث عليها حب السيطرة أو الأنانية الاقتصادية أو القومية ، أو الطمع فى أن تزيد أسباب رفاهية المسلمين الخاصة على حساب شعب آخر ، أو إكراه غير المؤمنين على الدخول فى الاسلام ، ولكن الباعث اليها كان العمل على بناء إطار عالمى لأحسن ما يمكن أن يكون عليه السمو الروحى للانسان .

لكن السيف قد يصبح ضرورة فى بعض الأحيان قال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) ﴾ (٢٣)

وقد عبر عن هذا المعنى أمير الشعراء شوقى حيث قال فى قصيدته « نهج البردة »

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم

---

(٢٢) آل عمران ١١٠

(٢٣) البقرة ١٩٠

جهل وتضليل أحلام وسفسطة غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعا وإن تلقه بالشر يلتطم

وإن من الشعر لحكمة كما قال الرسول الكريم ، وهذه الأبيات من الحكمة التى تخرج مخرج التجربة الصادقة فليس من شك فى أن الشر لا تجُبُّه إلا القوة ولا يقطعه إلا السيف .

أهداف الجهاد فى الإسلام

ونستطيع أن نتبين أهداف الجهاد فى الاسلام من خلال الآيات الكريمة التى نزلت فى القرآن الكريم ، ومن خلال الأحاديث النبوية الشريفة ، ومن خلال تصرفات المسلمين فى غزواتهم ولقاءاتهم بالعدو .

ومن المؤكد أن النبى - ﷺ - لم يلجأ إلى القوة فى مكة ، لأنه كان يريد إبلاغ دعوته بالمنطق والعقل ، وطريقه فى ذلك الحكمة والموعظة الحسنة كما أمره بذلك ربه .

ولكن الأمر تغير فى المدينة لأن المشركين وقفوا من المسلمين وقفة عداء سافر وتحد شديد وحاولوا أن يقطعوا الطريق على الاسلام .. لقد تحمل المسلمون الإيذاء والضيم وهم فى مكة ، لأنهم كانوا قلة لا يقدرون على دفع الأذى عن أنفسهم ، فلما أصبحوا قوة أذن الله لهم أن يدافعوا عن أنفسهم .

كان الدفاع عن النفس هو أول هدف للجهاد ، وقد جاء ذلك صريحا فى قوله تعالى :

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين[٢٤] »

قال القرطبى : هذه هى أول آية نزلت فى الأمر بالقتال ، ولا خلاف فى أن القتال كان محظورا قبل الهجرة .

وقد سبق أن أشرنا إلى قول آخر يفيد أن أول آية نزلت فى شأن القتال هى قوله ـ تعالى ـ

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [٢٥]

ولكن قول القرطبى هو قول أكثر العلماء . .

وسبب نزول الآية أن النبى ـ ﷺ ـ خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة فلما نزل بالحديبية قرب مكة ـ صده المشركون عن البيت وأقام بالحديبية شهرا ، فصالحوه على أن يرجع من عامه هذا كما جاء ، على أن تخلى له مكة فى العام القابل ثلاثة أيام ، وعلى ألا يكون بينهما قتال لعشر سنين ، ورجع النبى ـ ﷺ ـ الى المدينة ، فلما كان العام التالى تجهز لعمرة القضاء وخاف المسلمون غدر الكفار ، وكرهوا القتال فى الحرم وفى الشهر الحرام ، فنزلت هذه الآية :

---

(٢٤) البقرة ١٩٠

(٢٥) الحج ٣٩

« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم »

أى يحل لكم القتال إن قاتلكم الكفار . .

والهدف الثانى من أهداف الجهاد فى الإسلام هو القضاء على الفتنة ، وقد جاء ذلك واضحا فى قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (٢٦)

لقد تعود المشركون أن يفتنوا المسلمين عن دينهم ، ويقفوا فى طريق نشر هذا الدين ، فاذا ارتفع سيف للدفاع عن الباطل وإقرار الظلم وتمكين الفساد ونشر الشر ، فلا بد من أن يرتفع سيف للدفاع عن الحق وإقرار العدل ، وتمكين الصلاح ونشر الخير ، وهذا السيف هو سيف الاسلام الذى يحق الحق ويبطل الباطل . فالذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت .

والهدف الثالث للجهاد الإسلامى هو نصر الضعيف والأخذ بحقه ، وإنقاذ المغلوب على أمره من براثن الباغى الظالم ، ومن بين هؤلاء الضعفاء بعض المسلمين الذين استبقاهم الكفار فى مكة ، وحالوا بينهم وبين الهجرة واللحاق بإخوانهم فى المدينة . . وقد جاء القرآن الكريم يوضح ذلك بقوله تعالى :

---

(٢٦) البقرة ١٩٣

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ (٢٧)

والهدف الرابع من أهداف الجهاد هو إقرار الحق لأصحابه وكفالته فى أن يعيش الناس حياتهم فى عزة وكرامة بعيدا عن سيطرة الظالم وعسفه وجبروته وتحكمه فى مصائرهم ، وحيلولته بينهم وبين ممارسة الحرية التى كفلها الله لهم .

وقد حاولت كل من دولتى الفرس والروم فى أيام النبى - ﷺ - ومن بعده من الخلفاء الراشدين أن يحكموا قبضتهم على العراق والشام وهما ملاصقان لدولة الإسلام الناشئة ، وأن يجعلوا من هاتين الدولتين منطقة نفوذ لهم لا يستطيع أحد من سكانها أن يعلن عن رأيه أو يمارس حريته فى العقيدة التى يريدها . وبدأوا يمارسون ألوانا من الضغط والاعتداء على المسلمين مما أجبر المسلمين على مواجهتهم والدفاع عن أنفسهم . وردع هؤلاء الحكام الظالمين .

إن كل من يعرف أهداف الجهاد فى الإسلام يدرك أن هذه الأهداف تتحقق وفق مبادىء شريفة ، وبوسائل كريمة ، وبأدوات نظيفة خالية من الحقد الأسود والغدر السيء والفظاعة التى قد يلجأ إليها المحاربون الذين

---

(٢٧) النساء ٧٥

تسيطر على تصرفاتهم نزوات الشر ، والذين يجب أن يوضعوا فى قوائم المجرمين بدلا من وضعهم فى قوائم المحاربين الشرفاء .

لا يعرف تاريخ الحروب مبادىء أنظف ولا أشرف من مبادىء الإسلام فى حروبه ، والحرب الشريفة التى يتشدق بها البعض لم تطبق إلا فى ظل الإسلام والمسلمين .

فلم تكن أمور المعارك فى الإسلام تجرى بالقسوة والفظاعة وامتهان الإنسانية .. لقد تحلى المسلمون فى حروبهم بالشرف ، فلم يدمروا أو يخربوا ، أو يمتهنوا الإنسانية كما كان يفعل غيرهم فى تلك العصور ، أو كما يفعل غيرهم اليوم ونحن فى القرن العشرين الذى يزعم أصحابه أنهم يعيشون فى ظل مبادىء وضعتها المنظمات الدولية التى تعلى من شأن الإنسان كما يزعمون . .

ولننظر إلى الحروب السائدة الآن ولا سيما فى المناطق الإسلامية التى تعتدى عليها دول لا ترعى للضمير حرمة ولا للمبادىء ذمة ، ودعك من الدين فإن هؤلاء لا يعرفون عن الدين شيئا .

وناهيك بدول تستعمل فى حروبها ضد العزل من الشعوب أفتك أسلحة الدمار الرهيبة التى تفتقت عنها أذهان شياطين الحروب . ولا تكتفى بذلك بل تستعمل فى حروبها وسائل الإبادة الجماعية الخسيسة . . من غازات سامة ، وتسميم للآبار وإشاعة للدمار ، واستعمال أسلحة محرمة فى القتال . بالإضافة إلى ألوان من الخداع القاتل الفتاك الذى يفتك بالأطفال قبل أن يفتك بالكبار .

أين هذه الأساليب من أساليب المسلمين فى حروبهم ؟

لقد حرم الإسلام الاعتداء على الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين غير المسلمين .

حدث ابن عمر - رضى الله عنه قال : إن رسول الله - ﷺ - رأى فى بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك ، ونهى عن قتل النساء والصبيان .(٢٨)

وقد أوصى أبوبكر - رضى الله عنه - قائده يزيد بن أبى سفيان قائلا : - « إنى موصيك بعشر : لا تقتلن امرأة ، ولا صبيا ، ولا كبيرا هرما ، ولا تقطعن شجرا ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة ، ولا تحرقن نخلا ولا تغرقنه ولا تغلل ولا تغبن ، وستجد قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له » .

ولكن لو أعاق أحد من النساء أو الرهبان المقاتلين أو اشتركوا فى القتال ضد المسلمين قوتلوا ، لأنهم يصبحون فى تلك الحالة محاربين . .

إن هذه الوصية توضح مبدأ من أهم مبادىء الجهاد فى الإسلام ، وهو حماية الممتلكات ، فلا تهدم البيوت على رءوس أصحابها كما يفعل المحاربون الآن ، ولايطرد السكان من أراضيهم وديارهم لإحلال غيرهم محلهم . كما كان يحدث وكما يحدث الآن .

---

(٢٨) تفسير القرطبى جـ٢ ص٣٤٨ وقال القرطبى : رواه الأئمة

ومن مبادىء الجهاد فى الإسلام الوفاء بالمعاهدات التى وقعها المسلمون مع غيرهم ولو كانوا مشركين . وقد جاء القرآن الكريم صريحا فى ذلك حيث يقول :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ (٢٩)

مع ضرورة حماية من يستجير بالمسلمين من المشركين قال تعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (٣٠)

ومن مبادىء الجهاد فى الإسلام حسن معاملة الشعوب ، فإن الحرب فى الإسلام لم تكن موجهة للشعوب ولكنها موجهة ضد الحكام الذين يظلمون الشعوب ويحولون بينهم وبين حقوقهم وحرياتهم .

ولذلك ففى كل حروب الإسلام نرى أنه ترك أهل البلاد المفتوحة أحرارا فى بلادهم وفى ممتلكاتهم وفى عقائدهم وطقوس عبادتهم ومعابدهم ، وبلغ من دقة حرص الإسلام على ذلك ما سجله التاريخ من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ـ حين حضرت الصلاة وهو فى الكنيسة بالشام ـ رفض أن

---

(٢٩) التوبة ٤

(٣٠) التوبة ٦

يصلى فى داخل الكنيسة ، وصلى خارجها حتى لا يأتى المسلمون بعده ويقولوا ان هذا المكان صلى فيه عمر فيجعلوه مسجداً .

والمعاهدة التى عقدها عمر مع أهل بيت المقدس تعد مثالا رائعا فى حرية العقائد وحسن المعاملة وإقرار الأمن ورعاية الحقوق .

ومن الآداب العليا للجهاد فى الإسلام أنه يرغب فى السلام ويحرص عليه مادام العدو راغبا فى ذلك ، حتى ولو كان العدو مخادعا فى ذلك . . . مصداق ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (٣١)

معطيات كلمة الجهاد فى القرآن الكريم

وردت مادة الجهاد بمشتقاتها فى القرآن الكريم إحدى وأربعين مرة مما يدل على عناية الاسلام بالجهاد ، وعلى أنه هو ذروة العمل الصالح .

وقبل أن نتتبع معطيات بعض آيات الجهاد فى القرآن الكريم . نود أن نشير إلى مدلول لفظة الجهاد فى اللغة ، لنتعرف بذلك على معانيها ومدلولاتها فى القرآن الكريم ، فنقول :

---

(٣١) الأنفال ٦١ ، ٦٢

جاء فى لسان العرب : الجهد والجهد - بفتح الجيم وضمها - الطاقة تقول : اجهد جهدك ، وقيل : الجهد - بالفتح - المشقة ، والجهد : - بضم الجيم - الطاقة .

والجهد - بالفتح - أيضا المبالغة والغاية ، وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٣٢)

وقوله - تعالى - :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٣٣)

أما الجهد - بضم الجيم - فيفيد أيضا الشىء القليل يعيش به المقل على جهد العيش ، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى -

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ (٣٤)

---

(٣٢) الأنعام ١٠٩
(٣٣) المائدة ٥٣
(٣٤) التوبة ٧٩

ويقولون اجتهد الإنسان إذا أفرغ طاقته وجهده فيما هو مقبل عليه ، وإذا جاهد فهو كذلك قد بالغ واستفرغ مافى الوسع والطاقة من قول أو فعل فى دفع العدو .

وقد وردت كلمة (جاهد) فى القرآن الكريم بمعنى المبالغة فى حمل الإنسان على مايكره ، وبمعنى الجهاد فى سبيل الله .

فبالمعنى الأول وردت فى موضعين : أحدهما قوله - تعالى -

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٣٥)

والآخر فى قوله - تعالى -

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ (٣٦)

ولكن غالبية هذه المادة وردت فى القرآن منصرفة إلى معنى الجهاد فى سبيل الله . من ذلك قوله - تعالى -

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

---

(٣٥) العنكبوت ٨

(٣٦) لقمان ١٥

وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (٣٧)

لقد نزلت هذه الآيات الكريمة تبين فضل الجهاد وثوابه العظيم عند الله .. وقال العلماء فى سبب نزولها أقوالا متعددة منها :

أن العباس بن عبدالمطلب حين أسر يوم بدر قال : إن كنتم قد سبقتمونا بالإسلام والهجرة لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقى الحاج ونفك العانى فأنزل الله

« أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ... »(٣٨)

وجاء فى تفسير القرطبى راويا عن السدى قال : افتخر العباس بن عبدالمطلب بالسقاية ، وشيبة بن ربيعة بالعمارة ، وعلى بن أبى طالب بالإسلام والجهاد ، فصدق الله علياً وكذبهما ، وأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر وإنما تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة .

---

(٣٧) التوبة ١٩ : ٢٢

(٣٨) أسباب النزول للسيوطى ص ٩٢

قال : ويقال : إن المشركين سألوا اليهود وقالوا لهم : نحن سقاة الحجاج وعمار المسجد الحرام ، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟

فقال اليهود كراهية فى الإسلام ورسوله : أنتم أفضل .

وجاء فى صحيح مسلم عن النعمان بن بشير - رضى الله عنه - قال : كنت عند منبر رسول الله - ﷺ - فقال رجل : ما أبالى ألا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ،

وقال آخر : ما أبالى ألا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام .

وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم -

فزجرهم عمر - رضى الله عنه - وقال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله - ﷺ - وكان اليوم يوم جمعة - فإذا صليت الجمعة استفتيت رسول الله - ﷺ - فيما اختلفتم فيه .

فأنزل الله - عز وجل - : « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر . . . » الى آخر الآية .

وربما لم يكن هذا سبب النزول بل كان مناسبة تلا النبى - ﷺ - فيها هذه الآية وكانت قد نزلت قبل ذلك - لأن عجز الآية وهو قوله - تعالى -

« والله لا يهدى القوم الظالمين »

لا يتفق مع هذه المناسبة ، لأن هؤلاء القوم جميعاً كانوا مسلمين . . »[39]

ومن الآيات التى نزلت فى بيان فضل الجهاد أيضا قوله ـ تعالى ـ

﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦ ﴾[40]

وقوله ـ تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨ ﴾[41]

قصة نزول هذه الآية

ولهذه الآية الأخيرة مناسبة يجمل أن نذكرها :

ذكر ابن كثير فى تفسيره قال :

بعث رسول الله ـ ﷺ ـ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدى ـ فى رجب بعد أن قفل من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد .

وكتب له كتابا ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضى لما أمره به فى هذا الكتاب ، ولايستكره من أصحابه أحدا :

وهؤلاء الرهط كما ذكرهم ابن كثير هم :

---

(٣٩) راجع تفسير القرطبى فى ذلك ـ سورة التوبة ص ٢٩٣١ ط دار الشعب

(٤٠) العنكبوت ٦

(٤١) البقرة ٢١٨

عبد الله بن جحش وهو أمير القوم .

وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف .

وعكاشة بن حُرثان من أسد بن خزيمة .

وعتبة بن غزوان بن جابر من بنى نوفل بن عبد مناف .

وسعد بن أبي وقاص من بنى زهرة بن كلاب .

وعامر بن ربيعة من بنى عدى بن كعب .

وواقد بن عبد الله بن عبد مناف أحد بنى تميم

وخالد بن البكير من بنى سعد بن ليث

وسهيل بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر .

وسار عبد الله بن جحش يومين ثم فتح الكتاب كما أمره بذلك رسول الله ـ ﷺ ـ وقرأ الكتاب فإذا فيه :

« إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة ـ بين مكة والطائف ـ ترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم .

فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال : سمعا وطاعة ، ثم التفت إلى أصحابه وقال لهم :

قد أمرنى رسول الله ـ ﷺ ـ أن أمضى إلى نخلة بين مكة والطائف ، أرصد بها قريشا ، حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحدا منكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق معى ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ـ ﷺ ـ

فمضى ومضى أصحابه معه ، لم يتخلف عنه منهم أحد .

وسلك عبد الله الطرق المأمونة البعيدة عن عيون القوم حتى إذا كان بموضع يقال له : بُحْران ، ضل بعير لسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان كانا يعتقبانه ـ يتبادلان الركوب عليه ـ فتخلفا في طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ـ وهو الموضع الذى سماه لهم رسول الله ـ ﷺ ـ

فمرت بهم عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة قريش . . وكان يرافق العير : عمرو بن الحضرمى ، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان ، والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة .

فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريبا منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن حرثان ، وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمِنوا ، وقالوا : عُمَّار ـ أى معتمرون يؤدون العمرة ـ لا بأس عليكم منهم .

فلما كان اليوم الأخير من رجب دارت معركة بين أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وهؤلاء النفر من قريش .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ قدد ترددوا فى قتالهم ، لأن رجب من الأشهر الحرم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ مامعهم : وقالوا هذه آخر ليلة فى رجب وربما يكون شعبان قد دخل . .

فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، وأسر

عثمان بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، وأفلت نوفل بن عبد الله وعجزوا عن اللحاق به .

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة .

فلما قدموا قال رسول الله ـ ﷺ ـ : ماأمرتكم بقتال فى الشهر الحرام . فوقّف العير والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا . وكان عبد الله قد عزل الخمس من الغنيمة لرسول الله ـ ﷺ ـ وقسم الباقى بين أصحابه . فلما قال رسول الله ـ ﷺ ـ ذلك ، ورفض أن يأخذ من الغنيمة شيئا أسقط فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا ، وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا .

وانتهزتها قريش فرصة فشنّعوا على المسلمين ، وقالوا : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال .

وكان فى مكة من المسلمين رجال ، فأخذوا يردون على المشركين قائلين : إنما أصابوا ماأصابوا فى شعبان وليس فى رجب .

ولما أكثر الناس القول حول ذلك الحادث ، أنزل الله على رسوله ـ ﷺ ـ قوله تعالى :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل . . . . »

ولما نزلت هذه الآية فرج الله عن المسلمين ماكانوا فيه من الضيق والحرج . .

وبعثت قريش فى فداء أسيريها ، فقال النبى - ﷺ - لانتركهما حتى يقدم صاحبانا سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان ، فإنا نخشاكم عليهما ، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم .

فقدم سعد وعتبة ، فترك النبى - ﷺ - ، الأسيرين . .

فأما الحكم بن كيسان وهو أحد الأسيرين فقد أسلم وحسن إسلامه ، ورفض العودة الى مكة ، وأقام مع النبى - ﷺ - بالمدينة ، واستشهد يوم بئر معونة .

وأما عثمان بن عبد الله بن المغيرة فلحق بمكة ، ومات بها كافراً .

قيل : ولما انجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ماكانوا فيه حين نزل القرآن ، طمعوا فى الأجر ، فقالوا : يارسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل . .

« إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم » .

فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء .

وقد سجل الشعر - كعادته - هذا الحدث حين قال المشركون ماقالوا من أن محمدا وأصحابه أحلوا الشهر الحرام ، ونزل القرآن الكريم ينعى على المشركين قولهم : فقال أبو بكر الصديق ، أو عبد الله بن جحش نفسه :

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة وأعظم منه لو يرى الرشد راشد
صدودكم عما يقول محمد وكفر به والله راءٍ وشاهد
واخراجكم من مسجد الله أهله لئلا يُرَى لله فى البيت ساجد
فإنا وإن عيرتمونا بقتله وأرجف بالاسلام باغ وحاسد
سقينا من ابن الحضرمى رماحنا بنخلة لما أوقد الحرب واقد
دما وابن عبد الله عثمان بيننا ينازعه غُلٌّ من القد عاند[42]

ومن الآيات الواردة فى فضل الجهاد - أيضا - قوله تعالى -

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) ﴾[43]

وتبين هذه الآيات أن الجهاد والصبر عليه شرط من أهم شروط دخول الجنة .

وذلك من علامات الإيمان مصداقا لقوله - تعالى -

(٤٢) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٧٠
(٤٣) آل عمران ١٤٢

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾ (٤٤)

ونظير ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٦ ﴾ (٤٥)

ومعنى الآية : كيف تتركون أن تقولوا آمنا دون أن تمتحنوا بالجهاد لنرى أتصبرون عليه أم لا ؟

والوليجة هى البطانة التى نهوا عن اتخاذها فى قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ۝١١٨ ﴾ (٤٦)

والجهاد دليل من أدلة صدق المؤمن فى إيمانه ـ قال تعالى :

---

(٤٤) العنكبوت ٢

(٤٥) التوبة ١٦

(٤٦) آل عمران ١١٨

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٤٧)

والجهاد سبب من أسباب غفران الذنوب ، قال ـ تعالى ـ

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ﴾ (٤٨)

وهذه الآية تخبرنا عن قوم كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم استطاع القوم أن يفتنوهم ، ثم إنهم بعد ذلك أمكنهم الخلاص بالهجرة فتركوا بلادهم وأهليهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله وغفرانه ، وانتظموا فى سلك المؤمنين وجاهدوا الكافرين وصبروا فغفر الله لهم ذنوبهم التى علقت بهم باستجابتهم لفتنة الكفار .

إن الرسول ـ ﷺ ـ هو إمام المجاهدين ، وهو وأصحابه قدوة لنا فى الجهاد ، وقد أثنى الحق سبحانه وتعالى عليهم فى قوله : ـ

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡخَيۡرَٰتُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ

---

(٤٧) الأنفال ٧٤
(٤٨) النحل ١١٠

﴿ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾ (٤٩)

إن لفظة « لكن » فى أول الآية السابقة ـ استدراك يبين فضل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الذين لبوا دعوة الجهاد مسرعين ، ولم يتخلفوا مع المتخلفين فى غزوة تبوك ، الذين قالوا لأصحابهم : لا تنفروا فى الحر . . ولو كانوا يفقهون لعلموا أن نار جهنم أشد حراً . . إن القعُود عن الجهاد هو من علامات النفاق ، وقد فضح القرآن الكريم المنافقين فى قوله

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ (٥٠)

وفى قوله

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ (٥١)

ولأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو القدوة فى الجهاد فقد أُمِرَ به أولاً ، والأمر إليه موجه إلى أمته بالتبعية ـ قال تعالى

---

(٤٩) التوبة ٨٨ ، ٨٩

(٥٠) التوبة ٨٦

(٥١) التوبة ٨١

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ﴾ (٥٢)

لقد قرن الله المنافقين مع الكفار فى وجوب جهادهم ، لما يترتب على أفعالهم من خطورة فى شق عصا المؤمنين ، وتفريق كلمتهم ، وإضعاف شوكتهم ، وهم كذلك فى كل زمان ومكان .

والجهاد خير تجارة مع الله قال تعالى

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (٥٣)

هى تجارة رائجة رابحة كما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ

---

(٥٢) التوبة ٧٣ ، التحريم ٩
(٥٣) الصف ١٠ ، ١١

﴿ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١ ﴾ (٥٤)

روى ابن كثير فى تفسيره قال : قال محمد بن كعب القرظى وغيره : قال عبد الله بن رواحة ـ رضى الله عنه ـ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بيعة العقبة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت يا رسول الله ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم .

قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

قال : الجنة إن شاء الله . .

قالوا : ربح البيع ربح البيع ، فنزلت هذه الآية .

« وإذا كان الجهاد يغفر الذنوب ويستوجب الجنة ، فهو أيضاً طريق للهداية قال ـ تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾ (٥٥)

ما قاله العلماء فى تفسير هذه الآية

قال القرطبى فى تفسير هذه الآية : الجهاد هنا هو جهاد الكفار . أى جاهدوا الكفار فى مرضاتنا .

---

(٥٤) التوبة ١١١

(٥٥) العنكبوت ٦٩

ولكن السدى يقول : إن هذه الآية نزلت قبل فرض القتال ، ولذا فإن الجهاد فيها لا يحمل على القتال ، وإنما هو جهاد عام فى دين الله وطلب مرضاته .

وقال الحسن : هذه الآية وردت فى حق العُبَّاد ، وقال ابن عباس ، وإبراهيم بن أدهم : هى فى العلماء الذين يعملون بما يعلمون ، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « من عمل بما علم علمه الله علم ما لم يعلم » قال تعالى :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾ (٥٦)

ولعمر بن عبد العزيز ـ رضى الله عنه ـ ميل إلى هذا المعنى فقد قال : إنما قصَّرَ بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا فى العمل بما علمنا ، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علماً لا تقوم به أبداننا قال الله ـ تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

---

(٥٦) البقرة ٢٨٢

وليس هناك ما يمنع من حمل الجهاد فى الآية على ذلك كله . .

قال أبو سليمان الداراني : ليس الجهاد فى الآية قتال الكفار فقط بل هو نصر الدين ، والرد على المبطلين وقمع الظالمين ، وأعظمه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومنه مجاهدة النفوس فى طاعة الله وهو الجهاد الأكبر .

والجهاد الأكبر يقصد به تربية النفس وتهذيبها وتخليصها من عاداتها السيئة وصفاتها المذمومة ، وحملها على الطاعات والقربات حتى ترتقى إلى أعلى المقامات .

وأطلق على تهذيب النفس لفظ الجهاد ، لأن النفس أعدى عدو لصاحبها ، والقرآن الكريم يقول فى ذلك


﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾

---

(٥٧) يوسف

والبوصيرى يقول فى بردته فى معرض نصائحه :

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإن هما محضاك النصح فاتهم

ذكر القتال فى القرآن

وإذا كان لفظ الجهاد قد ورد فى القرآن فيما يقرب من ثلاثين موضعاً ـ ذكرنا بعضها ـ فإن لفظ القتال فى سبيل الله قد ورد فى القرآن كذلك فى مواضع كثيرة منها غير ما ذكرناه فيما سبق قوله ـ تعالى ـ

﴿ فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ وَحَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأۡسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسٗا وَأَشَدُّ تَنكِيلٗا ٨٤ ﴾(٥٨)

وقد قال بعض العلماء فى هذه الآية : إنها متعلقة بقوله ـ تعالى ـ

﴿ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤ ﴾(٥٩)

أى من أجل هذا الأجر العظيم فقاتل .

لقد أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى هذه الآية بالجهاد

---

(٥٨) النساء ٨٤

(٥٩) النساء ٧٤

ولو كان وحده ، كما أمره أن يشجع المؤمنين ويحثهم على القتال لردع العدوان ونصرة الدين .

ولهذا يجب على المؤمنين الجهاد ، لأن الأمر فى الآية وإن كان موجهاً للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو موجه كذلك لأمته . يفيد ذلك قوله « وحرض المؤمنين » . ومن ذلك قول النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ « والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتى » وقد قال هذه العبارة يوم الحديبية ، وذلك حين حالت قريش بينه وبين دخول مكة وكان قد عزم على الذهاب إليها معتمراً . . وبلغه أن قريشا قد جمعت جموعها له فقال : « يا ويح قريش ، لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ـ أى مكتملى القوة ـ ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؟ فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على هذا الذى بعثنى الله به حتى يُظهره أو تنفرد هذه السالفة » .

ومن آيات القتال قوله تعالى :

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (٦٠)

وقد ذكر فى سبب نزول تلك الآيات . أن قريشاً حين عاد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد صلح الحديبية بسنة ـ لأداء العمرة ـ هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة ، ونقضوا عهدهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاعتدوا على قبيلة خزاعة التى كانت فى حلف مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل قوله تعالى :

« فقاتلوا أئمة الكفر »

وأبرّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعين حلفاءه . وفى البخارى

---

(٦٠) التوبة ١٢ : ١٥

عن زيد بن وهب قال : كنا عند حذيفة فقال : ما بقى من أصحاب هذه الآية «يعنى «أئمة الكفر» إلا ثلاثة ، ولا بقى من المنافقين إلا أربعة[٦١] . .

ثم لم تلبث أن انطوت صفحة النفاق والكفر .

النفار بمعنى الجهاد

ورد فى القرآن الكريم لفظ النفار بمعنى الدعوة للجهاد ، ومن ذلك قوله - تعالى -

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾[٦٢]

ومعنى انفروا : انهضوا لقتال عدوكم ، يقال : استنفر الإمام الناس دعاهم إلى النَّفْرِ - أى الخروج إلى قتال العدو ، والنفير اسم للقوم الذين ينفرون ، وأصله من النفار والنفور وهو الفزع ، ومنه قوله - تعالى -

﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾[٦٣]

---

(٦١) أنظر تفسير القرطبى سورة التوبة ص ٢٩٢٤ ط دار الشعب

(٦٢) النساء ٧١

(٦٣) الإسراء ٤٦

أي نافرين فزعين .

والنَّفرَ : عدة من الرجال بين الثلاثة إلى العشرة .

أما الثُّبات بضم الثاء فهو جمع ثُبَة بمعنى الجماعة ، والثبات الجماعات ويعنى بها السرايا جمع سرية .

ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٦٤)

وقوله :

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (٦٥)

---

(٦٤) التوبة ٣٨ ، ٣٩

(٦٥) التوبة ٤١

وقد نزلت هذه الآيات فى غزوة تبوك ـ حين دعا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس إليها فى حرارة القيظ ، وفى الوقت الذى يحب الناس فيه الركون إلى رطيب الثمار وبرد الظلال ، فاستولى على الناس الكسل فتقاعسوا وتثاقلوا . . فعاب الله عليهم إيثارهم الدنيا على الآخرة . .

وكما يكون النفار للجهاد بقتال العدو ، فقد يكون النفار للجهاد بطلب العلم وتعليمه ، لأن وجوه الجهاد متعددة كما سيأتى . قال تعالى

﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (٦٦)

وفى ذلك دليل على أن طلب العلم وتعليمه من أفضل أنواع الجهاد .

أنواع الجهاد

والجهاد فى سبيل الله له أنواع متعددة .

فمنه الجهاد بالنفس ، والمشاركة فى القتال ولقاء العدو ، وهذا يقتضى الاستعداد له بكل أوجه الاستعداد . من تدرب على استعمال السلاح ، ومتابعة تطوره ، ومعرفة طرق العدو فى قتاله وكيفية الرد عليه ومحاورته ومناورته ، والمعرفة الدقيقة بأماكن العدو وتجمعاته واستعداداته ، وقد أشار القرآن الكريم لذلك بقوله

---

(٦٦) التوبة ١٢٢

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ (٦٠) (٦٧)

وربما أوضح النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ طرفا من هذه القوة التى أمر الله المسلمين بإعدادها للعدو ، وهو مما كان سائداً فى عصره فقال وهو على المنبر ـ فيما يرويه عقبة بن عامر وأورده مسلم فى صحيحه ـ « وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة . . ألا ان القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى »

وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كل شىء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه وتعليمه فرسه وملاعبته أهله فإنه من الحق »

ومعنى هذا فيما يفسره القرطبى : أن كل ما يتلهى به الرجل مما لا يفيده فى العاجل ولا فى الآجل فائدة ـ فهو باطل والاعراض عنه أولى . .

أما هذه الأمور الثلاثة فإنه وإن كان يفعلها على أنه يتلهى بها وينشط ، فإنها حق لا تصالها بما قد يفيد ، فإن الرمى بالقوس وتعليم الفرس فيه

---

(٦٧) الأنفال ٦٠

تدريب على القتال ، وملاعبة الأهل فيها الوئام والحب والسرور ، فلهذا كانت هذه الثلاثة من الحق .

وقد اهتم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالرمى لأنه كان وسيلة الحرب السائدة حتى لقد قال تشجيعاً على ذلك : « إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بسهم واحد : صانعه يحتسب فى صنعته الخير ، والرامى ، ومُنبله » وهذا إذا استعمل لنصرة دين الله ، وإحقاق الحق الذى أمر به .

ويقاس على ذلك كل وسيلة تجدُّ ويكون لها أثر فى كسب المعركة ، فإن الأمر بها داخل تحت قوله ـ تعالى ـ
« وأعدوا لهم ما أستطعتم من قوة »

وقوله : ومن رباط الخيل يفيد مزيد العناية بما له تأثير خاص فى إدارة المعركة وحسمها ، وقد كانت الخيل قديماً لها ذلك التأثير ، ويقاس عليها الطائرات فى عصرنا الراهن ، كما يقاس عليها كل وسيلة حربية تَجِدُّ ، ويكون لها التأثير القوى فى كسب المعارك .

ويدخل تحت أنواع الجهاد بالنفس ـ المشجعون والمحفزون والمهيئون لنفوس الجنود ، والمثبطون لجنود العدو بما يملكونه من طاقات إبداعية فى فن الاعلام ، أو غير ذلك مما يكون له تأثير طيب فى نفوس جنودنا ، وتأثير مضاد فى نفوس أعدائنا ..

ومن أنواع الجهاد - الجهاد بالمال - وقد نص القرآن الكريم عليه فى مواضع متعددة منها قوله - تعالى -

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ (٦٨)

وقوله - تعالى -

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ (٦٩)

---

(٦٨) الصف ١٠ ، ١١

(٦٩) التوبة ١١١

إن المال لا يقل أهمية عن النفس فى بعض الأحيان ، بل ربما فاق الجهاد بالنفس وذلك حين يعوزنا المال لشراء السلاح وإنشاء المصانع وإعداد الوسائل وملاحقة التطور وغير ذلك ..

ومن أنواع الجهاد العلم والتعلم لأن من شأن ذلك تقدم المسلمين ورفعة شأنهم وتمكينهم من الغلبة على عدوهم - قال تعالى -

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (٧٠)

وفى الأثر : « يوزن مداد العلماء بدماء الشهداء يوم القيامة »

وذكر القرطبى فى تفسيره قول ابن عباس - رضى الله عنهما : « أفضل الجهاد من بنى مسجداً يعلم فيه القرآن والسنة .

وقال روى شُريك عن ليث بن أبى سليم عن يحيى بن أبى كثير عن على الأزدى قال : أردت الجهاد فقال لى ابن عباس : ألا أدلك على ما هو خير لك تأتى مسجداً فتقرىء الناس فيه القرآن وتعلمهم الفقه فى الدين .

من جهاد العلماء

وأحق الناس بالجهاد هم العلماء ، لأنهم الذين عرفوا فضل الجهاد ورووا

---

(٧٠) التوبة ١٢٢

ما ورد فيه من آثار .. فهم فضلاً عن أن طلبهم العلم جهاد ، وتعليمهم العلم جهاد إلا أنهم كثيراً ما جمعوا بين ذلك وبين الجهاد فى ميادين الحرب.. يدفعون الاعداء ويرفعون كلمة الله ويذكرون الناس بواجبهم...

ولقد تحدث العلماء كثيراً فى فضيلة كل من العلم والجهاد ، ووازنوا بين العالم والمجاهد ، واتفقوا على أفضلية كل منهما ، وأن كليهما له من الفضل ما يرفع من قدره فى الدنيا والآخرة بشرط أن يكون العمل فيهما خالصاً لوجه الله .

عبدالله بن المبارك

ومن العلماء المجاهدين الذين جمعوا بين فضيلتى العلم والجهاد عبدالله بن المبارك ، وهو من متقدمى السلف الصالح ، من التابعين ، كان مشهوداً له بالعلم والرواية ، وله حلقة من حلقات العلم يحضرها التلاميذ والمحبون للعلم . وكان معاصراً له الفضيل بن عياض الفقيه المحدث .

ومن صفات عبدالله بن المبارك إلى جانب علمه الغزير أنه كان يأكل من تجارته التى يكسب منها ثم يعود بعد ذلك وينفق باقى ما يكسبه على أهل العلم والمحتاجين .

قال عنه سفيان بن عيينة : نظرت فى أمره وأمر الصحابة فما رأيتهم يفضلونه إلا بصحبتهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

قدم مرة « الرَّقَّة » ـ اسم مدينة ـ وبها هارون الرشيد ، فاحتفل الناس به

وتركوا هارون الرشيد ، وأشرفت أم ولد للرشيد من قصرها فرأت الناس يزدحمون حوله . فقالت : ما للناس ؟

فقالوا لها : عالم خراسان عبدالله بن المبارك . جاء فاجتمع الناس إليه .

فقالت : هذا والله هو المُلْك .

هذا العالم الجليل كان يحب الجهاد فى ميادين الحرب . ومن شعره الذى يتحدث فيه عن عظمة الجهاد ، ويعلى قدر المجاهد على قدر العابد الذى ترك الجهاد ـ قوله :

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك فى الجهالة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب

ريح العبير بكم ونحن عبيرنا ... وهج السنابك والغبار الأطيب

ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب

لا يستوى غبار خيل الله فى ... أنف أمرىء ودخان نار تلهب

هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

ولما سمع فُضَيْل بن عياض هذا الشعر وهو فى المسجد الحرام قال : صدق والله أبو عبدالرحمن . وذكر لمن أنشده هذه الأبيات حديث رسول الله ﷺ الذى رواه أبو هريرة : إن رجلاً قال : يارسول الله ، علمنى عملاً أنال به ثواب المجاهدين فى سبيل الله . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : هل تستطيع أن تصلى فلا تفتر ، وتصوم فلا تفطر ؟

فقال : يارسول الله ، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك .

فقال النبى ﷺ : ولو طقت ذلك ما بلغت المجاهدين فى سبيل الله .

أسد بن الفرات

ولنقلب معاً صفحات التاريخ لنعثر على سيرة الفقيه البطل أسد بن الفرات فى طليعة المجاهدين الذين جمعوا بين فضيلة الجهاد فى العلم والجهاد فى الغزو .

وقد نشأ هذا الفقيه فى المغرب ورحل فى طلب العلم إلى الحجاز ، حيث التقى بالإمام مالك ـ رضى الله عنه ـ ثم ارتحل إلى العراق ومصر ، وكان له أثر كبير فى نشر مذهب الإمام مالك فى « القيروان » التى استقر بها أخيراً ، وكانت له حلقة كبيرة يجتمع إليه فيها التلاميذ من كل مكان ، وفى يوم كان يفسر قوله تعالى :

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ (٧١)

فأخذت الآية بأقطار نفسه ولم يطق صبراً على البقاء بعيداً عن ساحة القتال وكان المسلمون يجاهدون الروم ، فركب إحدى سفن الجنود إلى صقلية مع المجاهدين .

وكان قد بلغ من العمر نيفاً وسبعين .

وأخذ يخطب فى الجنود يحثهم على القتال ، وكان لخطبته أبلغ الأثر فى كسب المعركة ، وانضمت صقلية إلى قلاع الإسلام .

---

(٧١) التوبة ٤١

الشجاعة الأدبية

ومن أنواع الجهاد كلمة الحق التى يجهر بها صاحبها لا يخشى فى سبيل الجهر بها لومة لائم . وقد ورد فى الأثر : الساكت على الحق شيطان أخرس .

وقد برز فى هذا الميدان كثير من العلماء الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وضحوا بأرواحهم فى سبيل كلمة الحق والدفاع عن المظلوم وكف الظالم عن ظلمه .

وفى الأثر الكريم إن « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

فضل الجهاد

وغنى عن القول بيان فضل الجهاد . . . فبه يعز الإسلام ويرتفع شأن المسلمين ، وتتوطد كلمة الدين ، ويكفى فى بيان فضله قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لمعاذ بن جبل : ألا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟

قال : بلى يارسول الله .

قال : رأس الأمر الإسلام ـ وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد .

وقد فضل الله المجاهدين على غيرهم وقال فى محكم كتابه :

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ

﴿ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ (٧٢)

وَرُوِى حول هذه الآية عن زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ قال : كنت إلى جنب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فغشيته السكينة ، فوقعتْ فخذ رسول الله ﷺ على فخذى ، فما وجدت ثقل شيء أثقل من فخذ رسول الله ﷺ ثم سُرِّىَ عنه فقال : اكتب ، فكتبت فى كتف : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله » إلى آخر الآية .

فقام عبدالله بن أم مكتوم ، وكان رجلاً أعمى لما سمع فضيلة المجاهدين فقال : يارسول الله ، فكيف من لا يستطيع الجهاد من المؤمنين ؟

فلما قضى كلامه غشيت رسول الله ﷺ السكينة ، ثم سرى عنه فقال : اقرأ يازيد فقرأت : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » فقال رسول الله ﷺ : « غير أولى الضرر » الآية . .

قال زيد : فأنزلها الله وحدها فألحقتها ، والذى نفسى بيده لكأنى أنظر إلى ملحقها عند صدع فى كتف . .

وأهل الضرر هم أهل الأعذار الذين لا يستطيعون الجهاد وقد رفع الله عنهم الحرج بقوله تعالى :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ

---

(٧٢) النساء ٩٥ ، ٩٦

ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ (٧٣)

وقــــوله تعالى :

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (٧٤)

ويكفى فى فضل الجهاد أن الله جعله من أعظم التجارة ربحاً مع الله سبحانه وتعالى ، وجعل جزاءه الجنة بغير حساب ، وجعل الشهيد حياً يرزق عند ربه لأنه ضحى بروحه فى سبيل الله : « والجود بالنفس أقصى غاية الجود »

وقد أظهر الله سبحانه وتعالى فضل الشهيد بقوله تعالى :

---

(٧٣) الفتح ١٧

(٧٤) التوبة ٩١ : ٩٣

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (٧٥)

وقـــال :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ (٧٦)

قال ابن كثير فى تفسيره : إن الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون ، كما جاء فى صحيح مسلم ـ أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش ، فأطلع عليهم رب العزة ، فقال : ماذا تبغون ؟

فقالوا : ياربنا ، وأى شيء نبغى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟

وذكر أنهم يقولون : نريد العودة إلى الدار الدنيا ، فنقاتل فى سبيل الله ، حتى نقتل مرة أخرى ، ثم نعود ونقاتل حتى نقتل مرة أخرى .

---

(٧٥) البقرة ١٥٤

(٧٦) آل عمران ١٦٩ : ١٧١

وهكذا لما يرون من ثواب الشهادة ، فيقول الله جل جلاله : إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

وروى القرطبى فى تفسيره قال : قال الشهداء : من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا يتخلفوا عند الحرب ؟ فأنزل الله سبحانه : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً . . . . » إلى آخر الآيات . .

وعن جابر - رضى الله عنه - قال : لقينى رسول الله ﷺ

فقال : ياجابر مالى أراك منكساً مهتماً ؟

قلت : يارسول الله ، استشهد أبى وترك عيالاً ، وعليه دين .

فقال : ألا أبشرك بما يلقاه الشهداء

قلت : بلى ، يارسول الله .

قال : إن الله يقول لهم : تمنوا أعطكم . .

فيقولون ياربنا نرد إلى الدنيا فنقتل فى سبيلك مرة ثانية . .

فيقول - تبارك وتعالى - : إنه قد سبق منى - أنهم إليها لا يرجعون ، فيقولون : ليت إخواننا يعلمون ذلك .

فأنزل الله - عز وجل - « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله . . . . » الآية

ذلك فضل الجهاد والاستشهاد نذكره للمسلمين فى وقتنا الحاضر هؤلاء الذين نكصوا عن الجهاد ، مع أن الجهاد ماض إلى يوم القيامة ، وحال المسلمين اليوم يستصرخهم أن يلبوا داعى الجهاد ليرفعوا شأن دينهم ، ويعودوا إلى سابق عزهم ومجدهم ويردوا عن أنفسهم كيد الكائدين ، وبغى الباغين وطمع الطامعين . .

متطلبات الجهاد

وإذا كان الجهاد بهذا الفضل العظيم ، وله ذلك الثواب الجزيل فإن له متطلبات تناسب هذا العمل الجليل . .

وقد وضع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإعتباره القائد الأعلى للمسلمين المنهج الكامل لهذه المتطلبات . وكانت مدرسته التى بدأها فى مكة ثم أرسى دعائمها فى المدينة المنورة تعمل على تنشئة المجاهدين على النمط المثالى الذى يحقق الأهداف المثالية .

فقد تعلم المسلمون من رسول الله ﷺ كيف يكون الجهاد وكيف يكون الاستعداد؟

وقد كانت قيادته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجنوده مثالاً يحتذى ونموذجاً فريداً فى حسن القيادة والجندية معاً . .

النبى القائد

لقد تلقى المسلمون الأوائل على يد قائدهم ونبيهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ كل المبادىء السليمة لتكوين الجندى المثالى .

هذه المبادىء التى تجتهدُ المؤسسات العسكرية فى العصور المتوالية محاولة الوصول إليها دون جدوى .

وليس من شك فى أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان قمة فى حسن القيادة والتدبير وحنكة الرأى ونفاذ البصيرة ودقة التخطيط وحسن الإستشارة .

درب جنوده فأحسن تدريبهم ، ورباهم على أحسن ما يكون الجندى الفطن الكفء المتيقظ الفدائى الذى لا يأبه بالعقبات ، ولا يكترث للصعاب ، ولا تثنى عزمه المتاعب والحواجز .

كان النبى ﷺ : « نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة ـ يعلم من فنونها بالإلهام مالم يعلمه غيره بالدرس والمران ، ويصيب فى اختيار وقته وتنظيم جيوشه ورسم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة . . . وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والإنشاء ؛ لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة المجرب كما تستفيد من شجاعة الشجاع ، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام . . . ولو تتبع حروبه ـ عليه السلام ـ ناقد عسكرى من أساطين وقواد الحرب فى العصر الحديث ليقترح وراءه خططاً غير خططه أو ينبه إلى خطأ ، لأعياه التعديل ولعجز عن التبديل [٧٧]

---

(٧٧) انظر عبقرية محمد للعقاد

ولقد خاض النبى ﷺ كثيراً من الغزوات فى مقدمتها غزوة بدر وآخراها غزوة تبوك ، وسوف نعرض لذلك بالتفصيل إن شاء الله ـ تعالى ـ وفى كل هذه المواقع كانت عظمته وحسن قيادته مضرب الأمثال ، وكانت فراسته وصدق رأيه فوق كل متناول لأنهما موصولان بسبب إلى السماء حيث قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾ (٧٨)

ولقد تخرج فى مدرسة النبى ﷺ كثير من القادة والجنود البارعين وحسبنا أن نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ـ على بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وزيد بن حارثة ، وأسامة بن زيد ، والمثنى بن حارثة ، والمقداد بن الأسود ، وعمرو بن العاص ، وخالد بن الوليد الذى أكسبته مدرسة النبى ﷺ صقلاً وتوجيهاً ودراية وكفاءة . . وكثير غير هؤلاء ممن كانوا فى براعتهم الحربية ومقدرتهم القتالية قدوة طيبة ومثلاً يحتذى . .

الأسس التى قامت عليها التربية العسكرية فى الإسلام

(١) قامت التربية العسكرية الإسلامية على قوة العقيدة ، فلا هدف يمكن تحقيقه دون أن تكون وراءه عقيدة تدفع إليه .

وقد وطد الإسلام عقيدته فى النفوس عن طريق العبادات والشعائر وعن طريق القدوة الطيبة التى رآها المسلمون الأوائل فى نبيهم الكريم . . وقوة العقيدة كما يعززها العمل وتغذيها القدوة يحرسها العلم وينميها ، فتصبح

---

(٧٨) النجم ٣

لها ثمار ناضجة شهية تظهر فى الاطمئنان الروحى والنفسى وفى الإقبال على أداء العمل بهمة لا تعرف الملل ، ونشاط لا يعتريه الكسل .

والعقيدة القوية هى التى أوجبت على المسلمين الجهاد لأنهم رأوا أن عليهم واجباً يجب أداؤه نحو مجتمعهم يتمثل فى هداية الناس وإرشادهم وإنقاذهم من حمأة الرذيلة والشرك اللذين يتردى فيهما المجتمع . . وكانوا لا يبالون فى سبيل أداء ذلك الواجب بما يلاقونه من أذى لأن عقيدتهم تبين وتؤكد لهم أن الاستشهاد فى سبيل ذلك ثمنه الجنة . .

ويتصل بقوة العقيدة تربية الإرادة التى يطلق عليها بأسلوب العسكرية الحديثة « قوة الانضباط » فتربية الإرادة تحتم على المؤمن أن يتحدى الصعاب ويتخطى الشدائد ويربى نفسه على أسس سليمة من الحرية والكرامة ، حيث لا يستشعر أمامه قوة يخشى بأسها سوى قوة الله القهار . . فمن وصايا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قوله : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء ما نفعوك ألا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك »

وهذا واضح فى قوله تعالى :

﴿ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (٧٩)

---

(٧٩) المائدة ٤٤

وفي قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه » وهذه هي الشجاعة الأدبية التي أشرنا إليها قبل ذلك . .

ومتى تغلغلت هذه المبادىء في نفس إنسان هانت الدنيا في نظره وأقبل على الله بشوق وحب شديدين . .

(٢) حسن القيادة من القائد وحسن الطاعة من الجنود

ربى الإسلام أبناءه على حسن القيادة ، وحسن اختيار القائد وطاعة القائد الذي يولى عليهم مهما كانت سنه . . وأمامنا في ذلك أمثلة كثيرة نختار منها مثالين :

أحدهما اختيار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أسامة بن زيد قائداً عاماً للجيش المعروف بجيش أسامة ، الذي كونه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل وفاته بقليل ، وأكمل إنفاذه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ

وقد كان في هذا الجيش من هو أكبر وأسن من أسامة من أمثال عمر وعثمان وغيرهما .

ولكن النبي ﷺ أراد أن يعلم أصحابه وجوب طاعة القائد الذي يعين مادامت عنده القدرة على مواجهة الموقف مهما كانت سنه . .

وتوفي الرسول ﷺ قبل خروج هذا الجيش فطلب بعض الصحابة من أبي بكر تغيير القائد لصغر سنه بقائد أكبر منه سناً . فرفض أبو بكر قائلاً : أيوليه الرسول ﷺ وأنا أعزله ؟

ومشى يودع الجيش بنفسه راجلاً وأسامة على فرسه . وقال أسامة : يا خليفة رسول الله ، لتركبنَّ أو لأنزلن . فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه :

والله لا أركب ولا تنزل . وماعلى أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة .

وبذلك أراد أبو بكر أن يضع أمام المسلمين مثلاً فى احترام القائد على الرغم من صغر سنه .

ثم أعقب هذا المثل بمثل آخر هو استئذانه أسامة فى أن يترك له عمر بن الخطاب يعينه على الحكم ويستفيد برأيه . فقال لأسامة : إن أردت أن تعيننى بعمر فافعل . وكان عمر جندياً فى جيش أسامة .

وكان بوسع أبى بكر أن يستبقيه دون أن يستأذن أسامة ، ولكنه أمام قيم يريد أن يوطدها ، ويلفت الأنظار إليها .

أما المثال الثانى ، فنأخذه من خالد بن الوليد ، فقد كان على حداثة سنه موضع تقدير من النبى صلى الله عليه وسلم ـ لأنه عرف أقصى مستطاعه قبل أن تظهر جميع كوامن قدرته وكفاءته ، وسماه سيف الله ، وبينه وبين الوقائع التى استحق أن يأخذ بها هذا اللقب الجليل بضع سنوات ، فقد لقبه بذلك وهو عائد من غزوة مؤتة بعد أن نجح فى خطته التى أمّن فيها انسحاب المسلمين بسلام قبل أن يستحكم الخطر المحدق بهم فيقضى عليهم ، وهذا هو الفرق بين تقدير النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقادته وتقدير غيره من الزعماء والحكام لقوادهم .

وهذا مثل من النبى الكريم الملهم ، الذى ينظر ببصيرة نافذة من وراء الغيب إلى رجاله وتلاميذه ، فيقدرهم حق قدرهم . .

وفى توجيهات الرسول ﷺ نجد شواهد متعددة لذلك ، فنراه يقول :

« إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم »

كما أوصى أن يكون القائد كفئاً محبوباً فقال : « أيما رجل أمَّ قوماً وهم له كارهون لم تجاوز صلاته أذنيه »

وفى حسن طاعة الجنود لأميرهم ضمان لنجاح المهمة التى وكلت إليهم . . . ويتصل بالطاعة التعاون والائتلاف ـ وقد أوصى القرآن بضرورة الائتلاف والتعاون فقال :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢) ﴾ (٨٠)

وحذر من الاختلاف فقال :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) ﴾ (٨١)

وإذا كان التعاون فى السلام ضرورة فهو فى القتال ضرورة أشد قال تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) ﴾ (٨٢)

(٣) التدريب والاستعداد

مما يروى عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه كان يدعو أصحابه إلى

---

(٨٠) المائدة ٢

(٨١) الأنفال ٤٦ (٨٢) الصف ٤

الرياضة لما فيها من حسن إعداد الجسم والنفس للقتال والتنشيط فى الحروب . روى أبو بكر بن عبدالله عن النبى ﷺ قال « علموا أبناءكم السباحة والرماية ، ونعم لهو المرأة المؤمنة فى بيتها المغزل ، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك »[٨٣]

وكان - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى الخشونة وعدم الاستكانة إلى النعمة والترف والراحة والدعة .

كما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : علموا أولادكم السباحة والرماية ومروهم فليثبوا على ظهور الخيل وثباً ، ورووهم ما عذب من الشعر .

وقد مرت بنا الآية الكريمة التى تأمر بإعداد القوة للعدو . .

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ۝٦٠ ﴾[٨٤]

وتنكير كلمة « قوة » لاستيفاء كل وسائل القوة الممكنة مادية كانت أو معنوية ، تقليدية أو متطورة .

والتدريب يقتضى المران المستمر ، وعدم الاهمال فى ممارسة الفنون التى يتعلمها الجندى قال عليه الصلاة والسلام « من تعلم القرآن ونسيه فليس

---

(٨٣) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٤١

(٨٤) الأنفال ٦٠

منا ، ومن تعلم الرمى ونسيه فليس منا »

والتدريب يقتضى اليقظة الكاملة ، وهو يتطور حسب الأزمنة والأمكنة وتطور الأسلحة ، حتى يتمكن الجندى من استيعاب السلاح الذى يتدرب عليه . وحتى يصبح استعماله فى يده تلقائياً ، وهذا لا يتأتى إلا بالإستمرار وعدم التوقف ، وقد أمرنا الله بأخذ الحذر فقال :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ ﴾ (٨٥)

وقد امتدح النبى ﷺ الجندى الصادق المستعد لتلبية النداء فور صدور الأمر إليه فقال : « خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها »

(٤) التضحية والاستبسال وإنكار الذات

ومن المبادىء التى تعتنى بها التربية العسكرية الاسلامية ـ إنكار الذات والتضحية ، وقد ظهر ذلك واضحاً فى جميع معارك الإسلام ، وكان النبى ﷺ يحض أصحابه على التضحية والشهادة ، وقد خاضوا معاركهم على ذلك ، ففى غزوة بدر الكبرى ، وقف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحرض أصحابه على القتال قائلاً : « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم ـ أى الكفار ـ اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

---

(٨٥) النساء ٧١

فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة ـ وفى يده تمرات يأكلهن : بخ بخ ، أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل ، وكان ينشد :

ركضـاً إلى الله بغير ذاد إلا التقى وعمل المعـاد
والصبر فى الله على الجهاد إن التقى من أعظم السداد

.. وعن شداد بن الهاد أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبى ﷺ فآمن به واتبعه ، ثم قال : أجاهد معك . فأوصى به النبى ﷺ بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة غنم فيها النبى ﷺ فقسم وقسم له ـ ثم أعطى ما قسمه له لأصحابه ـ لأن الرجل كان يرعى ظهرهم ـ فلما رفع أصحابه إليه نصيبه قال : ماهذا ؟

قالوا : قسم قسمه لك النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فأخذه وجاء به إلى النبى ﷺ فقال : ما هذا يارسول الله ؟

قال : قسم قسمته لك .

قال الرجل : ماعلى هذا اتبعتك يارسول الله ، ولكن اتبعتك على أن أقاتل فأرمى هاهنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم فأموت فأدخل الجنة .

فقال النبى ﷺ إن تصدق الله يصدقك .

فلبثوا قليلاً ، ثم نهضوا فى قتال العدو ، فلم يمض وقت إلا وجىء بالرجل إلى النبى ﷺ محمولاً وقد أصابه سهم حيث أشار ..

فقال النبى ﷺ أهو هو؟

قالوا : نعم ..

قال : صدق الله فصدقه .

ثم كفنه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى جبة له ، ثم قدمه فصلى عليه ، فكان مما قال فى صلاته : اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً فى سبيلك فقُتل شهيدا ، وأنا شهيد على ذلك (٨٦)

وأما إنكار الذات فقد ظهر واضحاً بين قوم عرفوا بالإيثار والتضحية والفرار من الشهرة والصيت . . ففى إحدى الغزوات دعا القائد الإسلامى عمرو بن العاص جنوده إلى عملية فدائية يقوم من يتطوعون لها بنقب أحد حصون العدو الذى استعصى فتحه ، ويصبح عمرو بن العاص فإذا نقب الحصن قد تم دون أن يدرى من قام بهذا العمل .

فأمر منادياً ينادى بين الجنود : من أحدث النقب فليجب الأمير . ولم يتقدم أحد ، ولما ألح عمرو فى النداء . جاءه رجل فى خفاءٍ يقول له : إن صاحب النقب يشترط عليكم ألا تسودوا اسمه فى صحيفة ، وألا تكتبوا عنه للخليفة ، أو تشهروه بين الناس ، أو تكافئوه على عمل ، فإن قبلتم ذلك أخبرتكم به .

فقال القائد : قبلنا الشرط .

فقال الرجل : أنا صاحب النقب ، ومضى دون أن يخبره باسمه .

(٥) المحافظة على الأسرار

وأوصى الإسلام أبناءه عامة بالمحافظة على الأسرار فى كل المواطن وذلك فى الحروب ألزم وأكد . وهناك علاقة وطيدة بين المحافظة على الأسرار

---

(٨٦) أسد الغابة جـ ٦ ص ٤٢٣ ـ النسائى باب الجنائز ٤/ ٦٠

والأمانة التى هى من أهم الأخلاق الإسلامية .

ويتعلق بحفظ السر الكتمان - قال النبى ﷺ : استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان .

ومن أقوال الإمام على : « ليس كل مايعرف يقال ولا كل مايقال حضر أهله ولا كل ما حضر أهله حان وقته » . . وقوله أيضاً : « سرك أسيرك فإن تكلمت به فأنت أسيره »

ويتعلق بذلك أيضاً التحكم فى الانفعالات وضبط النفس ، والقدرة على التحكم فيها . . . وهذا من أهم الصفات لجنود الإسلام الذين لا تخرجهم نشوة الانتصار عن طبيعتهم فيصيبهم الغرور فيغفلوا عن الخطر المحدق بهم ، كما أن الهزيمة لا تصيبهم باليأس فتضعف قواهم . وقد وصف حسان بن ثابت جنود الرسول ﷺ بقوله :

قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا

لا يفرحون إذا نالوا عدوهم ... وإن أصيبوا فلا خور ولا جزع

سجية تلك فيهم غير محدثة ... إن الخلائق فاعلم شرها البدع

هذه بعض الأسس التى قامت عليها التربية العسكرية فى الإسلام والتى بمقتضاها خاض المسلمون حروبهم فى أيام الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبعده فى ظل الخلافة الرشيدة والقيادة الحكيمة . . وبها نجحوا فى تحقيق انتصاراتهم التى أذهلت العالم ، وأظهرت الشخصية الإسلامية السليمة البريئة من التسلط والغرور ، البعيدة عن الرغبة فى السيطرة وبسط النفوذ . .

لقد كانت حروباً أغلبها دفاعى وجميعها يحقق الأهداف المثلى ويرسى دعائم القيم الإنسانية والأخلاق الفاضلة ..

وسنبدأ الآن فى الحديث عن حروب المسلمين والمعارك التى خاضوها دفاعاً عن دينهم وإرساء لقيم الإسلام المثلى ..

ونبدأ ذلك بالحديث عن غزوة بدر التى قال الله تعالى فيها :

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (٨٧)



(٨٧) آل عمران ١٥٣

غزوة بدر الكبرى

- السرايا التي سبقت غزوة بدر .
- سرية حمزة - رضي الله عنه .
- غزوة العشيرة .
- غزوة بدر الأولى .
- رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب .
- قريش تستعد للحرب .
- أبو جهل ينزعم جبهة الدعوة للحرب .
- خروج النبي إلى بدر .
- عدة المسلمين وعددهم .
- النبي يستشير أصحابه .
- موقف تاريخي للمقداد بن الأسود .
- مشورة الحباب بن المنذر .

غزوة بدر الكبرى

لم تكن غزوة بدر الكبرى أولى الغزوات الإسلامية ، ولكن سبقها بعض الغزوات كانت أشبه بالطلائع التي تكتشف الأحوال ، وتختبر ردود الأفعال . . وهذا أمر يدل على حنكة سياسية وقدرة حربية وأسبقية قيادية . .

ذكر أن غزوة ودّان هي أول غزوة غزاها النبي ﷺ وكانت هذه الغزوة تسمى أيضاً غزوة « الأبواء » . .

« وودّان » هذه - بفتح الواو ، وتشديد الدال - قرية بين مكة والمدينة ، قريبة من الجحفة ، وكان يقيم بها قوم من ضمرة ، وغفار وكنانة ، وفي ودّان هذه جاء قول الشاعر نصيب يمدح سليمان بن عبدالملك :

أقول لركب قافلين عشيةً قفا ذات أوشال ومولاك قاربُ
قفوا خبروني عن سليمان إنني لمعروفه من آل ودّان راغبُ
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

أما الأبواء فهي قرية من أعمال « الفرع » - منطقة تابعة للمدينة - بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً - وقيل : الأبواء جبل على يمين الطريق للصاعد إلى مكة من المدينة ، قيل : هو جبل شامخ مرتفع ليس عليه شيء من النبات غير الخزامى ، وهذا الجبل لخزاعة وضمرة .

وقد ذكر أن الأبواء هذه بها قبر آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ فقد ماتت بها ودفنت في أثناء عودتها من المدينة ، وكان النبي ﷺ طفلاً في ذلك الوقت . وعادت به حاضنته أم أيمن فأسلمته إلى جده عبدالمطلب . .

سار النبى صلى الله عليه وسلم - إلى هذا المكان فى عدة نفر للاستطلاع والإكتشاف . فوادعته بنو ضمرة ، فعاد - صلى الله عليه وسلم - ولم يحدث قتال . .

كان ذلك فى صفر من العام الثانى للهجرة - أى بعد حوالى أحد عشر شهراً من هجرته المباركة . .

وقد تحقق هدف الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الرغم من عدم القتال . . . فالقتال - كما علمنا - ليس هدفاً فى الإسلام فى حد ذاته .

لقد أثبت النبى - صلى الله عليه وسلم - قدرة أصحابه على الحركة وسرعة الاستجابة ، وبين للعدو المتربص ، أن المسلمين أصبحوا بدار عز يمكنهم الخروج منها إلى أى مكان يشاءون . .

وكانت موادعة بنى ضمرة كسباً ضمن من ورائه النبى - صلى الله عليه وسلم - ألا يُطعن المسلمون من طريق هؤلاء ، وألا يتخذ مكانهم الذى يقيمون فيه مرصداً للعدو أو معسكراً يُوتى المسلمون من قبله . . فهى خطة تأمين ناجحة للمدينة من غير شك .

وعاد النبى ﷺ إلى المدينة ، وأخذ يبث سراياه بعد ذلك . .

أول سـرية

عقد النبى - صلى الله عليه وسلم - لواءً لعبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف فى ستين أو ثمانين رجلًا من المهاجرين فقط . .

وسار عبيدة بكتيبته الصغيرة العدد ، القوية الإيمان ، حتى بلغ ماء بأسفل « ثنيَّة المَرَة » فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش يقودهم عكرمة بن أبى

جهل ، وقيل : يقودهم مكرز بن حفص بن الأخيف من بنى عامر بن لؤى .

وكأن قريشاً قد وقع فى روعها أن تستطلع تحركات المسلمين ، وتعرف ما عزموا عليه ، فوجدوا الاستعداد الكامل لديهم بدليل وجود هذا العدد الغفير منهم فى هذا المكان .

وعلى الرغم من استعداد الفريقين فإنه لم يحدث قتال أيضاً ، إلا أن سعد بن أبى وقاص رمى بسهم قبل المشركين ، فكان أول سهم رمى فى الإسلام .

وعاد المشركون من حيث أتوا وقد علموا أن هناك ليوثاً تحرس الطريق إلى المدينة ، وتتحفز لردع من يقترب من عرينها .

وحدث كسب معنوى للمسلمين فى هذه السرية ـ أيضاً ـ ذلك أن بعضاً ممن كانوا فى صفوف المشركين فروا من بين الصفوف إلى المسلمين .

فقد خرج المقداد بن عمرو البهرانى خليف بنى زهرة ، وعتبة ابن غزوان بن جابر حليف بنى نوفل بن عبدمناف من بين المشركين ، وانحازا إلى المسلمين .

لقد كان هذان الرجلان مسلمين يلتمسان الفرصة إلى الهجرة . . وكان انضمامهما إلى المسلمين كسباً كبيراً لهم . .

من المقــداد ؟

هو المقداد بن عمرو ، وشهرته : المقداد بن الأسود ـ رضى الله عنه ـ وجاءت هذه الشهرة من أن الأسود بن عبد يغوث الزهرى الذى حالفه المقداد قد تبناه فنسب إليه ، ويقال له أيضاً : المقداد الكندى ، وسبب ذلك أنه أصاب دماً فى بهراء فهرب إلى كندة ، فحالفهم وأقام فيهم زمناً فنسب إليهم . . قبل أن يجىء إلى مكة ليحالف الأسود الزهرى الذى نسبه إليه . .

أسلم المقداد قديماً ، وهاجر إلى الحبشة ، ثم عاد إلى مكة فلم يقدر على الهجرة إلى المدينة حين هاجر النبى ﷺ إليها ، فبقى بمكة حتى خرج فى رجال قريش تحت قيادة عكرمة بن أبى جهل . ففر منهم وانضم إلى المسلمين . . وأبلى المقداد بن الأسود فى الإسلام بلاء حسناً ، وشهد بدراً وله فيها موقف مشهود ـ سنعرفه إن شاء الله . .

ويعد من أوائل من أظهروا الاسلام بمكة قال ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ : أول من أظهر الاسلام بمكة سبعة منهم المقداد .

وروى ابن بُريدة عن أبيه أن النبى ﷺ قال : « إن الله أمرنى بحب أربعة ، وأخبرنى أنه يحبهم ، قيل : يارسول الله ، سمهم لنا ، قال : هم . على وأبو ذر والمقداد وسلمان » (٨٨)

---

(٨٨) أسد الغابة فى معرفة الصحابة ٢٥٣/٥ ، وتحفة الأحوذى ـ أبواب المناقب الحديث رقم ٣٨٠٢

وروى علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ : « لم يكن نبي الا أعطى سبعة نجباء وزراء ورفقاء ، وإني أعطيت أربعة عشر : حمزة ، وجعفر ، وأبو بكر ، وعمر ، وعلي ، والحسن ، والحسين ، وابن مسعود ، وسلمان ، وعمار ، وحذيفة ، وأبو ذر ، والمقداد ، وبلال »[89]

وقد شهد المقداد فتح مصر ، وتوفى بالمدينة في خلافة عثمان ـ رضي الله عنه ـ مات بأرض له بالجرف ، وحمل إلى المدينة ، وكان في السبعين من عمره . . .

كان المقداد بن الأسود من رجالات المسلمين المعدودين . . قال عنه أبو نعيم في الحلية : السابق إلى الاسلام ، والفارس يوم الحرب والإقدام ، ظهرت له الدلائل والأعلام ، أعرض عن العمالات ، وآثر الجهاد والعبادات ، معتصماً بالله تعالى من الفتن والبليات . .

وكلمة أبي نعيم هذه لها شاهد يرويه في حليته قال :

روى المقداد عن نفسه قال : جئت أنا وصاحبان لي قد كادت تذهب أسماعنا وأبصارنا من الجهد . . فانطلق بنا رسول الله ﷺ إلى رَحْلِه ، وكانت عندهم ثلاث أعنز يحتلبونها ، فكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوزع اللبن بيننا ، وكنا نرفع لرسول الله ﷺ نصيبه ، فيجيء يسلم تسليما يسمع اليقظان ولا يوقظ النائم ثم يأخذ نصيبه .

---

(٨٩) أسد الغابة ٢٥٣/٥ ، والترمذي ـ كتاب المناقب الحديث رقم ٣٨٧٧

فقال لى الشيطان يوماً موسوساً : لو شربت هذه الجرعة فإن النبى ﷺ يأتى الأنصار فيعطونه ، فمازال بى الشيطان حتى شربتها .

فلما شربتها ندَّمنى ـ أى الشيطان ـ وقال : ما صنعت ؟ يجىء النبى ﷺ فلا يجد شرابه ، فيدعو عليك فتهلك .

وأما صاحباى فشربا شرابهما وناما ، وأما أنا فلم يأخذنى النوم ، وكانت علىَّ شملة إذا وضعتها على رأسى بدت منها قدماى ، وإذا وضعتها على قدمى بدا رأسى . .

وجاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كان يجىء ، فصلى ماشاء الله له أن يصلى ، ثم نظر إلى شرابه فلم ير شيئاً . فرفع يده ، فقلت : يدعو علىَّ الآن فأهلك ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « اللهم أطعم من أطعمنى واسق من سقانى »

فأخذت الشفرة ، وأخذت الشملة ، وانطلقت إلى الأعنز أنظر إليهن أيتهن أسمن كى أذبحها لرسول الله ﷺ فإذا حُفَّل كلهن ، فأخذت إناء للنبى ﷺ فحلبت فيه حتى امتلأ وعلته الرغوة . .

ثم أتيت رسول الله ﷺ فشرب ، ثم ناولنى فشربت ، ثم ناولته فشرب . ثم ناولنى فشربت . ثم ضحكت كثيراً . .

فقال لى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما يضحكك يامقداد ؟ فأنشأت أحدثه بما صنعت . .

فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ماكانت إلا رحمة من الله ـ عز وجل ـ لو كنت أيقظت صاحبيك فأصابا منها .

فقلت : والذى بعثك بالحق ، ماأبالى إذا أصبتها أنت وأصبت فضلتك من أخطأت من الناس . .

لقد ولاه النبى ﷺ مرة . . ثم قال له : كيف وجدت الإمارة ياأبا معبد ؟
قال : كنت أحمل فيها وأوضع حتى رأيت بأن لى على القوم فضلاً .
قال : « هو ذاك فخذ أو دع »
قال : والذى بعثك بالحق لا أتأمر على اثنين أبداً (٩٠)

ظل المقداد يجاهد فى سبيل الله حتى وافاه الأجل . . قال أبو راشد الحبرانى : وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالساً على تابوت من تابوت الصيارفة بحمص ، وقد ضعف ورق جسمه من الكبر ولم يبق منه إلا عظام قد وهنت ، ومع ذلك فهو يريد أن يغزو فى سبيل الله .

فقلت له : قد رفع الله عنك ذلك . .
فقال : كيف وقد قال عز وجل :

﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ

---

(٩٠) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ١ ص ١٧٤

فلم يقبل .. رضى الله عنه ـ أن يترك الجهاد على الرغم من حالة الضعف التى وصل إليها ..

فانظر إلى الكسب الذى كسبه الإسلام بالمقداد وأمثاله .

وإلى الكسب الذى كسبه المسلمون من هؤلاء الأبطال العظام .

ومن عتبة بن غزوان ؟

وأما الرجل الآخر الذى أفلت من قبضة المشركين وانضم إلى المسلمين مع المقداد .

فهو عُتبة بن غزوان بن جابر بن وهيب ـ ينتمى إلى قبيلة مازن . ويكنى أبا عبدالله ـ وقيل : أبو غزوان ..

كان من السابقين إلى الإسلام ، وقد ناله بسبب إسلامه أذى شديد ..

قال فى إحدى خطبه بالبصرة بعد أن فتح الله على المسلمين وأورثهم مشارق الأرض ومغاربها ، لقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ مالنا طعام إلا ورق الشجر حتى قرحت أشداقنا ..

وهاجر إلى الحبشة ـ وهو ابن أربعين سنة ـ ثم عاد إلى مكة ، فأقام بها حتى أفلت منهم مع المقداد بن الأسود .

---

(٩١) التوبة ٤١

شهد عتبة بدراً والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وسيره عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ إلى أرض البصرة ليقاتل بالأُبُلَّة ـ بلدة على شاطىء دجلة ـ كان الفرس يسيطرون عليها . .

فسار وافتتح الأبلة ، واختط البصرة ، وهو أول من مَصَّرها وعمرها وبنى فيها مسجدها الأعظم .

ثم خرج حاجاً ، وخلف على الجند مجاشع بن مسعود وأمره أن يسير الى الفرات ـ وأمر المغيرة بن شعبة أن يصلى بالناس . .

ولما وصل إلى عمر طلب إعفاءه من الولاية فأبى عمر أن يعفيه فقال : اللهم لا تردنى إليها . .

واستجاب الله دعوته فسقط عن راحلته وهو فى طريقه إليها ، فمات سنة سبع عشرة . .

لقد كان عتبة ـ رضى الله عنه ـ مجاهداً ذا بلاء حسن فى الاسلام ، وكان مع ذلك زاهداً ورعاً يُحذِّر أصحابه من فتنة الدنيا . . قال فى إحدى خطبه فى البصرة أيام أن كان أميراً عليها : « ألا إن الدنيا قد ولت سريعة خفيفة ـ ولم يبق منها إلا صُبابة ـ بقية قليلة ـ كصبابة الإناء يتصابها أحدكم ، وإنكم ستنتقلون منها لا محالة ، فانتقلوا منها بخير ما عندكم إلى دار لا زوال لها ، فوالله لقد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفا جهنم فيهوى فيها سبعين خريفاً لا يبلغ قعرها ، وأيم الله لتَملأن ـ أى جهنم ـ ولقد ذكر لى أن ما بين

المصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً ، وأيم الله ليأتين عليه يوم وهو كظيظ بالزحام ، وأعوذ بالله أن أكون عظيماً فى نفسى ، صغيراً فى أعين الناس ، وستجربون الأمراء بعدى (٩٢)

وقد ذكره أبو نعيم فى حليته فأثنى عليه .. بما هو أهله وذكر خطبته المشهورة التى يذكر فيها بالله ، ويحذر فيها من فتنة الدنيا ، ويتحدث عن سيرة رسول الله ﷺ فى حياته ، وكيف كان سيد الزاهدين والصابرين والمتواضعين (٩٣)

لقد كسب المسلمون ـ إذن ـ فى هذه السرِيّة كسباً عظيماً ، وردا إلى الإسلام مهاجرين عظيمين كان لهما أعظم الأثر فى نصر الاسلام وإعزازه . .

وقد أثارت هذه السرية بلابل الشعراء فأنشدوا فيها شعراً يشيد بالنبى ﷺ وينعى على قريش جهلهم وضلالهم . ومن ذلك ما رواه ابن هشام فى سيرته ، وعزاه بعضهم إلى أبى بكر ، وان كان المحققون يقولون : إن أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ لم يؤثر عنه أنه قال شعراً :

تحدى من لؤى فرقة لايصدها عن الكفر تذكير ولا بعث باعث
رسول أتاهم صادق فتكذبوا عليه وقالوا : لست فينا بماكث
إذا مادعوناهم إلى الحق أدبروا وهرّوا هرير المحجرات اللواهث(٩٤)

---

(٩٢) أخرجه مسلم عن شيبان بن فروخ عن سليمان بن المغيرة ، كتاب الزهد ٨/٢١٥ وأخرجه أحمد فى مسنده ٤ / ١٧٤ والخبر فى أسد الغابة ٣ / ٥٦٥

(٩٣) حلية الأولياء جـ١ ص ١٧١

(٩٤) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٢٤ والمحجرات : الكلاب التى تلهث

وكانت سرية عبيدة بن الحارث هذه فى شهر ربيع الأول بعد رجوع النبى ﷺ من غزوة الأبواء بشهر .

سرية حمزة إلى ساحل البحر

ويعث النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك سرية إلى ساحل البحر من ناحية « العيص » عقد اللواء فيها لحمزة بن عبدالمطلب ـ رضى الله عنه ـ وهو طريق كانت تسلكه قريش بقوافلها الى الشام .

وكان عدد المصاحبين لحمزة ثلاثين مهاجراً ، ليس معهم من الأنصار أحد . .

ولقى حمزة فى وجهته هذه أبا جهل بن هشام فى ثلثمائة راكب من أهل مكة . . ضعف عدد المسلمين عشر مرات . .

وفى ذلك قال حمزة ـ رضى الله عنه ـ :

فما برحوا حتى ابتدرت لغارة ... لهم حيث حلُّوا ابتغى راحة الفضل
بأمر رسول الله أول خافق ... عليه لواء لم يكن لاح من قبلى
لواء لديه النصر من ذى كرامة ... إله عزيز فعله أفضل الفعل
عشية ساروا حاشدين وكلنا ... مراجله من غيظ أصحابه تغلى
فلما تراءينا أناخوا فعقلوا ... مطايا وعقلنا مدى عرض النَّبْل
فقلنا لهم حبل الإله نصيرنا ... وما لكم إلا الضلالة من حبل
فثار أبو جهل هنالك باغياً ... فخاب ورد الله كيد أبى جهل
وما نحن إلا فى ثلاثين راكباً ... وهم مائتان بعد واحدة فضلِ
فيا للؤى لا تطيعوا غواتكم ... وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهل[95]

---

(٩٥) سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٣٠

لقد سجلت هذه الأبيات ـ ماحدث فى هذه السرية
ثلاثمائة وأمامهم ثلاثون ..

ولو أن العبرة بالعدد لأكل الثلاثمائة الثلاثين أكلاً .. لم يبقوا منهم لحماً ولاعظماً .. ولكن الله ألقى الهيبة فى قلوب المشركين .. فنكصوا عن القتال ، وجاء رجل من جهينة كان موادعاً للفريقين فحجز بين المسلمين والمشركين . فلم يحدث قتال ..

كانت سرية عبيدة وسرية حمزة فى وقت واحد ، وأوقعت كلتاهما الرعب فى قلوب المشركين . . . فقد عرفوا أن المسلمين على أهبة واستعداد ، وأنهم أصبحوا بعد هجرتهم فى منعة وقوة ..

غزوة بُوَاط

وفى الشهر نفسه خرج النبى ﷺ بنفسه على رأس جماعة من المسلمين ، فتوجه إلى بواط بعد أن استخلف على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون ..

وبواط هذه ـ بضم الباء وفتح الواو مخففة ـ اسم جبل من جبال جهينة ـ يقرب من ينبع ، على بعد أربعة وعشرين ميلاً تقريباً من المدينة ـ وقال السهيلى : هما جبلان لهما أصل واحد ، وقال السهيلى أيضاً : إن الذى استخلفه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المدينة : هو السائب بن مظعون أخو عثمان بن مظعون لا ابنه .

كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد بخروجه هذا الاستطلاع واكتشاف الطرق والمواقع ـ وسار حتى بلغ ذلك المكان ، ولكنه لم يلق أحداً فعاد ، ولم يحدث قتال . .

غـزوة العشـيرة

وقيل فيها غزوة العُسَيرة والعُسَيْرا .

والعُشيْرة فى بطن ينبع ـ وقد سلك النبى ﷺ طريقه إليها ماراً على « فيفاء الخَبَار » والخبار بزنة سحاب ـ موضع فى نواحى العقيق بالمدينة ، ونزل النبى ﷺ فى هذا المكان تحت شجرة يقال لها : ذات الساق ، فصلى عندها . وأقيم مسجد فى هذا المكان . .

وماتزال هذه الأماكن معلومة لأنها من آثار النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم انطلق فى طريقه حتى وصل إلى العشيرة وأقام بها أياماً ـ وقيل : أقام بها شهراً ـ ووادع النبى ﷺ فيها بنى مدلج وحلفاءهم من بنى ضمرة

وقد سبق أن وادع النبى بنى ضمرة ، وكانت هذه الموادعة توكيداً للأولى ، وكتب كتاباً لبنى ضمرة هذا نصه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم ، وأن لهم النصر على من رامهم وأن النبى ﷺ إذا دعاهم لنصر أجابوه ، عليهم بذلك عهد الله وعهد رسوله . .

وبذلك يكون النبى ﷺ قد كسب فى هذه الغزوة تأكيد الموادعة الأولى لبنى ضمرة ، وأمان حلفائهم من بنى مدلج . .

وفى الوقت نفسه ازداد موقف المسلمين قوة وتأثيراً وهيبة فى نفوس الأعداء . لقد علم الناس أن النبى ﷺ قد أصبح طالباً بعد أن كان مطلوباً ـ وقوياً بعد أن كان ضعيفاً . . .

بدر الأولى

وقد سبقت غزوة بدر الكبرى غزوة اسمها غزوة « بدر الأولى » وقصتها كما ذكرها القسطلانى فى المواهب اللدنية أن كرز بن جابر الفهرى أغار على سرح المدينة ، فخرج النبى ﷺ فى أثره حتى بلغ سفوان ـ موضع بناحية بدر . ولكن كرزاً أمعن فى الهرب فلم يدركه النبى ﷺ

ولو أدرك المسلمون كرزاً لقتلوه ، ولكن الله أراد غير ذلك ، لأن كرزاً هذا أسلم فيما بعد ، وحسن إسلامه ، واستشهد يوم فتح مكة . . . ذلك أنه كان تحت راية خالد بن الوليد ، ولم يقاتل فى فتح مكة إلا الفرقة التى كان خالد يقودها .

فكان كرز بن جابر وحبيش بن خالد فى خيل خالد بن الوليد ، فابتعدا وسلكا طريقا غير طريقه فقتلا[96]

---

(٩٦) أسد الغابة جـ ٤ ص ٤٦٨

غزوة بدر الكبرى

سمع النبى ﷺ أن أبا سفيان بن حرب قد حان وقت رجوعه من الشام بالعير التى تحمل أموال قريش ، وكان المهاجرون الذين هاجروا من مكة قد تركوا أموالهم وبيوتهم فاستولى عليها المشركون ، وكانوا يودون لو أتيحت الفرصة لاسترداد هذه الأموال ممن أخذوها ، فوجدوا فى عير قريش مع أبى سفيان تلك الفرصة ،

فندب النبى ﷺ من أصحابه من يرصدها وهى راجعة من الشام . لقد كانت قافلة تجارية كبيرة فيها كثير من رجال قريش المرموقين منهم مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف ، وعمرو بن العاص ، وزعيمهم أبو سفيان

وقال النبى ﷺ لأصحابه : « هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا لعل الله يعوضكم بها عن أموالكم التى أخذوها ، فاستجاب الناس ولكن البعض ظن أن النبى - صلى الله عليه وسلم - لايريد الحرب فتثاقل عن الخروج . .

لقد كان الهدف من خرج من المسلمين غنيمة هذه التجارة لتكون عوضاً عن أموالهم وديارهم التى استولت عليها قريش بعد هجرتهم ، فالاستيلاء على هذه العير إنما هو جزء مما للمسلمين فى مكة . .

لقد كان كفار قريش فى غاية الظلم حين استولوا على ممتلكات المهاجرين فى مكة وبسطوا أيديهم عليها ، فهم الذين بدءوا العدوان ، والرد على

العدوان بمثله أمر طبيعى .

ولعل هذا الخبر الذى يذكره ابن هشام فى سيرته يفضح نوايا قريش وتصرفاتهم وكيف استباحوا لأنفسهم أموال المهاجرين .

قال : لما خرج بنو جحش بن رئاب من دارهم عدا عليها أبو سفيان بن حرب فباعها إلى عمرو بن علقمة أخى بنى عامر بن لؤى ، فلما بلغ بنى جحش ما صنع أبو سفيان بدارهم ، ذكر ذلك عبدالله بن جحش لرسول الله ﷺ فقال له : « ألا ترضى ياعبد اله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها فى الجنة »؟

قال : بلى يارسول الله

قال : رسول الله ﷺ فذلك لك

وقال أحد الشعراء فى ذلك :

أبلغ أبا سفيان عن ... أمر عواقبه ندامة
دار ابن عمك بعتها ... تقضى بها عنك الغرامة
وحليفكم بالله رب النا ... س مجتهد القسامة
اذهب بها اذهب بها ... طوقتها طوق الحمامة (97)

وحين فتحت مكة أراد بعض بنى جحش الرجوع إلى دارهم فكلموا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأبطأ عنهم فى الرد . فقال لهم الناس : ان

---

(97) سيرة ابن هشام جـ٢ ص١١٧

رسول الله ﷺ يكره أن ترجعوا فى شيء من أموالكم أصيب منكم فى الله ـ عز وجل ـ فسكتوا . .

أجل ، لقد باعوا الدار لله ، واحتسبوها عنده فكيف يرجعون فى بيعهم ؟ فهذا الشاهد يذكرنا أن قريشاً أخذت أموال المهاجرين وديارهم ، واعتبرتها غنيمة سائغة . . فلماذا لايرد المسلمون بالمثل ؟

إن الرد على المعتدى واسترداد الأموال من الغاصب أمر تقره الشرائع ، ويقره العقل فلم يكن المسلمون إذن معتدين أو طالبين ماليس لهم . . ماكان المسلمون ليقطعوا الطريق على قافلة ، ولكنهم أرادوا أن يقطعوا الطريق على الكفر المستشرى ، والشرك المتفشى ، وأرادوا بخروجهم هذا أن يقطعوا دابر هذا الكفر وأن ينالوا بعض مأخذ منهم من مال .

أبو سفيان يتحسس الأخبار

ولم يكن أبو سفيان فى غفلة من أمره ، ولكنه كان سياسياً فطناً ، وكان يدرك أن المسلمين لن يتركوه يفلت من بين أيديهم لو ظفروا به ، فأخذ يتحسس الأخبار ويسأل من يلقى من الركبان عن محمد وأصحابه ، فسمع من بعضهم أن النبى ﷺ قد استنفر الناس .

فاستأجر أبو سفيان ضمضم بن عمرو الغفارى على أن يأتى قريشاً بمكة فيخبرهم بما قد يحدث ليستعدوا لاستنقاذ قافلتهم ، وأعطاه فى نظير ذلك

عشرين مثقالا ، وأمره أن يجدع أنف بعيره ، ويحول رحله ، ويشق قميصه إذا دخل مكة ، وهدفه من ذلك إثارة قريش ضد النبى ﷺ

رؤيا عاتكة عمة النبى

وكانت عاتكة عمة النبي ﷺ قد رأت قبل قدوم ضمضم بن عمرو بثلاثة أيام رؤيا أفزعتها .

فأرسلت إلى أخيها العباس بن عبدالمطلب فقالت له : يأأخى ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى وأخافتنى ، وخشيت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فاكتم عنى ما أحدثك به . .

قال لها : وماذا رأيت ؟

قالت : رأيت راكباً قد أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا ياقوم لمصارعكم فى ثلاث ، فأرى الناس اجتمعوا له ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مَثُل به بعيره على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها ، ألا انفروا ياقوم لمصارعكم فى ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها ، ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى ، حتى إذا كانت بأسفل الجبل تفتتت ـ فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فِلقة ـ قطعة ـ

قال العباس : والله إن هذه لرؤيا وعليك أن تكتميها ولا تذكريها لأحد .

ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقاً فذكرها له واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ، ففشا الحديث عنها وذاع أمرها .

وهكذا شأن السر يفشوا إذا ما تجاوز الاثنين . فما يزال هذا يقص الخبر ويستكتمه صاحبه ، وهذا يفعل مثله حتى يصبح على كل لسان فى وقت قصير .

وأصبحت رؤيا عاتكة حديث كل رجل وامرأة فى مكة .

وفوجىء العباس يوماً وهو يطوف بالكعبة بأبى جهل بن هشام ، فى رهط من قريش يتحدثون فى أمر الرؤيا ، وأبو جهل يناديه : ياأبا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا .

فلما فرغ العباس من طوافه أقبل عليهم وجلس إليهم .

فقال أبو جهل : يابنى عبدالمطلب .. متى حدثت فيكم هذه النبية ؟

قال العباس : وماذاك ؟

قال : تلك الرؤيا التى رأت عاتكة .. قال العباس ومارأت ؟

قال أبو جهل : يابنى عبدالمطلب ، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟ لقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث ، وسوف ننتظر هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ماتقول فقد صدقت ، وإن تمض الثلاث

ولم يكن من ذلك شيء ، نكتب عليكم كتاباً أنكم أكذب أهل بيت فى العرب . .

قال العباس : فوالله ماكان منى إليه من قول إلا أنى جحدت ذلك - وأنكرت أن تكون عاتكة قد رأت شيئاً .

قال : ثم تفرقنا ، فلما أمسيت لم تبق امرأة من بنى عبدالمطلب إلا أتتنى فقالت : أأقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يستهزىء برجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن لك غيرة لشيء مما سمعت ؟

قلت : قد والله فعلت . . ماكان منى إليه من رد - لكن وأيم الله لأتعرضنَّ له إن عاد ، ولأردن عليه رداً شديداً يليق بأمثاله . .

قال العباس : فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة ، وأنا شديد الغضب أرى أنى قد فاتنى منه أمر أحِبُّ أن أدركه منه .

فدخلت المسجد ، فرأيته ، فوالله إنى لأمشى نحوه أتعرضه ليعود لبعض ماقال فأقع به - وكان رجلاً حديد الوجه ، حديد اللسان ، حديد النظر - فرأيته قد خرج نحو باب المسجد يشتد . .

قال العباس : فقلت فى نفسى : ماله - لعنه الله -؟ أكل هذا فَرَقٌ منى أن أشاتمه ؟

ولكن سرعان ماتبين العباس أن جَرْىَ أبي جهل كان لغير ما ظنه . .
لقد سمع مالم يسمعه العباس .

سمع ضَمْضَم الغفاريُّ الذى أرسله أبو سفيان يصرخ ببطن الوادى ، وهو واقف على بعير قد جدع ـ قطع ـ أنفه ، وحوَّل رحله ، وشق قميصه ، وهو يقول : يامعشر قريش ، اللطيمة اللطيمة [98] . أموالكم مع أبي سفيان ، قد عرض لها محمد وأصحابه ، فعليكم أن تدركوها . . . . الغوث الغوث .

لقد كانت قافلة عريضة ، تحمل كثيراً من أموال قريش . . قيل : كان فيها خمسون ألف دينار ، وكان لم يبق قرشى ولا قرشية إلا وله مال فى هذه العير . وكان هذا الأمر هو الذى أفزع قريشاً وأصابها بالخبال .

لئن ضاعت منهم هذه القافلة لقد أفلسوا . .
قال العباس : فشغلنى عن أبي جهل وشغله عنى ما جاء من الأمر . .
وصدقت رؤيا عاتكة ، وأدرك القرشيون أن الأمر جد لاكذب فيه ولا امتراء . .

---

(٩٨) اللطيمة هى الإبل تحمل الطيب

قريش تستعد

وأرغت قريش وأزبدت ، وأصابها الذهول والفزع ، ولكنها استيقظت على دوافع الشر المتأججة فى داخلها . .

كيف يجرؤ على ذلك ؟ أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى ؟

كلا ، واللات والعزى ليعلمن غير ذلك . .

واستعدت قريش عن بكرة أبيها للخروج لاستنقاذ عيرها وتلبية نفيرها .

وتأهب أهل مكة للخروج . . ومن لم يستطع منهم الخروج بعث مكانه غيره . . . ولم يتخلف عن الخروج من كبار القوم غير أبى لهب ، وبعث بدلاً منه العاصى بن هشام بن المغيرة ، كان لأبى لهب دين عليه قيمته أربعة آلاف درهم ، عجز العاصى عن سدادها ، فاستأجره أبو لهب بها على أن يجزىء عنه فى الخروج مع قريش . .

وكان أمية بن خلف قد أجمع على أن يتخلف لكبر سنه وثقله ، فأتاه عقبة ابن أبى معيط ، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى قومه بمجمرة يحملها فيها نار ومجمر ـ نوع من العود يتبخر به ـ حتى وضعها بين يديه ـ وقال له : ياأبا على ، استجمر ، كما تستجمر النساء ،

فقال أمية : قبحك الله وقبح ماجئت به ..

وغير أمية موقفه بعد ذلك فتجهز للخروج مع القوم ..

وكان سبب رغبة أمية فى التخلف أن سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ وكان صديقاً لأمية قد قدم إلى مكة معتمراً ونزل عليه ، لأن أمية كان إذا ذهب إلى المدينة ينزل على سعد ، فقال سعد لأمية : أرقب لى ساعة خلوة لَعلِّ أن أطوف بالبيت ..

فقال أمية : انتظر حتى إذا انتصف النهار وعقل الناس انطلقت فطفت . فخرج به أمية قريباً من نصف النهار ، فبينما سعد يطوف إذ جاء أبو جهل ، فقال : من هذا الذى يطوف ؟

فقال سعد : أنا سعد بن معاذ .

فقال أبو جهل : أتطوف بالبيت آمنا وقد آويتم محمداً وأصحابه ؟ أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً . فتلاحَيا

وقال له سعد : أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعنك ماهو أشد عليك منه .. طريقك إلى المدينة ..

فقال أمية لسعد : لا ترفع صوتك على أبى الحكم ، فإنه سيد أهل الوادى ، وجعل يُسكت سعداً .

فقال سعد لأمية : إليك عنى ، فإنى سمعت محمدا ﷺ يزعم أنه قاتلك ..

قال أمية : إياى ؟

قال سعد : نعم

قال أمية : بمكة أم خارجها ؟

قال سعد : لاأدرى

فارتاع أمية وأصابه الفزع

ورجع إلى امرأته يقول لها فى فزع : أما تعلمين ماقال أخى اليثربى ؟

قالت : وماذاك ؟

قال : يقول إنه سمع محمدا يزعم أنه قاتلى

قالت الزوجة : فوالله مايكذب محمد .. وإنى لخائفة ..

فلما جاء الصريخ يستصرخ أهل مكة على الخروج ، وجعل كل منهم يتسابق على الخروج ويحث غيره عليه ، حتى إن سهيل بن عمرو كان ينادى قائلاً : ياآل غالب ، أتاركون أنتم محمدا والصباة من أهل يثرب يأخذون أموالكم ؟

من أراد مالا فهذا مالى ، ومن أراد قوتاً فهذا قوتى .. وإنى لكفيل بتجهيز كل من يريد الخروج ، وليس عنده ما يتجهز به ..

فلما رأى أمية ذلك تذكر ما قاله له ، ففرق ـ سعد بن معاذ ـ أى خاف ـ حتى إذا جاءه السفيه عقبة بن أبي معيط بالمجمرة ـ أى المبخرة ـ استحيا ، وعزم على الخروج معهم على أن يرجع من الطريق .

أبو جهل يتزعم جبهة الدعوة للخروج

وكان أبو جهل زعيم جبهة المتحمسين للقتال ، فإذا ما رأى تقاعساً من أحد وبخه ، أو وكل به من يوبخه . ويقال : إنه هو الذى أغرى عقبة بن أبي معيط بالذهاب إلى أمية بن خلف بالمجمرة .

وذهب أبو جهل أيضاً إلى عتبة وشيبة ابنى ربيعة حين همّا بالقعود ، بعد أن أخبرهما غلامهما « عداس » النصرانى بأنهما إنما يخرجان إلى مصارعهما ، وكانا يميلان إليه ، ويحسان فى كلامه الصدق .

فمازال بهما أبو جهل حتى خرجا إلى مصارعهما فعلاً . وأعانه على ذلك أيضاً عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث .

قريش تكمل استعدادها

وأتمت قريش استعدادها فى ثلاثة أيام ، واجتمع منهم قرابة ألف . . قيل كانوا خمسين وتسعمائة ، وقيل : كانوا ألفا . فيهم مائة فارس بخيولهم علها مائة درع سوى دروع المشاة ، وخرجوا على الصعب والذلول لشدة

إسراعهم ، واصطحبوا معهم القيان [٩٩] يضربن بالدفوف ويتغنين بهجاء المسلمين .

وكان أبو سفيان قائد العير القادمة من الشام حين بلغه أن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرقبه.قد خالف الطريق ، وأخذ طريق الساحل ، وجدَّ فى السير حتى فات المسلمين ، فلما أمن أرسل إلى قريش يأمرهم بالرجوع ، فامتنع أبو جهل ، وأصر على المضى فى طريقه ليؤدب ـ حسب قوله وزعمه ـ هؤلاء الذين تجرءوا أن يهددوا قوافل قريش . .

كان أبو سفيان بارعاً فى تحسس الأخبار بذكاء ، وكان فى أثناء رجوعه بالعير يسأل من يلقاه عن مكان وجود المسلمين وطريقهم . . وكان النبى ﷺ قد أرسل صاحبين له يستخبران أمر العير ، حتى إذا وصلا إلى بدر نزلا قريباً من الماء عند تل هناك ، ثم توجها إلى الماء ليستقيا ، فلما اقتربا سمعا جاريتين على الماء تتخاصمان وتقول إحداهما للأخرى : إنما تأتى العير غدا أو بعد غد ، فأعمل لهم وأقضيك الذى لك .

فقال الرجل الذى على الماء : صدقت ، وخلص بينهما .

---

(٩٩) القيان : جمع قَيْنَة ، وهى الأمة مطلقا أو هى المغنية ، والمراد هنا المغنية

فلما سمع الصاحبان ذلك ركبا بعيرهما ، ثم انطلقا حتى أتيا النبى ﷺ فأخبراه بما سمعا ورأيا .

ثم إن أبا سفيان لم يلبث أن جاء متقدماً على العير فى حذر ، حتى ورد الماء . فلقى ذلك الرجل الذى فصل بين المرأتين المتخاصمتين ، فقال له : هل أحسست أحداً ؟

فقال الرجل : مارأيت أحداً أنكره ، إلا أنى قد رأيت رجلين قد أناخا بعيرهما إلى هذا التل ، ثم استقيا فى شنٍّ لهما وانطلقا .

فأتى أبو سفيان إلى المكان الذى أناخا فيه البعير فأخذ بعرة من أبعاره ففتتها فإذا فيها النوى .

فقال : هذه علائف يثرب

وأدرك أن هناك عيوناً ترقبه ، ولابد أن يكون لدى هذه العيون خبر بقدومه فرجع بأصحابه سريعاً ، فحول عيره عن الطريق المأهول ، وترك بدراً بيسار وانطلق مسرعاً ، فلما علم أنه قد نجا بعيره أرسل إلى قريش يطمئنها ـ كما سبق أن قلنا ـ

قال لهم رسول أبى سفيان : إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجت ونجا الرجال فارجعوا . .

ولكن أبا جهل الذى أعمى الله بصيرته قال : والله لا نرجع حتى نحضر بدراً فنقيم عليه ثلاثة أيام ، ننحر فيها الجزر ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا بعدها .

وحين عاد رسول أبى سفيان إليه يخبره بما قاله أبو جهل .. قال أبو سفيان : هذا بغى ، والبغى منقصة وشؤم ..

وعاد بعض من كان قد تجمع مع القوم ، عاد بنو زهرة حين علموا بنجاة العير ، وكانوا نحو المائة ، وكان قائدهم الأخنس بن شريق ، فلم يقتل من بنى زهرة أحد فى بدر ، وكذلك لم يخرج أحد من بنى عدى .

وتوجه المشركون بَقَضِّهم وقضيضهم صَوْبَ بدر ، فقد أخذتهم العزة بالإثم ، ونفخ الشيطان فى نفوسهم فملأها بالعجب والخيلاء .

وسار أشرافهم أمامهم يثيرون فيهم الحماس ، ويمنونهم بالظفر المرتقب ، لقد كان فرسان قريش يظنون أنها ليست معركة بالمعنى المعروف لتلك الكلمة بل هى نزهة يتفرجون فيها على قوم لا يحسنون الكر ولا الفر ، وسرعان مايُعْمِلون فيهم سيوفهم ويقتلونهم فتجرى دماؤهم . أو يسوقونهم أمامهم أسارى مكبلين بالأغلال .

كان فى مقدمة المشركين رؤساء الكفر والضلال : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبوالبخترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو العامرى ، وغيرهم . .

ومع هؤلاء حضرت النساء بالدفوف يغنين وينشدن أناشيد الفخر والهجاء ـ الفخر بأمجاد قريش والهجاء للمسلمين ويثرن حماس المقاتلين .

قريش تتذكر ثأراً عليها فتهم بالرجوع

وقبل أن تمعن قريش فى المسير صوب ميدان المعركة تذكروا ثأراً عليهم لبنى كنانة . . فهموا بالرجوع . . وقد تحدث عن ذلك ابن هشام فى سيرته قال : لما فرغ القوم من جهازهم وأجمعوا على المسير ، ذكروا ماكان بينهم وبين بنى بكربن عبد مناة بن كنانة من الحرب . . . وسبب هذه الحرب كما ذكر ابن هشام أن بنى بكر بن كنانة قتلوا ابنا لحفص بن الأخيف القرشى ـ لدم كان لهم فى قريش فتكلمت قريش فى ذلك ، فقال عامر بن يزيد الكنانى : يامعشر قريش ، قد كانت لنا فيكم دماء ، فما شئتم . . . إن شئتم فأدوا علينا مالنا قبلكم ونؤدى مالكم قبلنا ، وإن شئتم فإنما هى الدماء رجل برجل ، فتنازلوا عما لكم قبلنا ونتنازل عما لنا قبلكم .

فقالت قريش : صدق رجل برجل . فلم يطالبوا بدم ابن الأخيف .

فبينما أخو هذا القتيل مكرز بن حفص بن الأخيف القرشي يمر بمر الظهران إذ نظر إلى عامر بن يزيد الكنانى ـ على جمل له ، فلما رآه أقبل إليه حتى أناخ بعيره وعامر متوشح بسيفه .

فعلاه مكرز بسيفه حتى قتله ، ثم أخذ سيفه فبقر به بطنه ، ثم حمل سيف عامر وجاء به إلى مكة فعلقه من الليل بأستار الكعبة . .

فلما أصبحت قريش رأوا سيف عامر بن يزيد معلقاً بأستار الكعبة فعرفوه فقالوا : إن هذا لسيف عامر بن يزيد عدا عليه مكرز بن حفص فقتله ، فكان قتل عامر بن يزيد الكنانى ـ نقضاً للاتفاق الذى كان بين قريش وكنانة . .

فبينما هم فى ذلك الأمر من حربهم ظهر الاسلام فتشاغلوا به حتى أجمعت قريش على المسير إلى بدر ، فذكروا الذى بينهم وبين بنى بكر بن كنانة فخافوهم . وكاد ذلك يثنيهم عن عزمهم .

ولكن رجلاً من أشراف بنى كنانة من شياطين الإنس ، قال لهم : أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه ، فخرجوا سراعاً . . وزين لهم الشيطان أن بنى كنانة سيكونون وراءهم لنصرهم . .

وهذا هو الذى أشار إليه قوله ـ تعالى ـ :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ (١٠٠)

خروج النبى إلى بدر

وبدر قرية مشهورة بين مكة والمدينة على نحو أربع مراحل من المدينة ، وقيل على ثمانية وعشرين فرسخاً من المدينة .

وسميت بذلك نسبة إلى بدر بن يخلد بن النضر بن كنانة ، لأنه نزل بها ..

وقيل : بل هى منسوبة إلى بدر بن الحارث الذى حفر بئرها ..

وقيل : بل سميت باسم البئر ، وكانوا قد سموا بئرها بدراً لاستدارتها وصفائها ورؤية البدر فيها ..

---

(١٠٠) الأنفال ٤٨

وقيل : غير ذلك . .

وقد ذكر الله بدراً فى القرآن مرة واحدة فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿١٢٣﴾ (١٠١)

ولكنه أشار إليها وتحدث عن معركتها فى مواضع متعددة ستأتى بعد . .

كان خروج النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم السبت ـ وقيل : يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من رمضان ، على رأس تسعة عشر شهراً من هجرته وخرج معه المهاجرون والأنصار . .

واستخلف النبى ﷺ على المدينة أبا لبابة بشير ـ وقيل : رفاعة بن عبدالمنذر الأنصارى .

وقد كان أحد النقباء فى العقبة .

وذكر بعض الرواة أن أبا لبابة قد سار مع النبى ﷺ إلى بدر ، ولكن النبى ﷺ رده إلى المدينة واستخلفه عليها ، كما استخلف عبدالله بن أم مكتوم على الصلاة .

(١٠١) آل عمران ١٢٣

وحين فصل النبى ﷺ من المدينة أمر بإحصاء عدد المسلمين ..

فوقف بهم عند بئر أبى عتبة ، وهى على ميل من المدينة وأحصى عددهم وتفقد الرسول أصحابه ، فرد من استصغره منهم ، وكان ممن ردهم أسامة ابن زيد ،ورافع بن خديج ، والبراء بن عازب ، وأسيد بن ظهير ، وزيد ابن أرقم ، وزيد بن ثابت ـ رضى الله عنهم ـ

ورد عمير بن أبى وقاص فبكى فأجازه .. وكان عدد المسلمين خمسة وثلثمائة رجل فى بعض الروايات ـ من المهاجرين أربعة وستون والباقون من الأنصار .. وفى رواية أخرى أنهم كانوا أربعة عشر وثلاثمائة ..

كان ذلك الخروج كما هو معروف لطلب العير ، ولم يكن لدى المسلمين علم بنجاتها واقبال قريش بخيلهم وسيوفهم إليهم .

وأرسل النبى ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد يتحسسان خبر العير . وعادا إلى النبى ﷺ بالمدينة فوجداه قد خرج إلى بدر فذهبا إليه ..

دعاء النبى لأصحابه

ولما فصل المسلمون عن حدود المدينة ، دعا النبى ﷺ للمسلمين بالنصر والظفر ، وأن يغنيهم الله من فضله . وقد استجاب الله دعاء نبيه ..

فلما رجع أحد منهم يريد أن يركب إلا وجد ظهراً ، للرجل البعير .. والبعيران ، واكتسى من كان عارياً ، وأصابوا الكثير من الطعام ، وأصابوا فداء الأسرى فاغتنى به كل عائل .

النبي يرد غير المسلم

وكان رجل من الخزرج يقال له حبيب بن يساف ذا بأس ونجدة ، ولم يكن قد أسلم ، ولكنه خرج نجدة لقومه من الخزرج وطلباً للغنيمة ، ففرح المسلمون بخروجه معهم ولكن رسول الله ﷺ رفض ذلك ، وقال : « لايصحبنا إلا من كان على ديننا »

وفى رواية أنه قال له : « ارجع فإنا لا نستعين بغير مسلم

ولكن حبيبا هذا أخذ يلح فى الرجاء ، وعرض نفسه مرتين أو ثلاثا . .

وأخيراً قال له النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : تؤمن بالله ورسوله ؟

قال حبيب : نعم

فأسلم ، واصطحبه النبى ﷺ وقاتل فى المعركة قتالاً شديدا .

وذكره ابن الأثير فى أهل بدر [١٠٢] وترجم له على أن اسمه « خبيب بن

---

(١٠٢) أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ١ ص ٤٥٠ ، جـ ٢ ص ١١٨ ـ باب الحاء / وباب الخاء

إساف » بالخاء وأشار إليه أيضاً فى باب الحاء

وذكر ابن الأثير فى ترجمته لقصته - كما رواها هو بنفسه قال : أتيت رسول الله ﷺ وهو يريد غزواً ، أنا ورجل من قومى ، ولم نسلم بعد ، فقلنا : إنا لنستحى أن يشهد قومنا مشهداً لا نشهده معهم ، فقال رسول الله ﷺ أتسلمان ؟

فقلنا : لا

فقال : إنا لا نستعين بالمشركين على المشركين

قال : فأسلمنا ، وشهدنا مع رسول الله ﷺ فضربنى رجل من المشركين على عاتقى فقتلته ، وشاء القدر أن أتزوج ابنته بعد ذلك ، فكانت تقول : لا عدمت رجلاً وشَّحَك هذا الوشاح - أى ضربك هذه الضربة فى موضع الوشاح »

وأقول : لاعدمت رجلاً عجل أباك إلى النار . .

وكان النبى ﷺ قد خرج من المدينة دون أن يعقد اللواء كما يقول الحلبى فى سيرته . .

ولعل ذلك لظنه أنه لا يلقى حرباً ، ولذلك فقد تخلف من تخلف من أصحابه ، ولكنه عقد ألوية ثلاثة بعد ذلك :

لواء مع مصعب بن عمير ، ولواء على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ والثالث مع رجل مع الأنصار هو سعد بن معاذ أو الحباب بن المنذر . .

استعدادات المسلمين

كان مع المسلمين سبعون بعيراً يتناوبون ركوبها ، وكان النبى ﷺ يفعل مثلهم ، فقد اعتقب هو وعلى بن أبى طالب ومرثد بن أبى مرثد بعيراً واحداً ، ولم يختص ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفسه ببعير .

وكان علىٌ ومرثد يودان أن يركب النبى ﷺ ويمشيان وقد ألحا عليه فى ذلك ولكنه كان يقول لهما : « ما أنتما بأقوى منى على المشى ، وماأنا بأغنى عن الأجر منكما »

لقد كانت حالة المسلمين المادية قاسية ، ولهذا دعا النبى ﷺ لهم بالرزق والنصر . .

وكانت إبلهم التى يتناوبونها ضعيفة حتى إن البعير الذى كان يتناوبه أبو بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف برك فى الطريق من العى والتعب،فمر بهم رسول الله ﷺ فقالوا : يارسول الله برك بعيرنا فدعا النبى ﷺ بماء فتوضأ فى إناء،ثم قال لأحد أصحابه : افتح فم البعير فصب من الإناء فى فيه ، ثم صب باقيه عليه ، فنشط البعير وسار بهم وعادت له قوته . .

وتذكر بعض الروايات أنه لم يكن فى جيش المسلمين سوى خمسة أفراس ، وقيل : ثلاثة . . وقيل فرس واحد هو للمقداد بن الأسود . . . وروى ذلك عن على ـ كرم الله وجهه ـ قال : ماكان فينا يوم بدر فارس غير المقداد . . ولكن روايات أخرى تذكر أنه كان مع المسلمين من الخيول فوق العشرة .

فأين هذه العدة من عدة المشركين التى كان قوامها كما ذكرنا آنفاً سبعمائة بعير ومائة فرس ، وهم ألف رجل . .

ولكن العبرة ليست بالعدة والعدد ، ولكنها بالإيمان واليقين . . . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم . .

النبى يستشير أصحابه

ونزل النبى ﷺ وأصحابه بواد يقال له : ذفران ـ بكسر الفاء ـ وفيها أتاه الخبر بمسير قريش إليه ليمنعوا عيرهم .

فاستشار النبى ﷺ أصحابه وأخبرهم الخبر ، وقال لهم : إن القوم قد خرجوا إليكم من مكة على كل صعب وذلول مسرعين . فما تقولون ؟ العير أحب إليكم من النفير ؟

فقال بعضهم : يارسول الله عليك بالعير ودع العدو . . . . وفى رواية أخرى أنهم قالوا : هلا ذكرت لنا العدو فنتأهب له ؟

وهذا مايشير إليه قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ (١٠٣)

فتغير وجه النبى - صلى الله عليه وسلم -

فلما رأى أبو بكر ذلك قام أبو بكر - رضى الله عنه - فتكلم وأحسن . . ثم قام عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فتكلم وأحسن . قال : يارسول الله إنها قريش وعزها، والله ماذلت منذ عزت ، وسوف يقاتلونك بكل قوة ، فتأهب لذلك أهبته ، وأعد لذلك عدته .

ثم قام المقداد بن الأسود - رضى الله عنه - فقال :

---

(١٠٣) الأنفال ٧

يارسول الله ، امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . . . ولكن نقول : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

وفى رواية : نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك ، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا بَرْكَ الْغِمَاد ـ موضع على خمس ليال من مكة إلى جهة اليمن ـ وقيل : هى أقاصى هجر ـ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ـ

فقال له ﷺ خيراً قلت : ودعا له بخير .

لقد سر النبى ﷺ بمقالة المقداد لأنها فتحت الطريق أمام الناس ليقولوا قولته . ويصولوا صولته . .

وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب من أصحابه ألا ينكصوا عن لقاء عدوهم وقد وعدهم الله النصر ، ووثقوا أنه معهم يؤيدهم ضد عدوهم . . . ذكر ابن أبى حاتم عن أبى أيوب الأنصارى ـ فيما يرويه الزرقانى ، على شرح المواهب اللدنية للقسطلانى قال : قال لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونحن بالمدينة : أنى أخبرت عن عير أبى سفيان فهل لكم أن تخرجوا إليها لعل الله يجعلها غنيمة لكم عوضاً عن أموالكم .

قلنا : نعم . . .فخرجنا ـ فلما سرنا يوماً أو يومين قال : قد عرفوا خبرنا وخرجوا لنا ـ فاستعدوا للقتال .

فقال البعض : لا والله مالنا طاقة بقتال القوم . فأعاد ، فقال المقداد : لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسي . . إلى آخر ماقال . . قال أبو أيوب : فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد . .

قال فنزل قوله تعالى :

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ ﴾ (١٠٤)

ثم قال النبى ﷺ : أيها الناس أشيروا على . .

ولقد سمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أبى بكر ، ومن عمر ، ومن المقداد ، وهؤلاء من المهاجرين وقد عنى بقولته هذه الأنصار . .

وقد أراد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يسمع من الأنصار لأنهم بايعوه فى العقبة على النصر والتأييد . وهذا أوان الامتحان قد حان . .

---

(١٠٤) الأنفال ٥ ، ٦

فقال سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ : ولله لكأنك تريدنا يارسول الله .

قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أجل

قال سعد : والله لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهوداً ومواثيق على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن نلقى عدونا ، إنا لصُبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله أن يريك منا ماتقر به عينك ، فسر على بركة الله ـ تعالى ـ ونحن معك .

فسر رسول الله ﷺ بقول سعد وفرح به ، فأسرع فى طلب العدو .

وقال النبى ﷺ يبشر أصحابه : سيروا على بركة الله ـ تعالى ـ وأبشروا ، فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين العير أو النفير ـ والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ـ أى الذين سيقتلون ببدر ـ

قال ثابت البنانى فيما رواه مسلم عن طريقه عن أنس بن مالك عن عمر قال : ان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليرينا مصارع أهل بدر . . . يقول : هذا مصرع فلان غدا إن شاء الله وهذا مصرع فلان ويضع يده على الأرض ههنا وههنا ، قال فما ماط ـ أى ماتنحى ـ أحدهم عن موضع يده ـ ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فهذه معجزة ظاهرة لاشك فيها (١٠٥)

---

(١٠٥) شرح المواهب اللدنية للقسطلانى جـ ١ ص ٤١٤

المسير إلى المعركة

وسار النبى - صلى الله عليه وسلم - حتى نزل قريباً من بدر ، وكانت قريش قد سبقت ونزلت بالعدوة القصوى من الوادى قريباً من الماء ، ونزل المسلمون على كثيب تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب بعيداً عن الماء . .

وعلى الرغم من صلاحية المكان للمشركين ووفرة الماء لديهم ، وصعوبة المكان على المسلمين وبعد الماء عنهم إلا أن الله ألقى الرعب فى قلوب المشركين والأمن فى قلوب المسلمين . .

لقد أصاب المشركين الفزع حتى أخذوا يضربون وجوه خيولهم إذا صهلت من شدة الخوف ، ونام المسلمون ملء جفونهم ثم أصبح المسلمون وهم فى حاجة إلى الماء للتطهر والشرب ، فنهض المسلمون يطلبون الماء ، ونزل المطر من السماء فكان نجدة لهم ، فقوى الأرض تحت الأقدام ، وطهر الأبدان ، وأذهب رجس الشيطان ، وقال الله فى ذلك

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ (١٠٦)

قال القرطبى - فى تفسير هذه الآية : كان هذا النعاس فى الليلة التى كان القتال من غدها ، فكان النوم عجيباً فى ذلك الوقت الذى هم مقبلون فيه على أهم أمر فى حياتهم ، فقواهم وأذهب الخوف من قلوبهم - عن على

---

(١٠٦) الأنفال ١١

ـ رضى الله عنه ـ قال : ما من رجل منا إلا ونام يوم بدر إلا رسول الله ﷺ فقد رأيته تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح .

قال : وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان :

أحدهما : أنه قواهم بالاستراحة ، فتكون لهم قوة على القتال من الغد .

الثانى : أنه أمنهم بزوال الرعب عن قلوبهم ، كما يقال : الأمن مدعاة النوم والخوف مدعاة السهر . .

وظاهر القول أن النعاس كان قبل المطر ، ولكن ابن أبى نجيح يقول : كان المطر قبل النعاس . .

وحكى الزجاج قال : سبق الكفار المؤمنين يوم بدر إلى ماء بدر ، فنزلوا عليه ، وبقى المؤمنون لاماء لهم ، فوجست نفوسهم وعطشوا وصلوا من أجل ذلك ، وحاول الشيطان أن يتسلل إلى نفوس البعض فقالوا : كيف يشرب المشركون ، ولا نشرب ونحن أولياء الله ، وفينا رسول الله ؟

فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان ، حتى سالت الأودية ، فشربوا وتطهروا وسقوا إبلهم ، وقويت الأرض الرملية التى كانت بينهم وبين المشركين حتى تثبت فيها أقدام المسلمين وقت القتال . . . .

ولكن روايات أخرى تذكر أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد سبق قريشاً إلى ماء بدر وقد أنزل الله على المشركين مطر عظيماً أوقف سرعتهم ومنعهم السبق إلى الماء ، وقد أصاب هذا المطر المسلمين بالقدر الذى ينفع والذى شد من دهس الوادى وأعانهم على السير ـ والدهس هو الرمل اللين الذى تسوخ فيه الأقدام ـ فنزل رسول الله ﷺ على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة .

مشورة الحباب بن المنذر

وقال الحباب بن المنذر للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما رآه نزل على أدنى ماء من بدر إلى المدينة يارسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال الحباب : يارسول الله إن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بنا إلى أدنى ماء من القوم فننزله ونُغَوِّر ما وراءه من القُلُب ـ جمع قليب وهو البئر قبل أن تطوى ـ ثم نبنى عليه حوضاً ، فنشرب ولا يشرب القوم .

فاستحسن رسول الله ﷺ رأيه وفعله [١٠٧]

وفى هذا المنزل وعدة القوم يقول الله ـ تعالى ـ :

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ [١٠٨]

---

(١٠٧) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٢٨١٠ ـ سورة الأنفال ط دار الشعب

(١٠٨) الأنفال ٤٢ : ٤٤

سير المعركة

أشارت الأيات إلى نزول المسلمين بالعدوة الدنيا القريبة من المدينة ، ونزول المشركين بالعدوة القصوى ـ البعيدة ـ التى هى الى ناحية مكة ، أما الركب فهو ركب أبى سفيان وهو العير التى كان المسلمون قد خرجوا لتلقيها ، وحين علم أبو سفيان بأن المسلمين فى انتظارها اتجه الى الساحل حتى نجا بها ـ كما قدمنا ـ

وقبل أن تبدأ المعركة أراد النبى ـ ﷺ ـ أن يعرف قوة عدوه ليأخذ للأمر عدته ، فأرسل على بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ومعهم نفر منْ أصحابه فى مهمة استطلاعية ، يتحسسون الأخبار ، فأصابوا اثنين من سقاة قريش ، فأتوا بهما رسول الله ـ ﷺ ـ فوجدوه يصلى ، فجعل أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يسألونهما : لمن أنتما ؟

فيقولان : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم الماء . فارتاب القوم فى كلامهما ، وظنوا أنهما يكذبان .

وركع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسجد سجدتين ثم سلم . وقال :

صدقا والله انهما لقريش . ثم قال لهما : أخبرانى عن قريش .

قالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : كم القوم ؟

قالا : كثير .

قال : ماعددهم ؟

قالا : لا ندرى .

قال : كم ينحرون كل يوم ؟

قالا : يوما تسعا ، ويوما عشرا .

قال رسول الله ـ ﷺ ـ : القوم بين التسعمائة إلى الألف .

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف القوم ؟

فقالوا : فيهم أبو جهل بن هشام ، وصفوان بن أمية ، وعتبة بن ربيعة ، وسهيل بن عمرو ، وغيرهم من القوم الذين سبق ان ذكرناهم . .

فأقبل رسول الله ـ ﷺ ـ على القوم وقال : هذه مكة قد ألقت اليكم بأفلاذ كبدها .

وصدق رسول الله ـ ﷺ ـ فيما قاله عن عدد القوم ، فهم كانوا كذلك ـ ثلاثة أضعاف المسلمين .

خرجوا معجبين بأنفسهم ، يملؤهم الغرور الكاذب وأخذوا يتنافسون فى الإطعام طلبا للذكر والثناء . فقد نحر أبو جهل حين خرجوا من مكة عشر نياق نحرها بمر الظهران ، ثم نحر لهم صفوان بن أمية تسع نياق بعسفان ، وفى قديد نحر لهم سهيل بن عمرو عشرا ، ومالوا من قديد ناحية البحر فأقاموا يوما فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعا ، ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم عتبة بن ربيعة عشرا .

ثم أصبحوا بالأبواء فنحر مقيس الجمحى تسعا ، ونحر العباس عشرا ونحر الحارث بن عامر بن نوفل تسعا ، ونحر ابو البخترى على ماء بدر

عشرا ، ونحر لهم مقيس أيضا تسعا ثم شغلهم أمر الحرب فأكلوا من أزوادهم[109] . .

بناء العريش

ولما تراءى الناس ببدر قال سعد بن معاذ : يارسول الله ، ألا نبنى لك عريشا[110] - تكون فيه ، وننيخ إلى جواره ركائبك ، ونلقى عدونا ، فإن أظهرنا الله عليهم وأعزنا فذاك مانحب ، وان تكن الأخرى فتجلس على ركائبك وتلحق بمن وراءنا من قومنا ؟ فقد والله تخلف عنك أقوام مانحن بأشد حبا لك منهم ، لو علموا أنك تلقى حربا لما تخلفوا عنك ، وهم يوادونك ويناصرونك .

فأثنى عليه رسول الله - ﷺ - خيرا ودعا له .

فبنى له عريش ، فكان فيه رسول الله - ﷺ - وأبو بكر . . وتقدمت قريش حين أصبحت ، فلما أقبلت ورآها رسول الله - ﷺ - تجيء من مكان عال . من الكثيب . الذى كانوا فيه وتنزل الى الوادى قال : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بفخرها وخيلائها - تحاديك وتكذب رسولك اللهم - أهلكهم - الغداة[111] .

وكان أصحاب رسول الله - ﷺ - قد بنوا حوضا كبيرا ملئوه بالماء وقذفوا فيه الآنية بعد أن غوّروا كل القُلُب التى فى طريق القوم ، فأصبح المسلمون

---

١٠٩ الزرقانى جـ١ ص ٤١٠

١١٠ العريش : الخيمة

١١١ تفسير ابن كثير جـ٤ ص ١٢

ولديهم الماء ، وقريش ليس عندها ماء . .

بدء المناوشات

وجاءت قريش تريد أن تشرب من حوض رسول الله - ﷺ - وأراد المسلمون منعهم . فقال النبى - ﷺ - : دعوهم ، فتركوهم . . . . فما شرب أحد منهم يومئذ الا قتل - الا ماكان من أمر حكيم بن حزام فانه لم يقتل ، وقد أسلم فِيما بعد ، وحسن إسلامه ، فكان إذا اجتهد فى يمين يقول : ألا والذى نجانى يوم بدر . . . ونظر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى عتبة بن ربيعة وهو يركب جملا أحمر ، فقال : إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، إن يطيعوه يرشدوا »

ولكنهم لم يطيعوه .

وذلك ان القرشيين لما اطمأنوا قليلا أرادوا أن يعرفوا عدد المسلمين ، فأرسلوا عمير بن وهب الحجمى ليعرف ذلك ، فجال بفرسه حول معسكر المسلمين ، ثم رجع اليهم يقول :

هم ثلثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظر إذا كان لهم كمين أو مدد . .

فضرب فى الوادى فلم ير شيئا ، فرجع اليهم فقال : ماوجدت شيئا ، ولكنى رأيت - يامعشر قريش - البلايا[١١٢] تحمل المنايا ... نواضح[١١٣] يثرب

---

١١٢ البلايا جمع بلية وهى الناقة تربط على قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت وكان بعض العرب يقر بالبعث فيقول : إن صاحبها يحشر عليها

١١٣ النواضح : الابل يسقى عليها الماء

تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ الا سيوفهم ، والله مأرى ان يُقتَل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم ، فإن أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ففكروا فى أمركم .

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى فى الناس ، فأتى عتبة بن ربيعة .

فقال له : ياأبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك الى يد لاتزال تذكر فيها بخير الى آخر الدهر ؟

قال : وماذاك ياحكيم ؟

قال : ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى ، الذى قتل فى سرية عبد الله بن جحش التى تحدثنا عنها آنفا .

قال : قد فعلت ، أنت علىَّ بذلك ، إنما هو حليفى فعلىَّ ديته ـ وما أصيب من ماله . فأذهب إلى ابن الحنظلية[١١٤] ، فإنى لا أخشى أن يفرق ـ أمر الناس غيره .

وقام عتبة بن ربيعة خطيبا فقال :

يامعشر قريش ، إنكم ماتصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل منكم ، ينظر فى وجه رجل يكره النظر اليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب ، فان أصابوه فذاك الذى أردتم وان كان غير ذلك فلن تخسروا شيئا ، فهو منكم وأنتم قومه . .

١١٤ ابن الحنظلية هو أبوجهل ، وأمه من قبيلة حنظلة ، وهى اسماء بنت مُخَرِّبة من بنى حنظلة

هذا كلام رجل عاقل يقصد به الخير كما قال النبى - ﷺ - ولكن هل يفشل الشيطان فى مهمته ؟

ولماذا أغراهم بالخروج إذن ؟

وهذا الشيطان يتمثل فى أبى جهل - الذى حاول بكل وسيلة أن يقطع خط الرجعة على تفكير قريش فى الرجوع . .

فقد انطلق حكيم بن حزام الى أبى جهل ليقنعه برأى عتبة بن ربيعة ولكن الشيطان كان قد استولى على لبه وتفكيره - فلم يجد حكيم مكانا يدخل منه على عقله وقلبه .

قال حكيم : وجدته قد نثل - أخرج - درعا له من جرابها يتفقدها ويهيؤها للقتال . . فقلت له : ياأبا الحكم ، ان عتبة قد أرسلنى اليك بكذا وكذا .

قال حكيم : فقال لى : لقد خاف والله عتبة حين رأى محمدا وأصحابه . . كلا ، والله لانرجع حتى تحكم الآلهة بيننا وبين محمد ، وما بعتبة ماقال ، ولكنه رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه فتخوفكم عليه(١١٥) . يقصد ابنه أبا حذيفة الذى أسلم قديما . وأفسد أبوجهل بذلك على الناس رأى عتبة .

---

١١٥ سيرة ابن هشام ح ٢ ص ٢٦٣ وابوجهل يقصد ان عتبة لا يعتقد صحة الرأى الذى ارتآه ولكنه خاف ان يقتل ابنه فى المعركة فقال ما قال

ثم بعث أبوجهل الى عامر بن الحضرمى فقال له : هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم فانْشُد ـ اطلب عهدك وذمتك .

فخرج عامر بن الحضرمى يصرخ قائلا : واعمراه ، واعمراه . . فحميت النفوس وتهيأت للقتال ، ولاحت نذر الحرب .

لقد كان أبو جهل شرسا عنيفا لايرعوى عن شر ولا ينتهى عن ضلال ، وكان مولعا باشعال نار الحرب بأى وسيلة .

رؤيا ابن الصلت

كان فى صفوف المشركين رجل منهم من بنى المطلب بن عبد مناف يقال له جهم بن الصلت ـ وكان قد وضع رأسه فأغفى ريثما ينتهى الناس إلى رأى ، فانتبه فزعا فقال لأصحابه ومن حوله : هل رأيتم الفارس الذى وقف علىَّ ؟

فقالوا : لا

قال : قد وقف علىَّ فارس فقال : قتل أبو جهل ، وعتبة ، وشيبة ، وزمعة ، وأبو البخترى ، وأمية بن خلف ، وفلان وفلان ، وعد رجالا من أشراف قريش ممن قتلوا يوم بدر .

ثم قال : أسر سهيل بن عمرو وفلان وفلان وعد رجالا من قريش ممن أسروا . .

قال : ثم رأيت ذلك الفارس ضرب فى لبَّة بعيره ، ثم أرسله فى

العسكر ، فما من خباء من أخبية العسكر الا أصابه من دمه .

فقال له أصحابه : لقد لعب بك الشيطان . .

ولما شاعت هذه الرؤيا فى العسكر ، وبلغت أبا جهل قال : قد جئتم بكذب بنى المطلب مع كذب بنى هاشم . . . سيرون غدا من يُقتل : وقال : أهذا نبى آخر من بنى المطلب ؟ . . . سيعلم غدا من المقتول ، نحن أو محمد وأصحابه . .

لقد سعَّر ابو جهل الحرب ، وكان فى الامكان ألاتتم ، ولكن الله بالغ أمره ، ومصدق وعده ، وكان أمر الله مفعولا .

ولكى يتم ذلك النصر لابد أن تتهيأ أسبابه ، ومن أسبابه ان يكون فى صفوف المشركين من يهيجهم ليلقوا حتفهم ، وكان هذا المهيج أبا جهل بن هشام الذى جعله الله مغلاقا للخير مفتاحا للشر . . لقد غضب منه عتبة بن ربيعة حين سد فى وجهه طريق السلام والموادعة ، وقال له على ملأ من قومه : قبحك الله ، ستعلم أينا أفسد لقومه . . . وقد جعل الله المسلمين فى أعين المشركين قليلا استدراجا لهم ليقدموا ، ولما التحم القتال جعلهم الله فى أعين المشركين كثيرا ليحصل لهم الرعب والوهن .

كما جعل الله المشركين فى أعين المسلمين قليلا ليقوى جأشهم على مقاتلتهم . جاء عن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ انه قال : لقد قلوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل : أتراهم سبعين ؟

قال : أراهم مائة . وأنزل الله تعالى قوله

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) ﴾

وقال تعالى :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣) ﴾ (١١٧)

وفوجىء عبد الله بن مسعود حين علم أن الكفار لم يكونوا سبعين أو مائة بل كانوا ألفا ..

وقد أفسد أبو جهل محاولة أخرى للسلام قام بها حكيم بن حزام .. وذلك ان النبي - ﷺ - أرسل عمر بن الخطاب إلى قريش يقول لهم :

ارجعوا فإنه إن يل هذا الأمر منى غيركم أحب إلىّ من أن تلوه منى » ..

والمعنى - إن يقم غيركم بقتالى أحب إلىّ من أن تقاتلون أنتم على أمرى هذا .

---

١١٦ الأنفال ٤٤

١١٧ آل عمران ١٣

قال حكيم بن حزام لقومه حينئذ : قد عرض محمد عليكم نصفاً فاقبلوه فوالله لاتنصرون عليه بعد ماعرض من النَّصَف .

فقال أبو جهل : والله لانرجع بعد أن مكننا الله منهم . .

لقد حاول هذان الرجلان عتبة وحكيم الاصلاح وتفادى الحرب ولكنهما لم ينجحا ، وأبت العصبية الجاهلية إلا أن تغمسهما فيها غمسا ، فأما عتبة فقتل ، وأما حكيم فنجا . .

ثم أسلم .

الدعوة للمبارزة

التمس عتبة بن ربيعة بيضة - خوذة - يضع فيها رأسه فلم يجد خوذة تسع رأسه ، فقد كان رأسه ضخما . فاعتجر على رأسه ببُرْدٍ له وخرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى فصل من الصف ، ودعا للمبارزة .

فخرج اليهم فتية من الأنصار ، ثلاثة أشقاء : معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء .

فقالوا : من أنتم ؟

قالوا : رهط من الأنصار .

قالوا : مالنا بكم حاجة ، إنما نريد قومنا ، يامحمد ، أخرج لنا أكفاءنا من قومنا .

فقال النبى - ﷺ - : « قم ياعبيدة بن الحارث ، وقم ياحمزة ، وقم ياعلى » .

وفى رواية : « قوموا يابنى هاشم فقاتلوا بحقكم الذى بُعث به نبيكم إذ جاء هؤلاء بباطلهم ليطفئوا نور الله »

وتقدم حمزة نحو شيبة ، وتقدم على نحو الوليد ، وتقدم عبيدة نحو عتبة .

وأردى كل من حمزة وعلىّ خصمه . أما عبيدة فقد اختلفت بينه وبين خصمه عتبة ضربتين ، كل منهما أصاب صاحبه ، فكر حمزة وعلى على عتبة فأجهزا عليه ، وحملا صاحبهما الى حيث يقف الرسول - ﷺ - فافرشه الرسول - ﷺ - قدمه الشريفة ، فوضع عبيدة خده عليها .

وقال : يارسول الله ، ألست شهيدا ؟

فقال له النبى - ﷺ : أشهد أنك شهيد .

وتوفى بالصفراء ، ودفن بها عند رجوع النبى - ﷺ - والمسلمين الى المدينة .

ذكر الحلبى فى سيرته قال : جاء فى الصحيحين عن أبى ذر . . أنه كان يقسم أن قوله - تعالى :

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤) ﴾ [١١٨]

نزلت فى حمزة وعلى وعبيدة ، وعتبة وشيبة والوليد - يوم بدر . . .

وذكر ذلك القرطبى فى تفسيره ، وأورد حديث أبى ذر . كما ذكر قول ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : نزلت هذه الآيات على النبى - ﷺ - بالمدينة فى ثلاثة نفر من المؤمنين وثلاثة نفر من الكافرين وسماهم : حمزة وعلى وعبيدة بن الحارث - رضى الله عنهم - وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة[١١٩] .

النبى يحرض المؤمنين

وأقبل النبى - ﷺ - على أصحابه يحرضهم على القتال استجابة لأمر الله تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) ﴾ [١٢٠]

---

١١٨ الحج ١٩ : ٢٤

١١٩ تفسير القرطبى - سورة الحج - ص ٤٤١٧ ط دار الشعب

١٢٠ الأنفال ٦٥

فأخذ النبى - ﷺ - يقول : « والذى نفس محمد بيده لايقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

فقال عمير بن الحمام أخو بنى سلمة - وفى يده تمرات يأكلهن : بخٍ بخٍ - أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء ؟ ثم قذف التمرات من يده ، وأخذ سيفه ، فقاتل القوم حتى قتل - رحمه الله تعالى[١٢٠] . . وحدث ابن اسحاق قال : قال عوف بن الحارث - يارسول الله ، ما الذى يفرح الرب من عبده ؟

قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : قتال أعداء الله .

فنزع درعاً كانت عليه فقذفها ، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل - رحمه الله -[١٢١] .

النبى ينصح أصحابه

بعد أن عدَّل النبى - ﷺ - الصفوف وسواها توجه الى أصحابه قائلا : إن دنا القوم منكم فادفعوهم - عنكم بالنبل ، واستبقوا نبلكم - أى لاترموهم على بعد فان الرمى مع البعد غالبا مايخطىء ، فيضيع النبل بلا فائدة - ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم .

وكان مما قال لهم : « ان الصبر فى مواطن البأس مما يفرج الله - عز وجل - به الهم وينجى به من الغم . .

ولما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قال أبو جهل بن هشام : اللهم

---

١٢١ سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٦٨

أقطعنا للرحم وآتانا بما لانعرف فأحِنه ـ أهلكه ـ الغداة .

فكان هو المستفتح ، أى الذى حكم على نفسه بهذا الدعاء . . فلم يقطع الرحم الا هو ، وما عليه هو ومن خرج معه من الكفر والضلال شيء لم ينزل به كتاب ، ولم يجيء به رسول ، ولا دعا به ذو منطق سليم أو رأى قويم .

وأخذ النبى ـ ﷺ ـ بكفه حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا ورماهم بها وقال : شاهت الوجوه . .

ووجه ـ ﷺ ـ كلامه الى أصحابه وقال لهم : شدوا . فشدوا . .

ورجع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى العريش فدخله ، ومعه أبو بكر وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشحا سيفه مع نفر من الأنصار .

واصطف الناس للقتال ، فرمى قطبة بن عامر حجرا بين الصفين وقال : لا أفر إلا أن يفر هذا الحجر .

وكان أول من خرج من المسلمين مهْجَع مولى عمر بن الخطاب ، فأتاه سهم غَرْب ـ لايدرى من راميه ـ وقيل : رماه عامر بن الحضرمى ـ وهو بين الصفين فقتل . وهو من أهل اليمن . وفى مهْجع هذا وأصحابه نزل قول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (١٢٢)

---

١٢٢ الأنعام ٥٢

وأصحابه هم بلال ، وصهيب ، وعمار ، وخباب ، وعتبة بن غزوان ، وعامر بن فهيرة ، وغيرهم من الموالى والمستضعفين[١٢٣] قيل : انه أول من يدعى من شهداء هذه الأمة ، وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه يومئذ : مهجع سيد الشهداء »[١٢٣] .

النبي يناشد ربه

وأقبل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ربه يناشده النصر ، روى البخارى ومسلم عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ وهو فى قبة بدر ـ أى العريش ـ دعا ربه فقال : اللهم أنشدك عهدك ، اللهم ان تهلك هذه العصابة اليوم فلا تعبد فى الأرض » .

وفى رواية : « اللهم لاتدعنى ولا تخذلنى ، أنشدك ماوعدتنى » ومازال يدعو ربه مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبه ، فأخذ أبو بكر رداءه وألقاه على منكبه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال : يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ماوعدك .

---

١٢٣ أسد الغابة جـ ٥ ص ٢٨٠
١٢٤ السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٤٠٣

◉ الملائكة تشارك في القتال

- الملائكة مدد الله للمؤمنين .
- الشياطين في جند المشركين .
- النبي يبشر أصحابه بالنصر .
- مقتل أئمة الكفر .
- بلال يقتل أمية بن خلف .
- مصرع أبي جهل .
- بطولات نادرة قام بها بعض المسلمين .
- قتلى المشركين في القليب .
- أثر هذا النصر على المنافقين .
- تقسيم الغنائم .
- الخلاف في شأن الأسرى .
- حديث القرآن عن غزوة بدر .
- العبر المستخلصة من تلك الغزوة .
- قريش تبكي قتلاها .

الملائكة مدد الله

وأنزل الله ملائكته تقاتل فى صفوف المؤمنين ، وتشد من أزرهم وقد ذكر الله ذلك فى كتابه الكريم فى موضعين . . الأول فى سورة آل عمران . . حيث قال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ (١٢٤) بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) ﴾ (١٢٥)

والثانى فى سورة الأنفال حيث قال :

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ

---

١٢٥ آل عمران ١٢٣ : ١٢٥

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ (١٢٦)

ذكر ابن كثير فى تفسيره لهذه الآيات الأخيرة عن على ـ رضى الله عنه ـ قال :

نزل جبريل فى ألف من الملائكة عن ميمنة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفيها أبوبكر ، ونزل ميكائيل فى الف من الملائكة عن ميسرة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنا فى المسيرة .

وقد شاهد بعض المسلمين الملائكة أو أحس بقتالهم ، فقد حدث ابن عباس قال : بينما رجل من المسلمين يشتد فى اثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه ، ثم سمع صوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ـ حيزوم اسم فرس المَلَك ـ ثم نظر الى المشرك أمامه ، فرآه قد خر مستلقيا ، قد خُطِم أنفه وشُق وجهه كضربة السوط .

فجاء الانصارى فحدث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : صدقت ذلك من مدد السماء .

وكما عُدَّ الذين شهدوا بدرًا من الناس مفخرة المسلمين ، عد الذين شهدوا بدرا من الملائكة مفخرة الملائكة أيضا ، فقد روى معاذ بن رفاعة بن رافع الزُّرَقى عن أبيه ـ وهو من أهل بدر قال : جاء جبريل الى النبى ـ صلى

---

١٢٦ الأنفال ٩ : ١٢

الله عليه وسلم ـ فقال : ماتعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : من أفضل المسلمين ـ أو كلمة نحوها . .

قال جبريل : وكذلك من شهد بدرا من الملائكة[١٢٧] .

وذكر ابن اسحاق عن ابن عباس فيما يرويه ابن هشام ـ قال : حدثنى رجل من بنى غفار قال : أقبلت أنا وابن عم لى ، حتى أصعدنا فى جبل يشرف بنا على بدر ، ونحن مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدَّبْرَة ـ أى الدائرة فننتهب مع من ينتهب .

قال : فبينا نحن فى الجبل ، إذ دنت منا سحابة ، فسمعنا فيها حمحمة الخيل فسمعت قائلا يقول : أقدم حيزوم .

فأما ابن عمى فارتاع قلبه فمات مكانه .

وأما أنا فكدت أهلك ، ثم تماسكت .

وذكر قول أبى أسيد مالك بن ربيعة ـ وقد شهد بدرا ـ ثم ذهب بصره بعد ذلك : لو كنت اليوم ببدر ومعى بصرى لأريتكم الشِّعْب الذى خَرَجَت منه الملائكة ، لاأشك فيه ولا أتمارى .

وروى قول أبى داود المازنى ـ وهو ممن شهدوا بدرا ـ قال : إنى لأتبع رجلا من المشركين يوم بدر لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل اليه سيفى ، فعرفت أنه قتله غيرى .

---

١٢٧ البخارى كتاب المغازى ١٢٣/٥ ـ تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٥٦٠ سورة الانفال

كانت سيماء الملائكة يوم بدر فيما يرويه الرواة عمائم بيضا قد أرخوها على ظهورهم ، الا جبريل فقد كانت عمامته صفراء[١٢٨] .

الشياطين فى جند المشركين

وكما أيد الله المؤمنين بالملائكة ، جاء إبليس أيضا لحزبه يقويهم ويشد من أزرهم . ولكن كيف يصمد حزب الشيطان أمام حزب الرحمن ؟

قال العلماء : جاء إبليس فى صورة سراقة بن مالك فى جند من الشياطين فى صور رجال من بنى مدلج ، وقال للمشركين : « لا غالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم » .

قالوا : وأقبل جبريل ـ عليه السلام ـ إلى إبليس ، فلما رآه وكانت يده فى يد رجل من المشركين ، هو الحارث بن هشام ، أخو أبى جهل بن هشام . انتزع يده مسرعا ونكص على عقبه ومعه جنده .

فناداه الرجل قائلا : ياسراقة ـ وهو يحسبه سراقة فعلا ـ أتزعم أنك لنا جار ؟

فقال الشيطان كما حكى لنا القرآن الكريم . .

﴿ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [١٢٩]

---

١٢٨ سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٧٣
١٢٩ الأنفال ٤٨

وكان قتل عتبة وشيبة والوليد قد أفزع القوم من قريش وأخافهم .

فقال أبو جهل : يامعشر قريش لايهمنكم خذلان سراقة وقتل عتبة وشيبة والوليد ، فإنهم قد عجلوا ، واللات والعزى لانرجع حتى نقرن محمدا وأصحابه بالحبال . .

وأخذ يردد قائلا : لا تقتلوهم ، خذوهم باليد(١٣٠) .

وروى السهلى قال : ان من بقى من قريش وهرب الى مكة وجد سراقة بمكة فقالوا له : ياسراقة خرقت الصف ، وأوقعت فينا الهزيمة . فقال سراقة : والله ماعلمت بشىء من أمركم وماشهدت وما علمت ، فما صدقوه حتى أسلموا ، وسمعوا ماأنزل الله فعلموا أنه إبليس اللعين .

النبى يبشر أصحابه بالنصر

وأخذت النبى - ﷺ - سنة من النعاس حتى مالت رأسه . ثم انتبه مسرورا ، فقال : أبشر ياأبا بكر أتاك نصر الله ، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده وهو يقول : أتاك نصر الله إذ دعوته .

وخرج النبى - صلى الله عليه وسلم - من العريش ، يرقب المعركة ويحرض أصحابه وهم مقبلون على جهاد العدو فى صبر واحتساب ، وإقبال ليس فيه إدبار . . وان أحدهم ليرتجز قائلا :

ركضا الى الله بغير زاد   الا التقى وعمل المعاد

والصبر فى الله على الجهاد   وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد . . .

---

١٣٠ السيرة الحلبية جـ٢ ص٤٠٧

وأخذ القتل يستمر فى المشركين ـ فنادى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ناهيا عن قتل بعض ناس منهم . .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأصحابه » « إنى قد عرفت رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ـ وسباهم ـ ثم قال : فمن لقى منكم أحدا من هؤلاء فلا يقتله ، ومن لقى أبا البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلا يقتله ، فإنما أخرج مستكرها » .

فقال أبو حذيفة ـ وهو ابن عتبة بن ربيعة الذى قتل مبارزا قبل ذلك بقليل :

أنقتل آباءنا وأبناءنا واخواننا وعشيرتنا ونترك العباس ؟ والله لئن لقيته لألحِمَنّه السيف ـ أو لألجمنه السيف ـ

وسمع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الكلمة من أبى حذيفة فنظر الى عمر بن الخطاب ، وقال له : ياأبا حفص ـ وهى أول مرة يكنيه فيها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك ـ « أيُضرب وجهُ عم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالسيف وقد خرج مع القوم وهو لذلك كاره » .

فقال عمر : يارسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا الرجل بالسيف ، فو الله لقد نافق .

- يقصد بذلك أبا حذيفة .

ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - التمس لأبي حذيفة عذرا ، وصفح عنه . .

فكان أبو حذيفة يقول : ماأنا بآمِنٍ من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا إلا أن تكفرها عنى الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا .

من أبو حذيفة هذا ؟

وأبو حذيفة هو هاشم ابن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى ، وأمه فاطمة بنت صفوان بن أمية .

كان من السابقين الى الاسلام رغما عن أبيه وعمه وجده وأخيه ، أسلم قبل دخول النبى - صلى الله عليه وسلم - دار الأرقم بن أبى الأرقم ، ثم هاجر الى الحبشة هو وزوجته سهلة بنت سهيل بن عمرو .

وعاد من الحبشة الى مكة ، فأقام مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى هاجر الى المدينة ، وآخى النبى بينه وبين عباد بن بشر الأنصارى ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان طويلا حسن الوجه ، وكان أول من لبّى المبارزين فى الدعوة الى المبارزة يوم بدر ، ولكن النبى - صلى الله عليه وسلم - منعه . وكان الذين طلبوا المبارزة من الكفار أباه وأخاه وعمه . كما قدمنا .

وفى ذلك قالت أخته هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان :

فما شكرت أبا رباك من صغر حتى شببت شبابا غير مجحون
الأحول الأثعل المشئوم طائره أبو حذيفة شر الناس فى الدين

لقد هجته بذلك الشعر ، وكذبت فى هجائها فقد كان خير الناس فى الدين - رضى الله عنه -

وحينما ألقى كفار قريش الذين قتلوا فى بدر فى القليب ، وأخذ رسول الله - ﷺ - يناديهم قائلا : ياعتبة ، وياشيبة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أباجهل يعدد من فى القليب : هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا فقد وجدت ماوعدنى ربى حقا ؟

ونظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى وجه أبى حذيفة فرآه كئيبا قد تغير .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء ؟

قال : لا والله ماشككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأيا وحلما وفضلا ، فكنت أرجو أن يقربه ذلك من الإسلام ، فلما رأيت ماأصابه ، وذكرت مامات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجوه له حزنت لذلك . فدعا رسول الله - ﷺ - له بخير[١٣١] .

مقتل أئمة الكفر

وعلى الرغم من تحذير النبى - صلى الله عليه وسلم - من قتل أبى

---

١٣١ أسد الغابة جـ ٦ ص ٧١

البخترى فقد قتل . وقد حذر النبى - ﷺ - من قتله لأنه كان قد أكفَّ القوم عن رسول الله - ﷺ - وهو بمكة ، وكان لايؤذيه ولا يبلغه عنه شيء يكرهه ، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة التى كتبتها قريش على بنى هاشم وبنى المطلب : والنبى - صلى الله عليه وسلم - خير من يحفظ الجميل لمن قام به حتى لو كان على غير دينه ، وربما طمع النبى - ﷺ - فى إسلامه فينجيه الإسلام ويزيده خيرا . ولكن الله إذا أراد شيئا كان . . وكان أمر الله قدرا مقدورا .

فقد لقى المجذر بن ذياد حليفُ الأنصار - أبا البخترى فقال له : ياأبا البخترى ، لقد نهانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن قتلك .

وكان مع أبى البخترى زميل خرج معه من مكة اسمه جنادة بن مليحة - فقال أبوالبخترى : وزميلى ؟

فقال المجذر : لا والله مانحن بتاركى زميلك - ماأمرنا رسول الله - ﷺ -- إلا بك وحدك .

فقال أبو البخترى : لا والله ، إذن لأموتن أنا وهو جميعا ، لايتحدث عنى الناس أنى تركت زميلى حرصا على الحياة .

فقال أبو البخترى حين نازله المجذر :

كل أكيل مانع أكيله حتى يموت أو يرى سبيله

فاقتتلا ، فقتله المجذر ، ثم أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم فقال :

والذى بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فآتيك به ، فأبى الا القتال فقتلته[١٣٢] .

بلال يقتل أمية بن خلف

وكان أمية بن خلف من رؤساء الكفر والضلال ، وكم قاسى بلال ـ رضى الله عنه ـ على يديه العذاب فى مكة ، كان يطرحه على ظهره فى الرمال الملتهبة ويضع على صدره الصخرة الضخمة ، ويضرب به بالسياط ، ويقول له : لا أكف عنك حتى تكفر بمحمد ورب محمد . فكان بلال لايزيد على قوله : أحد أحد . فيزيده أمية على ذلك عذابا .

وظل على ذلك حتى اشتراه أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ وأعتقه .

فلما رأى بلال أمية فى بدر صرخ قائلا : هذا عدو الله ، لانجوت إن نجا . .

وحاول عبد الرحمن بن عوف ان يمنع عنه القتل ويأسره ، ولكن سيوف الأنصار وحربة بلال كانت أسرع اليه فقتلوه هو وابنه .

ويقال ان ابا بكر ـ رضى الله عنه قال لبلال حين قتل أمية بن خلف :

هنيئا زادك الرحمن خيرا ... لقد أدركت ثأرك يابلال[١٣٣]

مصرع أبى جهل

وأقبل أبوجهل يرتجز وهو يقول :

---

١٣٢ أسد الغابة جـ ٤ ص ٦٤

١٣٣ الزرقانى جـ ١ ص ٤٢٨

ماتنقم الحرب العوان منى لمثل هذا ولدتنى أمى

فأذاقه الله الهوان على يد شابين صغيرين من الأنصار .

قال عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه : انى لفى الصف يوم بدر ، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن ، اذ قال لى أحدهما سرا من صاحبه :

ياعم ، أرنى أبا جهل .

فقلت : يابن أخى وما تصنع به ؟

قال : عاهدت الله ، إن رأيته قتلته أو أموت دونه .

وقال لى الآخر سرا مثل صاحبه فأشرت لهما اليه . فشدا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه . . وهذان الشبان هما ابنا عفراء معاذ ومعوذ .

ولما انتهت المعركة ، سأل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن أبى جهل . .

قال : من ينظر مافعل أبو جهل ؟

فانطلق عبد الله بن مسعود ، فوجده قد ضربه ابنا عفراء ، وهو بآخر رمق .

قال ابن مسعود ، فوضعت رجلى على عنقه وقلت : أخزاك الله ياعدو الله .

فقال أبوجهل : ولم أخزانى ، أخبرنى لمن الدبرة اليوم ؟

قلت : لله ورسوله . . وأجهز عليه ابن مسعود واجتز رأسه وحملها الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « الحمد لله الذى أعز الاسلام وأهله - ثلاث مرات - إن لكل أمة فرعونا وان فرعون هذه الأمة أبو جهل ، قتله الله شر قتلة ، قتله ابنا عفراء ، وقتلته الملائكة ، وأجهز عليه ابن مسعود . .

وقد وضع ابن مسعود رجله على عنق أبى جهل تصديقا لرؤيا كان قد رآها . . . . ذلك ان أباجهل كان قد قال لابن مسعود يوما : لأقتلنك .

فقال بن مسعود :

والله لقد رأيت فى النوم أنى أخذت حدجة[١٣٤] حنظل فوضعتها بين كتفى أبى جهل ، ورأيتنى أضرب كتفيه ، ولئن صدقت رؤياى لأطأن على رقبته ولأذبحنه ذبح الشاة[١٣٥] . .

رواية أخرى فى مقتل أبى جهل

وذكر ابن هشام رواية أخرى فى مقتل أبى جهل قال على لسان معاذ بن عمرو بن الجموح : سمعت القوم - وأبوجهل فى مثل الحرجة[١٣٦] - يقولون : أبو الحكم لايُخْلَصُ إليه . فلما سمعت ذلك جعلته من شأنى ، فصمدت نحوه - قصدت إلى جهته - فلما أمكننى حملت عليه ، فضربته ضربة كسرت قدمه ، فو الله لقد شبهتها حين طاحت - ذهبت - بالنواة

---

١٣٤ الحدجة : الحنظلة الشديدة

١٣٥ المواهب اللدنية جـ ١ ص ٤٢٩

١٣٦ الحرجة : الشجر الملتف ، أو هى الشجرة بين الأشجار لا يوصل اليها

تطيح من تحت مرضخة[137] النوى حين يضرب بها . .

وضربني ابنه عكرمة على عاتقي فتركته جريحا وشغلني القتال عنه .

ومر بأبي جهل وهو عقير معوذ بن عفراء ، فضربه ضربة شديدة ، ولكن بقي به رمق ، وقاتل معوذ حتى قتل ، فمر عبد الله بن مسعود بأبي جهل حين أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يُلتمس أبو جهل في القتلى . .

فذهب اليه عبد الله بن مسعود فوجده بآخر رمق فعرفه فوضع ركبته على عنقه وقال له : هل أخزاك الله ياعدو الله ؟

فقال أبو جهل : وبماذا أخزاني ؟

أخبرني لمن الدائرة اليوم ؟

فقال له عبد الله بن مسعود : لله ولرسوله . .

واغتاظ بنو مخزوم لمقتل زعيمهم ، فقالوا لعبد الله بن مسعود : لقد ارتقيت مرتقى صعبا يارويعي الغنم .

واحتز عبد الله رأس أبي جهل وحملها الى النبي ـ ﷺ ـ[138] .

بطولات نادرة وخوارق باهرة

لقد ظهرت من المسلمين في بدر بطولات نادرة فريدة ، تدل على روح التضحية والفداء ، وتشير الى ماتحلى به المؤمنون الصادقون من يقين وايمان وتسابق الى الاستشهاد في سبيل هذا الدين القويم ورسوله الكريم . كما

---

١٣٧ المرضخة : الحجر الذي يكسر به النوى

١٣٨ سيرة ابن هشام جـ٢ ص ٢٧٥

ظهرت فيها آيات باهرة تدل على أن الله يؤيد المسلمين فى جهادهم ، ويعينهم فى قتالهم .

ومن أمثلة ذلك ماحدث من عكاشة بن محصن الذى ظل يقاتل بسيفه حتى تكسر السيف فى يده ، وذهب الى رسول الله - ﷺ - يطلب سلاحا يستمر به فى القتال ، فأعطاه النبى - ﷺ - عودا من حطب ، وقال له : « قاتل بهذا ياعكاشة » .

وأخذ عكاشة العود ونظر اليه وهزه فى يده ، فاذا به فى يده أقوى وأصلب من سيف غضب طويل شديد المتن أبيض الحديدة ، فظل عكاشة يقاتل به حتى فتح الله على المسلمين ، ولم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى استشهد فى حروب الردة وهو عنده . . . وقد قتله طليحة الأسدى المتنبىء(١٣٩) .

وعكاشة هذا هو الذى شهد له النبى - ﷺ - بأنه من أهل الجنة . وقصة ذلك ان النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « يدخل الجنة سبعون ألفا من أمتى على صورة القمر ليلة البدر » .

فقال عكاشة : يارسول الله ، ادع الله ان يجعلنى منهم .

فقال رسول الله : « إنك منهم » .

فقام رجل من الأنصار : يارسول الله ادع الله أن يجعلنى منهم .

---

١٣٩ أسد الغابة جـ ٤ ص ٦٧

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ «سبقك بها عكاشة وبردت الدعوة»[140] .

فانظر كيف يتحول العود فى يد عكاشة ويصبح أقوى وأصلب من السيف ويبقى كذلك الى ماشاء الله . . . أليس ذلك من آيات الله ومن معجزات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟

لقد كانت هذه الغزوة امتحانا للايمان واختبارا للعزائم ، فقد تواجه الآباء مع الأبناء ، والاخوة مع الاخوة ، والاقرباء مع الأقرباء ، وجرى الصراع بين أولئك وهؤلاء . ومع ذلك فقد كانت علاقة الايمان أقوى من رابطة الدم .

أبو عبيدة يقتل والده .

لقد جاء عبد الله بن الجراح بن هلال ـ والد أبى عبيدة . . وهو ممتلىء كفرا وشركا وغضبا على ابنه عامر وكنيته أبو عبيدة ـ وكان أبو عبيدة من السابقين الى الاسلام وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة والملقب بأمين الأمة . .

وظل عبد الله يترصد ابنه ليقتله ، ويسد عليه المنافذ ، لأن المشركين عيّروه بايمان ابنه .

فأراد أن يغسل عن نفسه هذا العار . .

وكان أبو عبيدة بارا بأبيه ، فكان حين يجده فى مواجهته قاصدا اليه

---

١٤٠ بردت الدعوة أى ثبتت

ليقتله يحيد عنه ، ويبتعد عن طريقه ، فعل ذلك مرارا ، ولكنَّ عبد الله جمع بعض المشركين وضيقوا الخناق على أبي عبيدة ، فلم يجد أبو عبيدة بدا من أن يدافع عن نفسه وشرف دينه ، فقاتل هؤلاء القوم ببسالة فجندل من بينهم أباه

لقد كان مثل أبي عبيدة وأبيه فى هذه الموقعة مثل ابراهيم ـ عليه السلام وأبيه ـ يحاول إبراهيم نصح الأب والابتعاد عن أذيته ، ولكن الأب يأبى الا العناد ، فابراهيم يقول لأبيه :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ (١٤١)

دعوة بارة فيها كل لطف وأدب .. ولكن الأب القاسى العنيف يرد عليه بكل غلظة وعنف ..

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ (١٤٢)

---

١٤١ مريم ٤٣ : ٤٥

١٤٢ مريم ٤٦

وهكذا كان أبو عبيدة مع أبيه . فالابن يحاول بكل مايستطيع ألا يجابه أباه فى حرب طاحنة ، ولكن الأب يصر على ان يقتل ابنه ويضيق عليه الخناق حتى يضطر الابن الى قتله دفاعا عن نفسه ودينه . وقد أنصف القرآن الكريم أبا عبيدة أيما إنصاف حيث نزلت الآيات الكريمة تسجل وتبين أن علاقة الايمان هى أقوى رابطة تربط بين الانسان والانسان قال تعالى :

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾ (١٤٣)

وهناك صورة أخرى سجلتها غزوة بدر أيضا . . تلك هى أن عبد الرحمن بن أبي بكر شهد بدرا وهو مشرك وهو شقيق عائشة ـ رضى الله عنها ـ ودعا الى المبارزة ، فأراد أبوه ـ رضى الله عنه ـ أن يخرج اليه ، ولكن النبى ـ ﷺ ـ منعه ، وقال له : ابق معى .

وعبد الرحمن بن أبي بكر كان اسمه ـ قبل الاسلام ـ عبد الكعبة ـ وقيل : عبد العزى ـ فسماه النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عبد الرحمن . وكان من أشجع قريش وأشدهم رماية .

---

١٤٣ المجادلة ٢٢

ولما أسلم قال لأبيه : لقد أهدفت لى ـ أى ارتفعت وتهيأت لى ـ يوم بدر مرارا فصدفت عنك أى أعرضت عنك.

فقال له ابوبكر : لو هدفت لى لم أصدف عنك[١٤٤] .

ومن غريب الاتفاق أن أم ابان بنت عتبة بن ربيعة كان لها عمّان وأربعة إخوة ، كل منهم حضر بدرا ، اثنان من إخوتها مسلمان وهما : أبوحذيفة ومصعب بن عمير ـ أخوها من أمها ـ واثنان كافران وهما : الوليد بن عتبة وأبوعزيز ، ولها عمان أحدهما مسلم وهو معمر بن الحارث وهو أخو عتبة لأمه ، والآخر كافر ، وهو شيبة بن ربيعة .

وحين أسر أبوعزيز بن عمير ، أخو مصعب بن عمير ، مر مصعب على آسره فقال له :

شد يدك به فان أمه ذات متاع لعلها تفديه منك . فقال له أبوعزيز : ياأخى هذه وصايتك بى ؟

وفدته أمه بأربعة آلاف درهم[١٤٥] .

قتلى المشركين فى القليب

انتهت المعركة بنصر المسلمين نصرا مؤزرا ، وهزيمة المشركين هزيمة منكرة . بعد ان قتل كبراؤهم بسيوف الله فى أيدى المسلمين والملائكة . . . لقد قتلهم الله ورماهم كما قال سبحانه :

---

١٤٤ السيرة الحلبية جـ ٢ ص ٤١٤

١٤٥ أسد الغابة جـ ٦ ص ٢١٣

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ (١٤٦)

ذكر ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لعلى - رضى الله عنه - يوم بدر : « أعطنى حصبا من الأرض » فناوله حصبا عليه تراب ، فرمى به فى وجوه القوم فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك التراب ، ثم حمل عليهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم .

وقال عبد الرحمن بن أسلم : أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثلاث حصيات فرمى بحصاة فى ميمنة القوم ، وحصاة فى ميسرة القوم ، وحصاة فى وسطهم وقال :

« شاهت الوجوه » سيهزم الجمع ويولون الدبر ، فانهزموا . .

ولم تكن هزيمة الكفار فى بدر هزيمة عادية ، ولكنها كانت هزيمة منكرة قضت على رءوس الكفر والضلال . . فقتل منهم سبعون قتيلا ، وأسر مثلهم وأمر النبى - صلى الله عليه وسلم - أن يلقى هؤلاء القتلى الذى جاءوا بعجبهم وخيلائهم يريدون أن يطفئوا نور الله بجهلهم وحمقهم ، فأذاقهم الله سوء ماصنعوا وأحلهم ﷺ دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار - أمر ﷺ بأن يلقوا فى قليب فألقوا ، إلا أمية بن خلف لأنه كان قد انتفخ فتركوه

١٤٦ الأنفال ١٧

مكانه وألقوا عليه من التراب والحجارة ماغيبه عن الأنظار .

ووقف النبى - ﷺ - على حافة القليب يخاطبهم :

« ياأهل القليب هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقا ، فانى وجدت ماوعد فى ربى حقا ؟

فقال أصحابه : يارسول الله ، أتكلم قوما موتى ؟

فقال : « ماأنتم بأسمع لما أقول منهم »

وفى رواية ان النبى - صلى الله عليه وسلم - مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة - القليب - وجعل يقول : ياعتبة بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة ، ويأمية بن خلف ، ويأباجهل بن هشام ، بئس عشيرة النبى كنتم ، كذبتمونى وصدقنى الناس وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلتمونى ونصرنى الناس .

فقال عمر - رضى الله عنه : يارسول الله كيف تكلم أجسادا لا أرواح فيها ؟

فقال - صلى الله عليه وسلم : « لقد سمعوا ماقلت غير أنهم لايستطيعون أن يردوا » .

العودة إلى المدينة

وأرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - الى أهل المدينة من يبشرهم بالنصر . .

أرسل عبد الله بن رواحة بشيرا لأهل العالية وهى قريبة من المدينة على أميال منها .

وأرسل زيد بن حارثة بشيرا على ناقته القصواء لأهل السافلة .

ورفع عبد الله بن رواحة صوته بالنداء وقال : يامعشر الأنصار ، أبشروا بسلامة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقتل المشركين وأسْرِهم . .

وأقبل زيد بن حارثة يقول لأهل السافلة بمثل ذلك ، ويذكر أسماء القتلى والأسرى .

وسمع كعب بن الاشرف اليهودى ماسمع الناس من البشيرين فكاد يتميز من الغيظ وقال : لئن كان هؤلاء قتلوا وأسروا فبطن الارض خير من ظهرها . .

وكانت السيدة رقية ابنة رسول الله ـ ﷺ ـ وزوجة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ قد توفيت ، وجاء الخبر بالنصر وهم يسوون التراب على قبرها . . وقدم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد ذلك فعزى فيها ، ولكنه كان نعم الصابر المحتسب ـ صلى الله عليه وسلم ـ

اثر هذا النصر على المنافقين

وكما تغيظ اليهود من هذا النصر تغيظ المنافقون ، بل اشتد غيظهم حتى أرجفوا برسول الله ـ ﷺ ـ قبل ان يصل الى المدينة . وأشاعوا أنه قد قتل ، وهُزِمَ أصحابه . .

قال أسامة بن زيد : جاء رجل من المنافقين الى أبى لبابة ـ وهو الذى استخلفه النبى ـ ﷺ ـ على المدينة ، فقال له : قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون بعده أبدا ، قد قتل محمد وغالبية أصحابه ، وهذه ناقته عليها زيد بن حارثة .

لا يدرى مايقول من الرعب .

قال أسامة : فجئت حتى خلوت بأبى لبابة ، وسألته عما أسره إليه هذا الرجل ، فأخبرنى بما أخبره به . فقلت : أحق ما تقول ؟ قال : إى والله حق ماأقول يابنى . فقويت نفسى ورجعت الى ذلك المنافق فقلت له : أنت المرجف برسول الله ـ ﷺ ـ ؟ لنقدمنك الى رسول الله ـ ﷺ ـ عند قدومه فيضرب عنقك .

فقال هذا الخبيث : إنما هو شىء سمعته من الناس يقولونه .

وقد حدث هذا قبل ان يجتمع أسامة بأبيه زيد بن حارثة ويستمع منه الى تفاصيل ماجاء به من بشرى .

إن الإرجاف من طبيعة المنافقين ، وهم مروجو الشائعات فى كل زمان ومكان ، ومن عادتهم دائما توليد الاكاذيب واذاعة الباطل .. وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾

﴿مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ (١٤٧)

تقسيم الفىء

وأقبل النبى - ﷺ - راجعا الى المدينة ، ولما خرج من مضيق الصفراء قسم الغنيمة ، وكانت مائة وخمسين من الابل ، وعشرة أفراس ، ومتاعا ، وسلاحا ، وثيابا ، وأدما كثيرا وكان المشركون قد حملوه معهم للتجارة . .

ونادى منادى النبى - ﷺ - : من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أسر أسيرا فهو له - أى مايدفع فى فدائه له .

وقد نزلت آيات القرآن توضح للمسلمين كيف يقسمون غنائمهم فى الحروب قال تعالى :

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ (١٤٨)

وقال - عز شانه - :

﴿وَٱعْلَمُوٓا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ (١٤٩)

---

١٤٧ الأحزاب ٦٠ ، ٦١

١٤٨ الأنفال ١ ــ ١٤٩ الأنفال ٤١

لقد أحل الله الغنائم لهذه الأمة . وهى من الأشياء التى اختصت بها دون غيرها من الأمم . .

روى ابن كثير فى تفسيره ما قاله سعد بن أبى وقاص قال : لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير ، وقتلت سعيد بن العاص ، وأخذت سيفه . أتيت النبى - ﷺ - فقال : اذهب فاطرحه فى الغنيمة - قال : فرجعت وبى مالا يعلمه إلا الله من قتل أخى وخوفى من أن يكون هذا السيف من نصيب غيرى .

قال : فما جاوزت إلا يسيرا حتى نزلت آية سورة الأنفال . فقال لى رسول الله - ﷺ - : اذهب فخذ سيفك[١٥٠]

وكان النبى - ﷺ - قد تشاور مع أصحابه فى شأن الغنائم فاختلفت آراؤهم . . . . ويذكر لنا عبادة بن الصامت سبب هذا الاختلاف فيقول :

خرجنا مع النبى - ﷺ - فشهدت معه بدرا ، فالتقى الناس ، فهزم الله العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يضربون ويقتلون ، وأخذت طائفة أخرى فى جمع الغنائم والأسلاب ، وأحدقت طائفة برسول الله - ﷺ - خوفا من أن يصيبه العدو على حين غفله .

حتى اذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم الى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن جمعناها فنحن أحق بها أو بمعظمها من غيرنا .

---

١٥٠ تفسير ابن كثير جـ٣ ص ٥٤٥ جـ ٤ ص ٣

وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق بها منا نحن منعنا عنها العدو .

وقال الذين أحدقوا برسول الله ـ ﷺ ـ : لستم بأحق بها منا ، نحن أحدقنا برسول الله ـ ﷺ ـ وخفنا أن يصيبه العدو... فنزلت آية الأنفال تحسم هذه الأمر وتبين كيف تقسم الغنائم والاسلاب . .

الأسرى من المشركين

وعاد المسلمون بأسراهم الى المدينة وفى الأسرى : عقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث ، وقد قتلا لما كان من شأنهما من أمر اشعال الشر وإذاعة الباطل وتعذيب المسلمين فى مكة .

ثم قال النبى ـ ﷺ ـ لأصحابه : استوصوا بالاسارى خيرا .

واستجاب المسلمون لوصية النبى ـ ﷺ ـ قال أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير: كنت فى رهط من الأنصار حين أقبلوا بى من بدر ، فكانوا إذا قدموا غذاءهم أو عشاءهم خصونى بنصيب أكبر لوصية رسول الله ـ ﷺ ـ إياهم بنا ، ماتقع فى يد رجل منهم كسرة إلا نفحنى بها ، قال : فأستحى فأردها على أحدهم ، فيردها علىّ مرة ثانية .

وأقبلت قريش تفدى أسراها . .

فأرسلت أم أبى عزيز بن عمير فى فدائه ـ وكانت ذات مال ـ فدفعت فى فدائه أربعة آلاف درهم .

ودفع المطلب بن أبي وداعة السهمي - أربعة آلاف درهم فى فداء أبيه - أبي وداعة - وكان تاجرا وصاحب مال كثير .

وكانت قريش تحاول كظم غيظها ماأمكنها ذلك ، وقالت فيا بينها لا تعجلوا فى فداء أسراكم حتى لايشتد عليكم محمد وأصحابه فى الفداء .

وحاولوا ان يستمهلوا ابن أبي وداعة بعض الوقت ولكنه انسل منهم وفدى أباه وعاد به الى مكة .

ولم يلبث أن أقبل القرشيون يفدون أسراهم .

فقدم مكرز بن حفص بن الأخيف فى فداء سُهَيْل بن عمرو ، وكان سهيلٌ خطيبا بارعا بليغا يجتمع إليه الناس فى المحافل .

فاشار عمر بن الخطاب على النبى - ﷺ - ان ينزع ثنيق سهيل حتى يدلع - يلثغ - لسانه فلايقوم خطيبا فى محفل ضد النبى - ﷺ - والمسلمين .

فقال النبى - ﷺ - : « لاأمثل به »

وقال لعمر : « عسى أن يقوم فقاما تحمده ولا تذمه »

وتحقق ما رجاه النبى - ﷺ - فإن سهيلا أسلم وحسن اسلامه ، ثم إنه ثبت يوم الردة على الاسلام ، ووقف فى أهل مكة خطيبا يذكر لهم أيادى الاسلام البيضاء ويحثهم على الثبات فى وجه الردة والوقوف ضد الشرك .

وكان فداء مكرز لسهيل عجيبا يدل على وفاء منه فقد طلب منهم أن يضعوه فى القيد مكانه ويطلقوه حتى يبعث لهم بفدائه . فأطلقوا سهيلا

وأبقوا مكرزا ، وفى ذلك يقول مكرز :

فديت بأذْوَادٍ ثمانٍ سِبا فتىً ... ينال الصميم غرمُها لا المواليا
رهنتُ يدى ، والمالُ أيْسَرُ من يدى ... علىّ ، ولكنى خشيت المخازيا
وقلت : سهيل خيرنا فاذهبوا به ... لأبنائنا حتى نـدير الأمانيـا

ومن الأسرى كان عمرو بن أبى سفيان . وكان له أخ قتل فى المعركة اسمه حنظلة .

فقال المشركون لأبى سفيان : افد ابنك عمرا .

وكان أبو سفيَان شحيحا بالمال فقال : قُتِلَ ابنى حنظلة ، وأفدى عمراً .

دعوه فى أيديهم يمسكوه فى أيديهم مابدا لهم . .

وانتهز أبو سفيان فرصة وجود سعد بن النعمان الأنصارى معتمرا فى مكة ، فعدا عليه فاحتبسه . وكان العهد بأهل مكة ألا يعرضوا لحاج أو معتمر إلا بخير .

وأرسل أبو سفيان يقول لأسرى ابنه وهم رهط سعد بن النعمان : خلوا عن أسيرى أترك أسيركم .

فمشى بنو عمرو بن عوف الى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبروه خبرهم ، وطلبوا منه أن يرسلوا عمرو بن أبى سفيان فيفكوا به صاحبهم ، فوافق رسول الله ـ ﷺ ـ فبعثوا به الى أبى سفيان ، فخلى سبيل سعد .

زوج زينب بنت رسول الله فى الأسرى

وكان من الأسرى أبو العاص بن الربيع وهو زوج زينب بنت رسول

الله ـ ﷺ ـ وكانت لا تزال معه فى مكة ، وهو ابن خالتها ، كانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ تعده بمثابة ولدها .

وسار أبو العاص مع قريش الى بدر ، ونجا من القتل ولكنه لم ينج من الأسر . فأرسلت زينب بقلادة لها كانت خديجة ـ رضى الله عنها ـ قد أعطتها إياها وقت أن زوجتها لأبى العاص . . وطلبت زينب أن تفدى زوجها بتلك القلادة . .

فلما رأى النبى ـ ﷺ ـ القلادة عرفها ، ورق لابنته رقة شديدة فقال لأصحابه : « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها قلادتها فافعلوا » .
ومن حقه ـ ﷺ ـ أن يأمر ، ولكنه ترك الأمر لأصحابه تواضعا منه .

قصة رجوع زينب إلى أبيها

واستجاب المسلمون لما رأى النبى ـ ﷺ ـ فأطلقوا الأسير وردوا المال .
ولكن النبى ـ ﷺ ـ أخذ عليه العهد إن أطلق سراحه أن يرسل زينب الى المدينة .

وأرسل النبى ـ ﷺ ـ زيد بن حارثة ورجلا من الانصار ، واتفق معهما أبو العاص أن يكونا فى « بطن يأجج »[١٥١] حتى تجىء زينب فيصطحباها الى المدينة .

وحين عاد أبو العاص أمر زوجته أن تتجهز للخروج الى المدينة ، ونما خبر

١٥١ـ موضع على ثمانية أميال من مكة

خروجها حتى علم به بعض الناس . وممن علموا بذلك هند بنت عتبة ، فأرادت أن تستوثق فجاءتها تطلب منها أن تساعدها فى تجهيز ما تحتاج اليه فى سفرها . ولكن زينب أخفت عنها رغبتها فى الخروج حرصا وحذرا .

وفى يوم خروجها جاء أخو زوجها كنانة بن الربيع ، ومعه بعير أناخه لها فركبته ، وأخذ قوسه وكنانته وخرج مصاحبا لها . .

ولكن القرشيين حين رأوا ذلك غاظهم الأمر ، فخرجوا فى أثرها حتى أدركوها بذى طوى ، وسبق إليها هبّار بن الأسود بن المطلب فروّعها برمح وهى فى هودجها وبرك كنانة ، ونثر كنانته وأوتر قوسه وقال : والله لايدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما ، فتراجع الناس عنه .

وجاء أبو سفيان فى رجال من قريش فقال له : أيها الرجل ، كف عنا سهامك حتى نكلمك . فكف .

وأقبل عليه أبو سفيان فقال له : والله إنك لم تصب حين خرجت بالمرأة هكذا على رؤوس الناس ، وقد جرى ماجرى لنا ـ وان الناس ليظنون أن خروجك بها هكذا لذل أصابنا . ونحن لا حاجة لنا فى حبسها ، فارجع الى مكة بها حتى تهدأ الأصوات وينسى الناس ماحدث ثم اخرج بها سرا بعد ذلك .

فعادت زينب ، ومكثت أياما فى مكة ، ثم خرج بها ليلا فأسلمها الى زيد بن حارثة وصاحبه فعادا بها إلى المدينة .

إسلام أبي العاص

ولم يلبث أبو العاص بن الربيع أن أسلم . . . وقصة إسلامه يرويها ابن الأثير فيقول :

أقام أبو العاص على شركه بمكة ، حتى كان قبيل الفتح فخرج بتجارة الى الشام ومعه أموال من قريش ، ومعه جماعة منهم ، فلما عاد لقيته سرية لرسول الله - ﷺ - أميرها زيد بن حارثة ، وحدث قتال بين الفريقين ، وأسر المسلمون أناسا من قريش وغنموا غنما .

وهرب أبو العاص ، ودخل المدينة ليلا واستجار بزينب فأجارته . . فلما صلى النبي - ﷺ - الصبح قالت زينب : أيها الناس ، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

فلما سلّم النبي - ﷺ - قال للناس : هل سمعتم ماسمعت ؟

قالوا : نعم .

قال : أما والذى نفسي بيده ماعلمت بذلك حتى سمعته كما سمعتم . . ثم دخل على ابنته فقال لها : أكرمي مثواه ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له .

قالت : إنه جاء فى طلب ماله .

فجمع النبي - ﷺ - السرية وقال : إن هذا الرجل منا حيث علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، وهو مما افاءه الله عليكم ، وأنا أحب أن تحسنوا

وتردوا عليه الذى له ، فإن أبيتم فأنتم أحق به .

فقالوا : بل نرده عليه ، فردوا عليه ماله أجمع .

فعاد الى مكة ، وأدى الى الناس أموالهم ، ثم قال : أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، والله مامنعنى من الاسلام - قبل ذلك - إلا خوفا أن تظنوا بى أكل أموالكم .

ثم قدم على رسول الله ﷺ مسلما وحسن إسلامه ، ورد عليه رسول الله - ﷺ زوجته بعقد زواج جديد . وتوفى أبوالعاصى سنة اثنتى عشرة[١٥٢]

ومن الذين أطلقوا بغير فداء من أسرى بدر غير أبى العاصى بن الربيع - المطلب بن حنطب بن الحارث بن عبيد المخزومى كان عند الخزرج،وظل فى أيديهم حتى أطلقوا سراحه .

كما أطلق سراح رجل آخر من بنى مخزوم أيضا اسمه صيفى ، لم يتحرك أحد فى فدائه ، فأطلقوا سراحه على أن يبعث بالفداء فلم يف .

وأطلق سراح أبى عزة الشاعر كان ذا بنات محتاجا وقال للنبى - ﷺ : مُنّ علىّ ، فمنّ عليه وأخذ عليه عهدا الا يظاهر عليه أحدا .

وممن أطلق سراحهم بدون فداء أيضا وهب بن عمير بن وهب - كان قد أسره رفاعة بن رافع . .

وكان أبوه قد قدم إلى المدينة متظاهرا بفدائه ولكنه كان يضمر الغدر بالنبى - ﷺ -

---

١٥٢ أسد الغابة جـ ٦ ص ١٨٥

فلما التقى بالنبى - ﷺ - قال له : لماذا جئت يا عمير ؟

قال : جئت فى شأن الأسير الذى عندكم .

قال : فما بال السيف فى عنقك ؟

قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغننت شيئا ؟

قال له الرسول - ﷺ -: اصدقنى لماذا جئت ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

قال له : بل جلست أنت وصفوان بن أمية فتعهدت له بقتلى على أن يقضى دينك ويعول ولدك .

فقال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك فيما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان فوالله انى لأعلم ما أتاك به إلا الله

فأسلم ، وأطلق له النبى - ﷺ له أسيره .

وهناك أسرى آخرون لم يستطيعوا تقديم فداء ، أطلق سراحهم بعد أن قام كل منهم بتعليم عشرة من أطفال المسلمين القراءة والكتابة .

وكان هذا دليلا على عناية الاسلام بأمر العلم وإذاعة التعليم ونشره والحث عليه .

عتاب الله فى أمر الفداء

حين أسر المسلمون من أسروا من المشركين استشار النبى - ﷺ - أصحابه فى أمرهم .

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله اضرب أعناقهم - ووجهة نظره - رضى الله عنه - أنهم رءوس الشرك ، وإن أطلق سراحهم فسيعودون إلى الشقاق وقال : يا رسول الله هم أخرجوك وكذبوك .

وقال أبوبكر : يا رسول الله ، قومك وأهلك استبقهم واطلب منهم التوبة ، لعل الله أن يتوب عليهم .

وقال عبدالله بن رواحة : يا رسول الله أنت فى واد كثير الحطب فاضرم الوادى عليهم نارا ، ثم ألقهم فيه .

وكان العباس بن عبدالمطلب - عم رسول الله - فى الأسرى . فخشى أن يميل النبى - ﷺ - الى رأى المتشددين فقال : لا تقطع رحمك .

وسمع النبى ﷺ هذه الآراء وسكت ولم يرد . ثم قام فدخل حجرة من حجراته . .

فقال قوم : سيأخذ برأى عمر ، وقال قوم : سيأخذ برأى أبى بكر ، وقال قوم : سيأخذ برأى عبدالله بن رواحة .

ثم خرج رسول الله ﷺ يقول : « ان الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن ، وان الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وان مثلك يا أبا بكر كمثل ابراهيم - عليه السلام - حين قال : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فانك غفور رحيم » وإن مثلك يا أبا بكر كمثل عيسى عليه السلام - قال « إن تعذبهم فأنهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم »

وان مثلك يا عمر كمثل موسى ـ عليه السلام ـ قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلايؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » وإن مثلك يا عمر كمثل نوح ـ عليه السلام ـ قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا »

ثم قال : أنتم فى حاجة خذوا منهم الفداء .

قال عبدالله بن مسعود : قلت يا رسول الله ، إلا سهيل بن بيضاء فانه يذكر الاسلام ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إلا سهيل بن بيضاء .. فأنزل الله ـ تعالى

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (١٥٣)

لقد استشار النبى ـ ﷺ ـ أصحابه ـ ومال إلى ما جُبل عليه من خُلق الرحمة التى بعث من أجلها « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وقد حدث عن نفسه قائلا « إنما أنا رحمة مهداة »

---

١٥٣ الأنفال ٦٧ : ٦٩

ولم يكن النبي - ﷺ - مستبدا فى اختيار ما اختاره ، ولكنه كان مجتهدا مال إلى رأى اقتنع به ووافق طبعه فلا حرج عليه ولا مؤاخذة .

أما قوله - تعالى

« لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »

فالمقصود به كما قال بعض المفسرين : لولا كتاب من الله سبق لهم بالمغفرة أو لولا كتاب من الله سبق فى إحلال الغنائم . .

والذى يدل على ذلك ما جاء بعد ذلك من قوله « فكلوا مما غنتم حلالا طيبا »

روى جابر - رضى الله عنه - عن النبى - ﷺ - قال : أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الانبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الارض مسجدا وطهورا ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة العظمى وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة(١٥٤)

وفى فداء العباس حدثت محاورة طريفة بينه وبين النبى - ﷺ - تشهد للنبى بمقامه العالى عند الله ، وان الله علمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما .

روى الزهرى عن جماعة سماهم - قالوا : بعثت قريش إلى رسول الله -

---

١٥٤ تفسير ابن كثير جـ ٤ ص ٣٤

ﷺ - فى فداء أسراهم . ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا ، وقال العباس : يا رسول الله ، قد كنت مسلما .

فقال رسول الله - ﷺ - : الله أعلم باسلامك ، فان يكن كما تقول فان الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك ، نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب ، وعقيل بن أبى طالب ، وحليفك عتبة بن عمرو أخى بنى الحارث بن فهر .

قال العباس : ما ذاك عندى يا رسول الله .

قال النبى - ﷺ - : فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ؟ وقلت لها : إن أُصِبت فى سفرى هذا ، فهذا المال الذى دفنته لأبنائى . .

قال العباس : والله يا رسول الله ، إن لأعلم أنك رسول الله ، إن هذا الشىء ما علمه أحد غيرى وغير أم الفضل ، فاحسب لى يا رسول الله ما أصبتم منى . . . . وكانوا قد أصابوا منه عشرين أوقية من مال كان معه .

فقال رسول الله - ﷺ - :لا . . ذاك شىء أعطانا الله - تعالى - منك .

ففدى العباس نفسه ، وفدى ابنى أخويه وحليفه . وأنزل الله تعالى قوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ (١٥٥)

---

١٥٥ الأنفال ٧٠ ، ٧١

فالنبى - ﷺ - حين ظهرت هذه القضية - أى قضية الأسرى-لأول مرة - نظر الى جانبين :

الجانب الأول حاجة المسلمين وافتقارهم الى المال

والجانب الثانى هؤلاء الأسرى وما يمكن أن يترتب على فدائهم أو المن عليهم ، فقد يعيد بعضهم النظر فى موقفه من الاسلام .

هذا الى ما كانت تنطوى عليه نفس النبى - ﷺ - من رحمة ظهرت آثارها فى مواقفه كلها من هؤلاء المشركين قبل ذلك . فهو الذى رفض أن يدعو عليهم بالعذاب حين جاء به الملك . وقال : « دعهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحد الله »

تعليق المفسرين على آية الأسرى :

جاء فى تفسير المنار حول هذه الآية ما يلى :

تضع هذه الآيات أحكاما حول الأسرى فى الحروب . فتوضح أن شأن الأنبياء وسنتهم ألا يكون لهم أسرى فى حروبهم قبل أن تتم لهم الغلبة على أعدائهم تماما ، وحتى يغلبوا على الارض بحيث لا تقوم للشر قائمة ولا يبقى للعدو أثر ، ومن التجارب التى لا شك فيها أن قتل أعداء الأديان فى الحرب من أسباب التمكن والقوة وعظمة السلطان فيها . . . . . وقد يحصل هذا التمكن بدون ذلك ، فقد يحصل باعداد كل ما يستطاع من القوى الحربية ومرابطة الفرسان والاستعداد التام للقتال الذى يرهب الاعداء والذى أشار اليه قوله تعالى :

﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (١٥٦)

وقد يجتمع السببان معا فيكمل بهما تمكن العزة والسلطان(١٥٧) على أنه قد ورد فى سورة محمد قوله - تعالى :

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾ (١٥٨)

وفى هذه الآية توضيح لموقف الاسلام من الأسرى . وهو أن الإمام بعد انقضاء الحرب مخير فى أمر أسراه ، ان شاء من عليهم فأطلق سراحهم بدون فداء ، وان شاء قبل فيهم الفداء .

ولكن للامام أن يقتل من يراه أهلا للقتل قطعا لدابر الفتنة وحسما لمادة الشر ، وقد قتل النبى - ﷺ - عقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث .

---

١٥٦ الأنفال ٦٠

١٥٧ تفسير المنار جـ ١٠ ص ٧٢

١٥٨ محمد ٤

وقال الامام الشافعى فيما يرويه ابن كثير : الامام مخير بين قتل الأسير أو المنّ عليه أو مفاداته أو استرقاقه(١٥٩)

أثر المنّ فى النفوس

وربما أدى المن على الأسير إلى تأليف قلبه وإذهاب ما فى نفسه من أوضار الكفر والحقد والشر ، ويقص علينا ابن الاثير قصة فى ذلك فيقول فى ترجمة « ثمامة بن أثال » :

أسر النبى - ﷺ - ثمامة بن أثال الحنفى - وكان ثمامة قد تعرض للنبى - ﷺ - يريد اغتياله . فدعا النبى - ﷺ - ربه ان يمكنه منه .

فاقبل ثمامة يوما فى طريقه إلى مكة معتمرا ، فدخل المدينة فأصابه الله بالحيرة فلم يستطع التصرف ، فأخذ ، وأتى به إلى رسول الله - ﷺ - فأمر به فربط الى عمود من عمد المسجد .

فخرج رسول الله - ﷺ - فقال له : مالك يا ثمام هل أمكننا الله منك ؟

فقال ثمامة : قد كان ذلك يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تعف تعف عن شاكر ، وان تسأل مالا تُعطه .

فمضى رسول الله - ﷺ - وتركه . حتى اذا كان من الغد مر به ، فقال له : مالك يا ثمام ؟

قال ثمامة : خير يا محمد ، ان تقتل تقتل ذا دم ، وإن تعف تعف عن شاكر ، وإن تسأل مالا تعطه .

---

١٥٩ تفسير ابن كثير جـ ٧ ص ٢٩٠

ثم انصرف رسول الله - ﷺ -

قال أبوهريرة : فأخذ بعض المساكين من بيننا يقولون: ما نصنع بدم ثمامة ؟

والله إن ما يؤخذ فى فدائه أحب الينا من دمه . .

فلما كان من الغد مر به رسول الله - ﷺ - فقال : مالك يا ثمام ؟

قال ثمامة : خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذا دم ، وان تعف تعف عن شاكر وان تسأل مالا تعطه .

فقال رسول الله - ﷺ - أطلقوه ، قد عفوت عنك يا ثمام .

فخرج ثمامة ، حتى أتى حائطا من حيطان المدينة ، فاغتسل فيه وتطهر ، وطهر ثيابه ، ثم جاء إلى رسول الله - ﷺ - وهو جالس فى المسجد فقال : يا محمد ، لقد كنت وما وجه أحد أبغض إلىَّ من وجهك ، ولا دين أبغض إلىَّ من دينك ، ولا بلد أبغض إلىَّ من بلدك ، ثم لقد أصبحت وما وجه أحب إلىَّ من وجهك ، ولا دين أحب إلىَّ من دينك ، ولا بلد أحب إلىَّ من بلدك ، وإنى أشهد ان لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . . . يا رسول الله ، إنى كنت قد خرجت معتمرا وأنا على دين قومى ، فأسرنى أصحابك فى عمرتى ، فسيرنى - صلى الله عليك - فى عمرتى .

فسيره رسول الله - ﷺ فى عمرته ، وعلمه .

فخرج معتمرا ، فلما قدم مكة ، وسمعته قريش يتكلم بأمر محمد قالوا : صبأ ثمامة .

فقال : والله ما صبأت ، ولكنى أسلمت وصدقت محمدا وآمنت به ، والذى نفس ثمامة بيده لاتأتيكم حبة من اليمامة - وكانت ريف أهل مكة - حتى يأذن فيها رسول الله - ﷺ - .

وانصرف إلى بلده ، ومنع حمل الطعام الى مكة ، فجهدت قريش ، فكتبوا الى رسول الله - ﷺ - يسألونه بأرحامهم إلا كتب إلى ثمامة يخلى لهم حمل الطعام . ففعل ذلك رسول الله(١٦٠)

غزوة بدر فى القرآن

لقد ذكر الله - سبحانه - هذه الغزوة فى القرآن الكريم فى مواضع متعددة . وأنزل سورة بأسرها فى شأنها هى سورة الانفال .

وبدأت السورة بذكر ما انتهت اليه الغزوة حيث أشارت إلى الأنفال حين اختلفوا فى أمر قسمتها ، فأمر الله بقسمتها بينهم على السواء .

ثم ذكرهم بأخلاق المؤمنين وما يجب ان يكونوا عليه من إيثار الآخرة على الاولى . .

ثم تعرضت السورة لأحداث الموقعة بدءاً بخروجهم وانتهاء بموقفهم من الأسرى .

وفى خلال ذلك تحدثت عن إمداد الله لهم بعونه ، وإرساله الملائكة مددا لهم .

كما تحدثت عن واجبات المجاهد ووجوب صموده فى مواجهة عدوه - قال تعالى :

---

١٦٠ أسد الغابة جـ١ ص ٢٩٤

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (١٦١)

كما وجهت أنظار المؤمنين إلى وجوب المبادرة إلى طاعة الله ورسوله لأنه لا يأمر إلا بما فيه الصلاح والسداد :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (١٦٢)

وفى ذلك تعريض بالمنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون .

كما تحدثت السورة عن الكفار وبغيهم وموقفهم من الدعوة الاسلامية وتكذيبهم للرسول ـ ﷺ ـ ولقد بلغ من شدة كفرهم وجحودهم أنهم قالوا ـ كما حكى لنا القرآن الكريم :

﴿ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (١٦٣)

---

١٦١ الأنفال ١٥ ، ١٦
١٦٢ الأنفال ٢٠ ، ٢١
١٦٣ الأنفال ٣٢ ، ٣٣

لقد أرسل الله نبيه - ﷺ - رحمة للعالمين ، فوجوده بين قومه منع عنهم العذاب .

وَطَلَبُ كفار قريش العذاب حماقة ليس بعدها حماقة .

ومن الطرائف التى ذكرها الرواة فى ذلك ما يحكى من أن رجلا من اليمن لقى رجلا من قريش فقال القرشى لليمنى : ما أحمق قومك اذ ولوا عليهم امرأة ، يقصد بها بلقيس ملكة سبأ .

فأجابه اليمنى قائلا : بل ما أحمق قومك حين قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم .

هلاّ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا اليه ؟

ثم تحدثت السورة عن طغيان هؤلاء الكفار وصدهم عن سبيل الله والمسجد الحرام ، وبطلان عبادتهم القائمة على تقديس الأوثان المنصوبة حول الكعبة ، والإتيان بأفعال لا تناسب جلال هذا المكان الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (١٦٤)

وتحدثت السورة عن مواقع المسلمين والكفار فى غزوة بدر .. كما أشارت الى وجوب لقاء العدو فى ثبات واتحاد وألفة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا

---

١٦٤ الأنفال ٣٥

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (١٦٥)

ونهى القرآن المسلمين عن إظهار العجب والاختيال ، فان ذلك يأتى بالخذلان، ومن صفات المؤمنين التواضع والافتقار الى الله ـ لأن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء ، وليس بكثرة العدد والعدة . قال تعالى :

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ (١٦٦)

وفى النهى عن العجب والرياء قال :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ (١٦٧)

وتحدثت سورة الأنفال أيضا عن خداع الشيطان للكفار ، واغوائه لهم حتى أحلهم دار البوار .

كما تحدثت عن موقف المنافقين من هذه الغزوة وتمنيهم هزيمة المؤمنين ، وكان المنافقون يشكون فى قدرة المسلمين على الصمود أمام كثرة قريش وما جمعته من عدة وعتاد ، وقد فضحهم الله بقوله :

---

١٦٥ الأنفال ٤٥ ، ٤٦

١٦٦ آل عمران ١٢٣

١٦٧ الأنفال ٤٧

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ (١٦٨)

كما بينت السورة بعض الاحكام التى تتعلق بمعاملة العدو ووجوب إعداد القوة له ، ومنابذته عند الخوف من خيانته ، ومسالمته إن رغب فى ذلك . . قال تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾ (١٦٩)

---

١٦٨ الأنفال ٤٩
١٦٩ الأنفال ٥٨ : ٦٢

عبر وعظات من تلك الغزوة

ولا يمكن أن تمر غزوة بدر دون أن يأخذ منها المسلمون اليوم العظة والعبرة ، وقد دعانا الله الى الاعتبار فى قوله :

﴿ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٢ ﴾ (١٧٠)

ولقد حرص المسلمون الأوائل على دراسة التاريخ وتعليمه لأبنائهم ، قال زين العابدين بن الحسين بن على - رضى الله عنهم - : « كنا نُعَلَّم مغازى رسول الله - ﷺ - كما نُعَلَّم السور من القرآن »

وقال اسماعيل بن محمد بن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنهم - كان أبى يعلمنا المغازى والسرايا ويقول : يابنى إنها شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها .

وقد حفلت غزوة بدر الكبرى بدروس تستحق أن نتأملها - نذكر منها ما يلى :

الدرس الاول : الاعلام بحقائق الموقف

لقد كان تفوق المشركين على المسلمين فى العدد والعدة تفوقا كبيرا بلغت نسبته ثلاثة الى واحد . وكان الرسول - ﷺ - حريصا على أن يعلم أصحابه بكل جوانب الموقف وأبعاده لا يخفى عليهم شيئا على الاطلاق .

---

١٧٠ الحشر ٢

وكانت هذه أول مواجهة عسكرية حاسمة بين المسلمين والمشركين .

وفى خروج المشركين وقتالهم المسلمين تهديد خطير للدين فى موطنه الجديد بعد فشلهم فى القضاء عليه بمكة ، هذا فضلا عن تفوقهم الظاهر . والنتائج التى سوف تسفر عنها المعركة سيكون لها آثار بعيدة المدى على الدعوة ومستقبلها وعلى هيبة المسلمين ومكانتهم .

وهذا ما عبر الرسول - ﷺ - عنه حين دعا ربه قبل المعركة قائلا :
« اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام لا تعبد فى الأرض »

وهنا يعلمنا النبى - ﷺ - أن القيادة الرشيدة هى التى تبصر شعبها بالحقائق عن حجم التحدى الذى يواجهه ، وشدة الخطر الذى يتهدده ، ثم تتخذ فى الوقت نفسه من التدابير ما يمكنها من مواجهة الخطر بثبات واقتدار ومن الوسائل ما يمكنها من التغلب على تفوق العدو أو تجريده من فاعليته .

● فحين علم الرسول - ﷺ - بخروج قريش عن بكرة أبيها قال لأصحابه هذه مكة قد ألقت إليكم بأفلاذ أكبادها »

● وحين استجوب الرسول الرجلين وسألهما عن عدد الذبائح التى تذبحها قريش كل يوم . قال لأصحابه : « القوم بين التسعمائة والألف »

● وحين عرف قرب العدو أعلن انه « وراء الكثيب بالعدوة القصوى » فالرسول - ﷺ - يكشف لنا الخطأ الفاحش الذى يقع فيه الذين يخفون الحقائق فى مثل هذه المواقف عن رجالهم ، فلايعلنون شيئا عن تفوق العدو

بحجة الخشية من هبوط الروح المعنوية ، دون ان يدركوا أن هذه السياسة الاعلامية القاصرة سوف تكون وبالا عليهم عند خوض المعركة ، فينكشف المستور ، ويكون وقع المفاجأة شديدا لا يمكن تلافيه .

الدرس الثانى : حشد الموارد المتاحة واستغلالها

وقد اتخذ الرسول ـ ﷺ ـ فى الوقت نفسه كل التدابير التى تمكنه من القضاء على مزية التفوق لدى عدوه ، وكان على رأس هذه التدابير حشد موارده المتاحة من الرجال والسلاح ، واستثمارها بأعلى درجات التنظيم والادارة والاقتصاد فى القوى ، وهذه من أهم المبادىء التى يقوم عليها علم الادارة الحديث لتحقيق الأهداف بكفاءة . . . وقد ظهر ذلك فيما يلى :

● إحكام السيطرة على الموارد بغاية الإحكام . فقد اتخذ لنفسه مركز قيادة يشرف منه على المعركة بصفته القائد العام .

● تنظيم الجيش فى كتيبتين إحداهما للمهاجرين بقيادة على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ والأخرى للانصار بقيادة سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه .

● حشد الموارد مع الاقتصاد فى القوى ـ فقد أصدر أوامره قائلا : « اذا أكثبوكم ـ اقتربوا منكم ـ فارموهم واستبقوا نبلكم ، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم »

فهذا تنظيم دقيق يكفل استغلال طاقات السلاح بعيد المدى بأكبر حشد مع دقة استخدامه فلا يطيش سدى »

الدرس الثالث : أهمية وحدة الصف فى ميزان القوى

واذا كان ميزان القوى من حيث العدد والعدة فى صالح المشركين ، فقد كان ميزان القوى بين الطرفين لصالح المسلمين من حيث وحدة الصف والهدف من قبل أن تبدأ المعركة .

فالمتأمل فى أحوال قريش يدرك أنها خرجت وهى متضاربة الآراء بالرغم من تفوقها الظاهر فى العدد والسلاح .

فقد أرسلت قريش من يستطلع لها قوة المسلمين ، فأخبرهم أنهم ثلثمائة أو يزيدون قليلا ، وقد استعدوا بسيوفهم ، فاضطرب القرشيون ، فمنهم من أراد الرجوع ومنهم من أراد البقاء ، ومنهم من أصابة التردد .

أما المسلمون فقد اتحدت كلمتهم جميعا ، وحين استشار النبى - ﷺ - أصحابه أجمعوا مهاجرين وأنصارا على لقاء العدو . .

وكان هذا الاجماع ثمرة المؤاخاة التى حققها بينهم النبى - ﷺ - قبل ذلك عقب الهجرة .

واذا كان المشركون قد خرجوا من مكة وهم يخشون ان تأتيهم ضربة من خلف - من كنانة - فإن المسلمين قد خرجوا وابتعدوا عن المدينة حوالى مائة وستين كيلو مترا دون خوف ان تأتيهم ضربة من خلف ، لأن الرسول - ﷺ - بسياسته الرشيدة وعبقريته التنظيمية والادارية والعسكرية - جعل المدينة قاعدة وطيدة صلبة ، وجبهة موحدة ، ونظم لأهلها جميعا أمور حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية . بمقتضى ميثاق المدينة الذى سبق ان تحدثنا عنه .

الدرس الرابع ـ المجاهدون الصادقون لا يقهرون

وصف مونتجمرى ـ وهو يؤرخ للحرب عبر التاريخ ـ المسلمين بانهم قوم لا يقهرون ونوه بشجاعتهم وإقدامهم وحشدهم لقواتهم ، ولم يفته وهو الباحث الجيد ـ ان يكشف عن السر وراء ذلك فقال :

كان العرب يندفعون نحو القتال تحركهم أقوى دوافع الحرب ، ألاَ وهى العقيدة والايمان ، ومثل هذه النبضات المتلاحقة لم يكن من السهل أن تخبو أو تضعف فالكثيرون منهم وخاصة فى المراحل الأولى للفتوحات الاسلامية كانوا يؤمنون إيمانا راسخا بالدعوة الأسلامية ، ويتحمسون لها ويغارون عليها . وأدى هذا الى اعتناقهم مبدأ صلبا هو الجهاد فى سبيل الله ، وقد تغلغل هذا المبدأ فى قلوب اتباع الرسول ـ ﷺ ـ

ولقد حفلت غزوة بدر بصور رائعة لقوة الايمان ورسوخ العقيدة التى ملأت قلوب المسلمين ثباتا واستبسالا فى لقاء عدوهم المتفوق عليهم عددا وعدة . .

وحسبنا أن نعلم أن أبا عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنه ـ قتل أباه فى المعركة ، وأن عبد الرحمن بن أبى بكر وقد كان مع المشركين فى ذلك الوقت ـ قال لأبيه « الصديق » ـ بعد إسلامه : لقد صدفت لى يوم بدر فلم أقتلك ، فقال أبوبكر ـ رضى الله عنه ـ: والله لو صدفت لى لقتلتك .

وما من شىء يدعو إلى أن يقتل الابن أباه والأب ابنه إلا قوة الايمان والعقيدة الراسخة ؟

« ان قوة الايمان والعقيدة الصادقة كانت تملأ قلب المسلم بأقوى الدوافع النفسية نحو الاستبسال فى قتال العدو الذى ليس له من تلك الدوافع دافع واحد يستند اليه ، ولا شك ان هذا مما ترجح به موازين النصر ، فان الدوافع النفسية الصادقة تحارب إلى جانب أصحابها كما يحارب الجندى الى جوار صاحبه . .

الدرس الخامس : شجاعة القيادة فى مواجهة الخطر

ولقد قدّم الرسول القائد ـ ﷺ ـ المثل الرفيع على شجاعة القيادة والقائد فى مواجهة الخطر وقهره .

● فقد واجه فى معركة بدر معركة يطلق عليها رجال الحرب معركة غير متكافئة ولو كان القائد انسانا عاديا لتخلى عن فكرة القتال فيها ، لكنه ـ ﷺ ـ أراد أن يعلم المسلمين أن المجاهد الصادق الذى يعد العدة الكافية لا يمكن ان يقهر لان الله تعالى معه وقد وعده بالنصر قال سبحانه :

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ...﴾ (١٧١)

● وكان ﷺ فى المعركة مثالا للشجاعة الفريدة حتى وصفه على بن أبى طالب بقوله : « كنا اذا اشتد الخطب واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد منا أقرب الى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا الى العدو(١٧٢) »

---

١٧١ الروم ٤٧

١٧٢ راجع مقال اللواء أ ـ ح محمد جمال الدين محفوظ . بمجلة الوعى الاسلامى عدد رمضان ١٤٠٧ هـ

أثر هذه الغزوة

وغنى عن القول أن نقول إن المشركين قد أصابهم الغم الشديد بما انتهت اليه هذه الغزوة من خذلان شديد لهم ، فقد أصابهم الغم حتى هلك منهم بذلك من هلك . فحين عاد أبوسفيان بن الحارث الى مكة بعد الموقعة ، سأله أبولهب عن خبر قريش ، فقال له : هلم إليَّ فعندى الخبر . .

قال أبولهب : ما هو ؟

قال أبوسفيان : والله ما هو إلا أن لقينا القوم حتى منحناهم أكتافنا يقتلوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك مالمت الناس ، لقد لقينا رجالا بيضا على خيل بلق والله لا يقوم لهم شيء - قال أبورافع مولى رسول الله ﷺ وكان غلاما مملوكا للعباس بن عبدالمطلب :

كان الاسلام قد دَخَلَنا - أهل البيت - فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا ، وكان العباس يكره مخالفة قومه فكان يكتم إسلامه وكان ذا مال .

قال أبورافع : فقلت لأبي سفيان بن الحارث وهو يقص ذلك الخبر : والله إنهم الملائكة .

قال : فرفع أبولهب يده فضربنى فى وجهى ضربة شديدة ثم احتملنى فضرب بى الأرض ثم برك عليّ يضربنى .

فقامت أم الفضل الى عمود من عمد الخيمة فضربت به رأس أبي لهب ضربة أسالت الدم من رأسه وقالت : استضعفته ان غاب عنه سيده .

فما عاش أبولهب بعد ذلك إلا سبع ليال ، حتى رماه الله بالعدسة ، وهى قرحة كانت العرب تتشاءم بها ـ هى بثرة كالطاعون أو أشد ، وقيل إنها كانت تعدى أشد العدوى ، فتباعد عنه بنوه . حتى قتله اللهبها ،وبقى ثلاثة أيام لا يقرب أحد جثته تشاؤما منه ، وخوفا من عدواه ، حتى خاف أولاده السبة فى تركه هكذا بدون دفن ، فحفروا له ثم دفعوه بعود فى حفرته ، وقيل : لم يحفروا له ، بل دفعوه حتى ألصقوه بالحائط ثم أهالوا عليه التراب والحجارة من بعيد حتى واروه .

وقد أقام القرشيون النوح على قتلى قريش شهرا[١٧٣]

وقطعت النساء شعورهن ، وكن يأتين بفرس الرجل أو راحلته وتستر بالستور ويبكين حولها ويخرجن إلى الأزقة . .

وكان أول من قدم مكة بخبر هزيمة قريش الحيسمان بن عبدالله الخزاعى . .

فقالوا له : ما وراءك ؟

قال : قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبوالحكم بن هشام ، وأمية بن خلف ، وزمعة بن الاسود ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وأبوالبخترى بن هشام ، فلما جعل يعدد أشراف قريش قال صفوان بن أمية : وهو قاعد عند الحجر : والله إن هذا الفتى ما يعقل ما يقول ، فاسألوه عنى ، فقالوا له : أين صفوان بن أمية ؟

---

١٧٣ المواهب الدينية جـ١ ص٤٥٣

قال : ها هو ذاك جالس فى الحجر ، قد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

وظلت قريش تبكى القتلىٰ حتى قالوا : لا تبكوا فيبلغ ذلك محمدا وأصحابه فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى لا يبالغوا فى طلب الفداء . فكفوا عن النوح .

وكان الأسود بن المطلب قد أصيب فى ثلاثة أولاد : زمعة ، وعقيل ، والحارث بن زمعة ، وكان يحب أن يبكى على بنيه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلام له ـ وكان قد ذهب بصره ـ انظر هل أحلَّ القوم النوح ؟

هل تبكى قريش على قتلاها ؟ حتى أبكى على أبى حكيمة ـ يعنى زمعة ـ فإن جوفى قد احترق .

فلما رجع اليه الغلام قال له : انها امرأة تبكى على بعير لها أضلته . فقال الأسود :

أتبكى أن يضل لها بعير ويمنعها من النوم السهود
فلا تبكى على بكر ولكن على بدر تقاصرت الجدود
وابكى إن بكيت على عقيل وابكى حارثا أسد الاسود
وابكيهم ولا تسمى جميعا وما لابى حكيمة من نديد[174]

هذا هو وقع الخبر بالنسبة لقريش .

---

١٧٤ الروض الانف للسهيل جـ٢ ص ٥٥

أما وقع الخبر فى المدينة فقد كان على عكس ذلك تماما .

لقد عمت الفرحة أرجاء المدينة وشملت كل ركن فيها ، وان كان الغم قد أصاب اليهود والمنافقين وذلك أمر طبيعى . .

روى ابن عباس - رضى الله عنهما - قال . قال النبى - ﷺ - : « لما قدمت الى المدينة بعد بدر وكنت جائعا استقبلتنى امرأة يهودية على رأسها جفنة فيها جَدْى مشوى ، فقالت : الحمد لله يا محمد أن سلمك الله ، كنت نذرت لله إن قدمت المدينة سالما لأذبحن هذا الجدى ولأشوينه ولأحملنه اليك لتأكل منه: فأنطق الله الجدى فقال : يا محمد لا تأكلنى فانى مسموم »

ذكر هذا الخبر الحلبى فى سيرته[175]

ولا يستبعد حدوث ذلك من اليهود . . . وقد أوردت الروايات الصحيحة كثيرا من أخبار غدرهم وخياناتهم . . وخبر الشاة المسمومة فى خيبر ثابت لا شك فى صحته ، أما هذا الخبر فانه فى حاجة الى توثيق .

دخل النبى - ﷺ - المدينة بين مظاهر الفرح والابتهاج ، وقد أقبلت الولائد بالغناء يرددن النشيد المشهور :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وقال أسيد بن الحضير : الحمد لله الذى أظفرك وأقرعينك يا رسول الله . أجل لقد أقر الله عين نبيه ، وأسعد جده ، وأظهر دينه ، وخذل عدوه . .

---

١٧٥ السيرة الحلبية جـ٢ ص٤٤٣

وقع الخبر خارج جزيرة العرب

وقد بلغ الخبر النجاشى فسر به سرورا بالغا ، ذكر جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ـ أن النجاشى أرسل اليهم ذات يوم وهم بالحبشة،فدخلوا عليه فوجدوه جالسا على التراب لابسا أثوابا خلقة ، فقالوا له : ما هذا أيها الملك ؟

فقال لهم : إنى أبشركم بما يسركم ، إنه قد جاءنى من نحو أرضكم ـ عين لى ـ فأخبرنى أن الله ـ عز وجل ـ قد نصر نبيه وأهلك عدوه فلانا وفلانا وعدد جمعاً من القتلى .. ثم قال لهم : لقد التقى الفريقان فى مكان يقال له بدر ودارت الدائرة على أعداء الله ورسوله .

فقال له جعفر : فمالك أيها الملك تجلس على التراب عليك هذه الثياب ؟

قال : إنا نجد فيما أنزل الله على عيسى أنَّ حقا على عباد الله عندما يحدث الله نعمة أن يتواضعوا له(١٧٦)

فضل من شهد بدرا

لقد أكرم الله من شهد بدرا حتى كان شهودها سببا فى غفران الذنوب والتجاوز عن السيئات .

ذكر الرواة أن رجلا من الصحابة جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ يقول له : يا رسول الله إن ابن عم لى نافق ـ وكان من أهل بدر أتأذن لى أن أضرب عنقه ؟

---

١٧٦ انظر السيرة الحلبية جـ٢ ص٤٦٢

فقال : ﷺ : « إنه شهد بدرا وعسى أن يكفر الله عنه »

وعن أبي هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال . قال رسول الله ﷺ : « اطلع الله على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »

وعن حفصة ـ رضى الله عنها ـ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إني لأرجو ألا يدخل النار إن شاء الله تعالى أحد شَهِد بدرا والحديبية »

قيل : إن الواو هنا بمعنى « أو »

وروى الطبراني عن رافع بن خديج أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر : « والذى نفسي بيده لو أن مولودا ولد فى فقه أربعين سنة من أهل الدين يعمل بطاعة الله تعالى كلها ويجتنب معاصي الله كلها إلى أن يُردَّ الى أرذل العمر . أو يرد إلى أن لا يعلم بعد علم شيئا ـ لم يبلغ ما بلغه أحدكم هذه الليلة »

لقد كانت « بدر » بدرا فى أفق الدعوة الاسلامية ، أشرق نورها فأضاء غياهب الشرك ، وأذهب ظلمات الباطل . وحق أن يطلق عليها يوم الفرقان كما ذكرها الله تعالى بذلك فى قوله :

﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ (١٧٧)

---

١٧٧ الأنفال ٤١

غزوة بني قينقاع

- فزع اليهود بسبب انتصار المسلمين في بدر .
- يهود بني قينقاع ينقضون العهد .
- حصار النبي و المسلمين لهم .
- تدخل عبد الله بن سلول للعفو عنهم .
- سوء تصرف اليهود مع امرأة مسلمة من الأنصار .
- حكم موالاة غير المؤمنين .
- هل كان هناك عنف وقسوة في معاملة المسلمين لبني قينقاع ؟

فى مواجهة اليهود

« غزوة بنى قينقاع »

كان لنصر المسلمين المؤزر على كفار قريش وقع شديد على يهود المدينة ومنافقيها . وقد ظهر أثر ذلك فى قول كعب بن الاشرف اليهودى : لئن كان مايقوله هذا المنادى - وهو البشير الذى أرسله النبى - ﷺ - يبشر أهل المدينة بالنصر - صحيحا فبطن الارض خير من ظهرها . .

لقد ساءه أن يسمع أن الله نصر النبى - ﷺ - والمسلمين على الشرك وأهله ، وكان يتوقع أن يسمع نقيض هذا الخبر ، بل كان ينتظر ويترقب خبر هزيمة الرسول والمؤمنين ، ولعله قد منى نفسه الأمانى بقرب الفرج الذى ينتظره ، وأن الغُمَّةَ التى خيمت - فى زعمه - على المدينة بحلول المهاجرين فيها قد آن لها أن تنكشف ، وأن قريشا التى حشدت ماحشدت من سلاح ورجال سوف تقضى على هؤلاء الذين غرتهم قوتهم-يعنى بذلك المسلمين .

وكانت المظاهر كلها تؤيد ظن ابن الأشرف وقومه فما كان يظن هو ومن معه من اليهود والمنافقين أن أولئك الغرباء الضعفاء الفقراء القليلى العدد والعدة يستطيعون ان يقفوا فى طريق هذا الجحفل القادم من مكة فى قوته وعدده ساعة من نهار . .

وربما كان ابن الاشرف ومن معه من اليهود يتضاحكون فيما بينهم ، ويستهزئون مقدما بهؤلاء المسلمين الذين يتطاولون على من بيدهم القوة ،

ويتجرءون على ان يقفوا فى طريقهم أو يفكروا فى حربهم . .

ألم يقل المنافقون الذين يظاهرون اليهود : إن المسلمين قد غرهم دينهم - كما ذكر لنا القرآن الكريم فى قوله .

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ

وغفلوا عن أن الله سبحانه قادر على كل شىء كما قال فى عجز هذه الآية :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٩ ﴾ (١٧٨)

فلما جاءت نهاية المعركة على غير ماكان هؤلاء يتوقعون ملأ الغم نفوسهم ، وظلل الأسى وجوههم ، وانتابهم الغيظ الذى جعلهم يتخبطون ولايدرون ماذا يفعلون . .

وكان ماكان من أمر كعب بن الاشرف الذى سبق أن أشرنا الى قصته . وذكرنا أنه أسرع بالذهاب الى أهل مكة يعزيهم فى مصابهم ، ويواسيهم فى خطبهم ، ويشد من أزرهم ، ويكفكف من عبراتهم .

وأخذ ينشد الاشعار - وكان شاعراً - فى رثاء قتلى بدر من المشركين ، ويذكر صنائعهم وأياديهم من مثل قوله : -

كم قد أصيب به من أبيض ماجد ذى بهجة يأوى اليه الضيع
طلق اليدين اذا الكواكب أخلفت حمال أثقال يسود ويربع

---

(١٧٨) الأنفال ٤٩

ولقد وجد كعب بن الاشرف من يرد عليه ويلقمه حجراً ، ويذكر له أن مصرع هؤلاء كان لبغيهم والبغى مرتعه وخيم . . وأن من أفلت ممن شهد المعركة منهم لم يفلت بقوته وشجاعته وحسن تدبيره ، ولكن أفلت بجبنه وخذلانه وفراره ، وقال أحد شعراء المسلمين فى ذلك : ـ

ولقد شفى الرحمن منا سيدا وأهان قوما قاتلوه وصرعوا

ونجا وأفلت منهم من قلبه شغف يظل لخوفه يتصدع

وأخذ كعب ـ كما سبق أن قدمنا ـ يشد من أزر المشركين بشعره ، حتى عاد الى المدينة ، فوجه شعره وجهة جديدة . . فقد أخذ يشبب بنساء المسلمين حتى تأذى المسلمون بذلك ، فقرروا التخلص منه اتقاء لشره . .

لقد كان تصرف كعب بن الاشرف هذا صدى لما كان يعتمل فى نفسه من عوامل الحقد والضغينة والغيظ .

كما كان لهذا الغيظ مظهر آخر تكشف عنه هذه القصة التى أدت الى غزو بنى قينقاع . .

وبنو قينقاع بتثليث النون والضم أشهر ـ بطن من يهود المدينة ، كانت منازلهم عند جسر بطحان مما يلى العالية ، وهم رهط عبد الله بن سلام الذى أسلم وأشار اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ (١٧٩)

---

(١٧٩) الأحقاف ١٠

وهم قوم لهم قوة وصبر ، بل كانوا أشجع بطون اليهود وأكثرهم مالا وأشدهم بغياً .

وقد جعل القسطلانى - رحمه الله - أعداء الاسلام بعد الهجرة ثلاث طوائف . .

منهم طائفة وادعها النبى - ﷺ - على ألا يحاربوه ولا يؤلبوا عليه عدوه بل يكونوا معه على عدوه اذا دهمه ، وهؤلاء هم فئات اليهود التى كانت تسكن المدينة وهم : بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع .

وقد نقض هؤلاء عهدهم . كما سنرى .

وطائفة ناصبته العداء والشقاق ونابذته بالحرب وهم القرشيون . .

وطائفة تركته وانتظرت مايئول اليه أمره ، فان آل الى النصر والظفر بقريش تبعوه ، وان كان العكس تبعوهم ، وهؤلاء هم طوائف من قبائل العرب ، إلا أن منهم من كان يحب فى الباطن أن يظفر النبى - ﷺ - كقبيلة خزاعة ، ولذلك سارعوا إلى الانضمام اليه فى صلح الحديبية ، ومنهم من كان يحب فى الباطن أن تظفر قريش كقبائل بكر ولذلك دخلت فى عقد قريش ، ومنهم من أظهر الاسلام وأبطن الكفر كالمنافقين [١٨٠]

يهود بنى قينقاع ينقضون العهد

ذكر الرواة أن بنى قينقاع نقضوا العهد الذى أبرمه النبى - ﷺ - معهم . وقد بدت لهذا النقض مظاهر . . منها غمهم الشديد لهزيمة قريش أمام

---

(١٨٠) المواهب الدينية جـ ١ صـ ٤٥٦

المسلمين . . وقد بدا ذلك فى فلتات ألسنتهم ، فقد روى ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : لما أصاب رسول الله ـ ﷺ ـ قريشا يوم بدر ، بدأ حقد اليهود على النبى والمسلمين يزداد ويظهر ، فكانوا يتلفظون بمايدل على كراهيتهم للرسول ـ ﷺ ـ وأخذوا يؤلبون عليه القبائل ويدبرون ضده المؤامرات . . وكانت أعمالهم تلك لا تخفى على ذى بصيرة ، فضلا عن النبى ـ ﷺ ـ الذى أيده الله بالوحى ، ورزقه الالهام الصادق والفراسة الصائبة .

ولما كلمهم النبى فى ذلك لم يحسن بنو قينقاع الرد على النبى ـ ﷺ ـ ولكنهم قالوا له : أغرك أنك لقيت قوما لا بصر لهم بالحرب ، ولا معرفة لهم بالقتال ؟ فوالله لو قاتلناك لعرفت أنا الرجال . .

وقد نزل القرآن الكريم يذكرّ هؤلاء وأمثالهم بأن يتخذوا مما حدث لقريش عظة وعبرة ، فقال سبحانه :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾ ﴾ (١٨١)

ولم يلبث اليهود أن شفعوا أقوالهم تلك بتصرف غادر يثير غيظ الحليم . ذلك أن امرأة من الانصار ذهبت بِحَلَب لها إلى سوق بنى قينقاع فباعته ،

---

(١٨١) آل عمران ١٢ ، ١٣

ثم انصرفت الى صائغ يهودى تشترى بعض الحلى . فراودها على أن تكشف عن وجهها فأبت .

فأوعز الى صبيان لهم جاءوا من ورائها فى خفية ، ورفعوا ذيل ثوبها فانكشفت سوأتها ، فضحكوا منها ، فصرخت . فهب لنجدتها رجل من المسلمين ووثب على الصائغ واشتبك معه ، وقام بعض اليهود يعاونون الصائغ فقتل المسلم الصائغ اليهودى ، وقتل اليهود الرجل المسلم . .

فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون على بنى قينقاع . . لأنهم الذين بدأوا بإهانة المسلمين .

وأجمعوا على حربهم . وأيدت السماء المسلمين لأنه لا عهد لغادر . . وقد نبه الحق سبحانه وتعالى إلى وجوب نبذ عهد الخائنين فقال :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (١٨٢)

قال القرطبى : نزلت هذه الآية فى بنى قريظة وبنى النضير ولكن ابن سعد فى طبقاته يقول : لما كانت وقعة بدر أظهر بنو قينقاع العداء والحقد على النبى والمسلمين ونبذوا العهد فأنزل الله ـ تعالى ـ وإما تخافن من قوم خيانة . . . »

وكانت خيانة بنى قينقاع ظاهرة فسار إليهم .

---

(١٨٢) الأنفال ٥٨

الحصار

سار إليهم النبى - ﷺ - يوم السبت فى منتصف شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة . . واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر الانصارى الأوسى المدنى . . وضرب عليهم الحصار خمس عشرة ليلة ، الى هلال ذى القعدة . .

وحمل لواء النبى - ﷺ - حمزة بن عبد المطلب . . وقذف الله فى قلوب بنى قينقاع الرعب - على الرغم من أنهم كانوا قد تحصنوا فى حصونهم القوية التى تعودوا أن يحاربوا من ورائها . . . وقد ذكر القرآن الكريم ذلك فى قوله :

﴿ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (١٨٣)

فلما طال الحصار نزلوا على حكم رسول الله - ﷺ - واستسلموا . . وأمر النبى - ﷺ - ، بشد أيديهم خلف ظهورهم حتى يرى رأيه فيهم .

تدخل عبد الله بن أبى

ومر عليهم عبد الله بن أبى بن سلول واتباعه وكان مواليا لهم ، فهم بأن يطلق سراحهم ، فقال له المنذر بن قدامة السلمى : أتطلق قوما أمر النبى - ﷺ - بقيدهم ،والله لا يفعله أحد إلا ضربت عنقه .

---

(١٨٣) الحشر ١٤

وأقبل عبد الله بن أبيّ على رسول الله ـ ﷺ ـ يستشفع لهم فلم يلتفت اليه . فألح عبد الله وقال : يامحمد أحسن الى هؤلاء فهم حلفائى فأعرض عنه النبى ـ ﷺ ـ ، وعاد عبد الله يلح على رسول الله ، فغضب النبى ـ ﷺ ـ وقال له : ويحك اتركنى.. قال :والله لاأتركك حتى تحسن فى موالى . . واشتد غضبه ـ ﷺ ـ حتى ظهر الغضب فى وجهه . .

لقد كان هؤلاء أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع .

فقال عبدالله بن أبيّ : هؤلاء يمنعوننى من الأحمر والأسود ، وأنا رجل أخشى الدوائر فلا تقتلهم .

فلما أثقل عبد الله على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : حلو أكتفاهم . .

وتركهم يرحلون عن المدينة على أن يتركوا أموالهم ، ويأخذوا نساءهم وأولادهم . .

فخرجوا من حصونهم وذهبوا إلى أذرعات ، فلم يدر عليهم الحول فيها حتى هلكوا . .

لقد كان بنو قينقاع حلفاء لعبد الله بن أبى ، كما كانوا حلفاء لعبادة بن الصامت .

فأما عبادة فقد نفض يده منهم وذهب إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يقول له : يارسول الله إنى أبرأ إلى الله ورسوله من حلف هؤلاء الغادرين الناقضين للعهد . . .

أما عبدالله بن أبي فقد تمسك بحلفهم ومظاهرتهم والدفاع عنهم .. وهذا هو الفرق بين المؤمن والمنافق ..

وقد نزل القرآن الكريم يوضح أن المؤمن لا يجب أن يوالى أعداء الله وأعداء دينه ، بل يجب أن يكون وليه الله ورسوله ، وأنه لا يوالى أعداء الله إلا من كان فى قلبه مرض . قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾ ٥٥ ، ٥٦ سورة المائدة ..

وقال تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) ﴾ (١٨٤)

كما نهى الله عن موالاة جميع الأعداء فى مواضع متعددة ، ومن ذلك قوله ـ تعالى ـ

---

(١٨٤) المائدة ٥١ ، ٥٢

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) ﴾ (١٨٥)

وهذا أمر عام بالنسبة للكفار جميعا ـ أما اليهود والنصارى فقد نزل أمر خاص بهم حين حدث ما حدث من أمر بنى قينقاع ، وظهر من المنافقين ما ظهر من أمر موالاتهم اليهود ودفاعهم عنهم ، فقال ـ تعالى ـ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ (١٨٦)

لقد أظهر الله فى هذه الآيات موقف اليهود المعادى للمسلمين ، وكشف دخائل نفوسهم وحذر المؤمنين من غدرهم وخيانتهم . .

إن علامة المؤمن الحق أن يستجيب لله ورسوله ، ويحب الله رسوله ويتبرأ من الكفر وأهله ومن ينتسب اليه . .

إن موالاة الكفار أشبه بالارتداد عن الاسلام ، بل هو ارتداد فعلا يحبط الأعمال ويستحق صاحبه دار البوار . قال الله فى ذلك

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ

---

(١٨٥) الممتحنة ١

(١٨٦) المائدة ٥١

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤) ﴾(١٨٨)

لقد كان هؤلاء اليهود يسخرون من الأذان حين ينادى به المؤذن داعيا الناس إلى أداء الصلاة ، حتى قال الله تعالى فى ذلك

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٥٧) وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ (٥٨) ﴾(١٨٩)

وفعل أهل الكتاب هذا يشهد بمدى ما وصلت إليه نفوسهم من انغلاق وبعد عن دوافع الخير ، وانفتاح على دواعى الشر والرذيلة ، وتجاوب سريع مع فعل الشيطان . فقد ورد أن الشيطان إذا سمع الأذان أدبر حتى لا يسمع التأذين . فإذا قضى التأذين أقبل ، فاذا ثوب بالصلاة أدبر ، فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه ، فيقول له : اذكر كذا ، اذكر كذا ، حتى يظل الرجل لا يدرى كم صلى ، فإذا وجد أحدكم ذلك فليسجد سجدتين قبل السلام أو بعده »(١٩٠)

---

(١٨٧) المائدة ٦٧

(١٨٨) المائدة ٥٤

(١٨٩) المائدة ٥٧ ، ٥٨

(١٩٠) تفسير ابن كثير جـ ٣ ، صـ ١٣٢ وقال : متفق عليه

كما يدل هذا على مدى التلازم بين اليهود والمنافقين ، فإن المنافقين كانوا يستقبلون الصلاة فى امتثال ظاهر واعوجاج باطن قال تعالى

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ (١٩١)

وكان الولاء واضحا بين المنافقين واليهود ، يشهد له ذلك الدفاع الحار من ابن أبى بن سلول ـ عن بنى قينقاع ، حتى لقد أغضب رسول الله ـ ﷺ ـ فى سبيل إرضائهم ، ولم يستجب رسول الله له عن رضا ، ولكنه استجاب له ضيقا بإلحاحه الشديد . .

سوء تصرف اليهود مع المرأة المسلمة

لقد كان تصرف اليهود مع تلك المرأة المسلمة تصرفا شائنا سيئا . . لقد كان هدفهم الإساءة إلى المسلمين على أى حال ـ هى امرأة مسلمة رأوها فى سوقهم جاءت تبيع وتشترى ، فأبى حقدهم الدفين إلا أن يطل برأسه من بين صدورهم ، وسول لهم شيطانهم أن يهينوا تعاليم الإسلام ، وما يأمر به من احتجاب المرأة وسترها . . سول لهم الشيطان أن يهينوا تلك التعاليم ممثلة فى تلك المرأة . . فمن اليقين أنها لم تكن أول امرأة تذهب الى السوق فى هذه الصورة . ولكن ذلك الصائغ سول له شيطانه أن يفعل ذلك لينعكس

---

(١٩١) النساء ١٤٢

هذا الشؤم عليه وعلى غيره ممن انطوت نفوسهم على الحقد الدفين ، والغيظ الذى أخذ يتلظى بعد أن ظهرت نتيجة معركة بدر ، وخذل فيها هؤلاء الذين كان يعقد عليهم اليهود الآمال فى القضاء على هذه الدعوة الوافدة على المدينة .. والحقد حينما يثور يتحين لثورته أى سبب كان ، وكان حجاب هذه المرأة هو السبب ..

وجاء رد المسلمين على هذه الوقاحة اليهودية طبيعيا ، يلتقى مع غيرة الاسلام وغيرة العروبة ..

ولكن المنافقين لم يكونوا على مستوى هذا الموقف الاسلامى النبيل .. بل تدنوا الى درجة الاستخذاء وقبول الذل وعدم الغيرة الشريفة على العرض والشرف والكرامة .. وهذا هو شأن النفاق فى كل زمان ومكان ..

حكم تولى غير المؤمنين

والإسلام يحذر من تولى غير المسلمين ، بمعنى أن يفضل المسلم العدو على أخيه فى الدين ..

وقد جاء ذلك صريحا فى آيات متعددة ، ذكرنا بعضها . ونذكر من ذلك أيضا قوله تعالى :

﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ

نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ ﴾[١٩٢]

وربما تذرع البعض بهذه الآية فأباحوا تولى غير المؤمنين إذا اتقينا منهم تقاة . . . ولكن ذلك مردود عليه بما قاله معاذ بن جبل ومجاهد،فقد قالا : كانت التقيه فى بدايه الإسلام قبل قوة المسلمين ، فأما بعد أن أعز الله الاسلام فلا تقية . .

وقد أراد عبادة بن الصامت رضى الله عنه ـ أن يستظهر يوم الأحزاب ببعض اليهود ، وقال للنبى ـ ﷺ ـ : يارسول الله ، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو . فأنزل الله هذه الآية .

« ولا يستثنى من هذا الحكم وهو تولى الأعداء ، إلا حالة واحدة ، هى ما إذا اضطر المسلمون إلى هذه الموالاة بسبب شدة الضعف التى قد تحملهم كرها على ذلك . . . وينبغى أن نعلم أن النهى عن موالاة غير المسلمين لا يعنى الأمر بالحقد عليهم ، فالمسلم منهى عن أن يحقد على أحد من الناس . . . وينبغى أن نعلم أن هنا لك فرقا كبيرا بين أن يغضب الانسان على أحد من أجل الله تعالى ، وبين أن يحقد عليه »[١٩٣]

---

(١٩٢) آل عمران (٢٨)

(١٩٣) فقه السيرة للبوطى صـ ١٨٣

حتى فى حالة الحرب بين المسلمين وغيرهم فإن هذا لا يمنع من إقامة العدل مع الإعداء ومعاملتهم معاملة حسنة ،

وهذا هو شأن الاسلام دائما . فالمسلم الحقيقى هو الذى يكون غضبه لله ، وبسبب تجاوز الحدود التى أمر الله بالوقوف عندها ، وعدم تجاوزها .

ولقد أمر الله ـ تعالى ـ بإقامة العدل مع الاعداء كاقامته مع الأولياء .

قال تعالى

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (١٩٤)

هل هناك عنف فى معاملة بنى قينقاع ؟

يخطىء من يظن أن الإسلام قد عامل بنى قينقاع بعنف . . . لقد كان إجلاء بنى قينقاع هو العلاج الحاسم لما كان يحدث منهم . وليس الأمر أمر اعتداء يهودى على امرأة مسلمة بهذه الصورة التى ذكرناها ، ولكن تصرف اليهود مع المرأة كان هو القشة التى قصمت ظهر البعير ـ كما يقال ـ لقد حدث منهم الكثير من التصرفات السيئة ، وحاولوا الكيد وفتنة الناس مما أوجب على المسلمين العمل على حسم هذا الداء وقطع دابر الفتنة التى

---

(١٩٤) المائدة ٨

توشك أن تستشرى . . لقد لوحوا بالحرب ، وقالوا علنا لرسول الله ـ صلى اللع عليه وسلم ـ لا تظن يامحمد أننا كقومك ؟ لا يغرنك أنك لقيت قوما لاعلم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس . .

فالروح العدوانية التى تنطوى على الغدر والخيانة هى التى أملت على المسلمين أن يقفوا من اليهود هذا الموقف ، والروح العدوانية سمة اليهود منذ قديم الزمان ، « فتاريخهم قبل عصر التوراة وبعده تاريخ دموى حربى ملىء بالعدوان ، وتغلب عليهم صفة الشراسة والعنف . . بالإضافة إلى اتصافهم بالمكر والخديعة ، واستعمال مختلف الوسائل لتحقيق أهدافهم مهما كانت تلك الوسيلة مخالفة للقيم والأخلاق الدينية . .

وقد أفرز هذا التفكير . . صفات القوة والعنف لدى اليهود على أرض فلسطين فى العصر الحديث ، فما نراه اليوم منهم هو طبعهم المتأصل فيهم منذ القدم »(١٩٥)

لقد فطن النبى ـ ﷺ ـ إلى أن اليهود يمثلون مركز قوة فى المدينة وهم يحتكرون صناعة السلاح وترويجه ، ولهم حلفاء من المنافقين يتولون أمر الدفاع عنهم عند الضرورة . وقد رأينا كيف فعل ابن سلول مع النبى ـ ﷺ ـ من أجلهم . .

---

(١٩٥) الشخصية اليهودية الاسرائيلية والروح العدوانية د . رشاد عبد الله الشامى صـ ١٤٠ ط عالم المعرفة

فلو وقف النبى والمسلمون منهم موقفا سلبيا لاستشرى فسادهم ، وأصبحت العواقب وخيمة يصعب علاجها فى المستقبل . . فكان علاج ماحدث يتطلب هذا التصرف الحكيم من النبى - ﷺ -

ولابأس من قطع سلسلة الأحداث التاريخية ، لنستكمل حلقات التآمر اليهودى ضد الإسلام - فنتحدث عن بقية طوائف اليهود الذين كانوا يترصدون الموقف ، ويرقبون الأحداث لينفذوا من خلال مايرونه مناسبا إلى تحقيق مآربهم فى كيد الإسلام ورسوله - ﷺ -



غزوة بني النضير

- الأحداث التي سبقت تلك الغزوة .
- تآمرهم على قتل الرسول .
- عاقبة البغي .
- حصار المسلمين لبني النضير .
- استسلامهم بعد طول الحصار .
- خروجهم من المدينة .
- هل أسلم منهم أحد ؟
- مثل المنافقين واليهود .

بنو النضير قبيلة كبيرة من اليهود كانت لهم منازل ونخيل بناحية المدينة .

وذكر البعض أنهم حى من يهود خيبر ، ولهم قرية يقال لها « زهرة » وقد حدث من هؤلاء اليهود ما استوجب حصارهم وإجلاءهم عن المدينة كما أجلى سلفهم بنو قينقاع .

والقسطلانى يذكر فى كتابه ما أورده السهيلى من أن حصار بنى النضير كان ينبغى أن يكون الحديث عنه قبل غزوة أحد .. لأن هذا الحصار تم قبل أحد على رأس ستة أشهر من وقعة بدر ..

فعلى هذا القول يكون حديثنا هنا ماضيا مع التسلسل الزمنى للأحداث . ولكن أغلب الرواة يرون أن حصار بنى النضير كان فى شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة ..

واسباب الحصار تصدق ذلك التاريخ وترجحه .

احداث سبقت الحصار

وهناك أحداث لابد من الاشارة اليها ، لأن الحصار قد ترتب عليها .. من هذه الاحداث : حادثة بئر معونة .

وقصة ذلك كما يرويها ابن هشام فى سيرته قال : قدم أبوبراء عامر بن مالك بن جعفر الملقب بملاعب الأسنة على رسول الله - ﷺ - بالمدينة فدعاه النبى - ﷺ - إلى الاسلام بعد أن عرضه عليه ، ولكنه لم يسلم ، ولم يبعد

عن الاسلام[١٩٦] . وقال : يا محمد لو بعثت معى رجالا من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى أمرك . رجوت أن يستجيبوا لك .

فقال النبى - ﷺ - : إنى أخشى عليهم أهل نجد .

فقال ابوبراء : أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

فأرسل النبى - ﷺ - المنذر بن عمرو ومعه أربعون رجلا من أصحابه كان يطلق عليهم القراء ، لأن القرآن كان شغلهم الشاغل يتدارسونه بالليل ، وفى النهار كانوا يحتطبون ..

ونزل هؤلاء القوم « بئر معونة » وهو موضع لهزيل ، بين مكة وعسفان ، وبجواره أرض لبنى عامر ، وحرة لبنى سليم .

وبعثوا واحدا منهم اسمه حرام بن ملحان وكان يحمل كتابا من رسول الله - ﷺ - إلى عامر بن الطفيل . فلم ينظر عامر فى الكتاب ، وعدا على الرجل فقتله ، ولم يكتف بذلك بل استصرخ عليهم قبائل بنى سليم فأجابوه إلى ذلك ، فخرجوا على هؤلاء القوم حتى غشوهم فأحاطوا بهم فى رحالهم ، فلما رأى المسلمون غدر القوم اخترطوا سيوفهم مدافعين عن أنفسهم ومازالوا يقاتلون حتى قتلوا عن آخرهم . ولم ينجح منهم سوى كعب بن زيد فقد أصيب ، وظنوا أنه قد قتل ، ولكنه كان به رمق ، فقاوم الجرح وعاش حتى قتل شهيدا بعد ذلك فى غزوة الأحزاب ..

---

(١٩٦) أى أنه لم يقبل الاسلام ولم يرفضه

وكان رجلان من جماعة المسلمين يقومون بشأن الابل بعيدين عن أصحابهم ، فلم يشعروا بما حدث لاخوانهم ، حتى رأيا الطير تحوم فوق مكان المعركة .

فقالا : والله إن هذه الطيور لها شأن ، فأقبلا ينظران فاذا القوم مصرعون فى دمائهم ، واذا الخيل التى أصابتهم ما تزال واقفة .

فقال أحدهما للآخر : ما ترى ؟

قال له صاحبه : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر .

فقال الآخر : ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قتل فيه أصحابى .

فقاتل حتى قتل ، وأُخِذَ الآخر أسيرا وهو عمرو بن أمية الضمرى .. ثم لم يلبث عامر بن الطفيل ان أطلق سراحه بعد أن جزَّ ناصيته وفى طريق عودة عمرو إلى المدينة ظفر برجلين ظنهما من بنى عامر أى من رهط عامر بن الطفيل الذى صنع هذه المأساة ، وغدر بالمسلمين .. فعدا عمرو عليهما فقتلهما وهو يرى أنه نال بقتلهما ثأرا لأصحابه ..

ولم يعرف عمرو أن هذين الرجلين كان بينهما وبين النبى ﷺ عهد .... فلما عاد وأخبر النبى ﷺ بذلك قال له : لقد قتلت قتيلين بطريق الخطأ ، ولابد من أداء دية كل منهما ..

وتأثر النبى ﷺ بمقتل أصحابه القراء الذين أرسلهم مع أبى براء ، وقال : قد كنت لهذا الأمر كارها ـ أى أنه كارهاً لذهابهم .

وظل شهرا يقنت فى صلاة الصبح يدعو على قبائل سليم ـ رعل وذكوان وبني لحيان ..... وهم القوم الذين استصرخهم عامر بن الطفيل على المسلمين بعد أن نقض عهد ابى البراء وخفر ذمته ..

واختلفت الأقوال فى أمر عامر بن الطفيل هل أسلم بعد ذلك أم لا ؟ فقيل : إنه شاهد ما كان من أمر المسلمين الذين استشهدوا دفاعا عن دينهم ـ شاهد منهم ما أثار دهشته وعجبه وقربه إلى الاسلام .

فقد رأى فيهم حبهم للاسلام ، ودفاعهم عنه ، وبذلهم كل غال ورخيص فى سبيل هذا الدين . ففكر فى أمر تلك العقيدة التى تدفع المؤمنين بها إلى بذل أى شىء وكل شىء فى سبيلها .

وقال هؤلاء : إنه أسلم وهو الذى قال يا رسول الله زودنى بكلمات أعيش بهن

فقال له : « يا عامر ، أفش السلام وأطعم الطعام واخش الله ولا تخش الناس ، واذا أسأت فأحسن فان الحسنات يذهبن السيئات » .

ولكن ابن الأثير يقول : لم يختلف أحد من المتقدمين أن عامر بن الطفيل مات كافرا ، وقد عاد من عند الرسول ـ ﷺ ـ كافرا وكان معه أربد بن قيس ، وقد دعا رسول الله ﷺ عليهما وقال : اللهم اكفنى شرهما بما شئت . فأنزل الله ـ تعالى ـ على أربد صاعقة فأهلكته ، وأخذت عامرا الغُدَّة ـ أى أصيب بمرض الغدة

فكان يقول : غدة كغدة البعير وموت فى بيت سلولية[197] ؟

ما علاقة بنى النضير بهذه الحادثة ؟

أما العلاقة بين بنى النضير وتلك الحادثة فهى أن النبى - ﷺ - كان قد كتب معاهدة بين المسلمين وبنى النضير يلتزم فيها الطرفان بالمشاركة فى أداء الديات ..

فحين قتل عمرو بن أمية الضمرى الرجلين ظنا منه أنهما من المشركين وتبين أنهما لا شأن لهما بقتل المسلمين ، وأن هناك معاهدة بين قومهما والمسلمين . التزم النبى ﷺ - بدفع دية القتيلين ، واصبح بنو النضير ملزمين بالمشاركة فى تحمل جزء من الدية طبقا للمعاهدة بينهم وبين المسلمين .

فذهب النبى الى بنى النضير فى نفر من أصحابه ، فيهم أبوبكر وعمر وعلى - رضى الله عنهم - وعرض عليهم الأمر .

فقالوا : نعم يا أبا القاسم ، نحن ملتزمون بذلك طبقا لنصوص المعاهدة .

وكان - ﷺ - جالسا الى جنب جدار من بيوتهم ، فخلا بعضهم ببعض وقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل بعد ذلك على مثل هذه الحالة . ولن تصادفوا منه غرة كهذه ، فمن منكم يستطيع أن يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

---

(١٩٧) أسد الغابة جـ ٣ صـ ١٢٧

فقال عمرو بن جحاش - وهو واحد منهم - : أنا لذلك ..

وحاول واحد منهم اسمه سلام بن مشكم أن يمنعهم وقال لهم : لا تفعلوا والله لَيُخْبَرن بما هممتم به ، إنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه .. ولكنهم أبوا الاستجابة له ..

وحين صعد هذا الرجل الخبيث الذى تطوع لإلقاء الحجر فوق النبى - ﷺ - أخبر جبريل النبى بالمؤامرة ، فقام النبى - ﷺ - من مكانه مسرعا ، وهو يظهر أنه قام لحاجة ما ، وانطلق راجعا الى المدينة تاركا أصحابه فى مجالسهم . ولعل الهدف من ذلك أن يطمئن اليهود بأنه لابد وأن يرجع .. ولو أخذ بيد أصحابه وقام لاسترابوا ، وربما اعتدوا عليهم وهم قلة . عاد النبى - ﷺ - إذن الى المدينة ، وبقى أصحابه مع اليهود فى انتظار عودته ، فلما أبطأ قاموا فى طلبه فلقيهم رجل عائد من المدينة فأخبرهم بأنه رأى النبى - ﷺ - قد دخل المدينة .

فأقبل أصحابه حتى انتهوا اليه ، فأخبرهم بما همت به بنو النضير من إلقاء الصخرة عليه لقتله ، وأنه قام وعاد الى المدينة بعد أن أعلمه جبريل بذلك . وكان فى استطاعة الرسول ﷺ أن يبتعد عن الحائط ليتفادى الصخرة ، ولكنه خشى إن هو فعل ذلك وبقى معهم حتى تفتضح مؤامرتهم - أن يدفعهم فشل مؤامرتهم وانكشاف أمرهم الى العدوان عليه وعلى من كان معه بطريقة أخرى من طرق الغدر التى طبعوا عليها ، ولهذا

قام دون أن يظهر لهم انه قد عرف شيئا .. وعرف اليهود أن مكيدتهم قد عرفت ، فأسقط فى أيديهم ، وعلموا أن كارثة توشك ان تحيق بهم بعد أن نقضوا عهدهم ..

وأرسل النبى - ﷺ - إلى بنى النضير محمد بن مسلمة - رضى الله تعالى عنه - يقول لهم على لسانه : « اخرجوا من المدينة لاتساكنونى بها بعد خيانتكم وبعد الذى هممتم به من الغدر » .

فسكتوا ولم يقولوا حرفا ..

وقال لهم : « لقد أجلتكم عشرا فمن رؤى بعد ذلك ستضرب عنقه ، وفى شأن نجاة النبى - ﷺ - من هذه المؤامرة نزل قوله - تعالى -

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (١٩٨)

ذكر ذلك القرطبى فى بعض أسباب نزول هذه الآية عن قتادة ومجاهد وغيرهما قالوا : نزلت فى قوم من اليهود جاءهم النبى ﷺ فى أمر فهموا بقتله فمنعه الله منهم ..

عاقبة البغى

وذعرت اليهود ذعرا شديدا ، وأوقع الله الرعب فى قلوبهم ، وهموا

---

(١٩٨) المائدة ١١

بالاستجابة لأمر النبى - ﷺ - وتهيأوا لذلك فعلا . ولكن المنافقين - بزعامة عبدالله بن أبى بن سلول - أرسلوا اليهم يقولون : لا تخرجوا من دياركم وأقيموا فى حصونكم المنيعة وهى : الوطيح ، والنطاة ، والسلالم ، والكتيبة . فان محمدا وأصحابه لن يصلوا اليكم ، ونحن معكم نحارب معكم اذا حاربتم ، ونخرج معكم إذا خرجتم .

وأصاخ اليهود لصوت ابن سلول ، وتلكأوا فى الخروج ..

لقد اغتروا بقول ابن سلول لهم : إن معه ألفين من قومه وغيرهم من العرب ، يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل ان يصل اليكم محمد وأصحابه - كما قال لهم : إن بنى قريظة وخلفاءكم من غطفان سيمدونكم .. وما علم اليهود بأن كلام المنافق لا يصدق ، لأن من أولى علاماته الكذب ، وما علموا بان وعد المنافق سراب ، فان من علاماته الغدر ، وقد صدق الرسول - ﷺ - حيث قال : « آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، واذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان »

ومن طبع المنافق انه لا يفى لشريف فكيف يفى لغادر ؟

وأرسل اليهود للنبى - ﷺ - يقولون : انا لن نخرج من ديارنا فاصنع ما بدالك ..

فلما جاء رسولهم بذلك جهر النبى - ﷺ - بالتكبير وكبر المسلمون معه .. وقال : حاربت يهود ..

وكان الذى يتولى أمر بنى النضير حيى بن أخطب ، وهو والد صفية أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ

وجاءه سلام بن مشكم يقول له : يا حيى ، لقد منتك نفسك الباطل ، لا تغتر بقول عبدالله بن أبى ، فان كلامه ليس بشىء ، إنما يريد ان يوقعك فى الهلكة حتى تحارب محمدا ، ثم يجلس فى بيته ويتركك . الآ ترى أنه أرسل الى كعب بن أسد القرظى سيد بنى قريظة لكى تمدكم بنو قريظة ، فرد عليه كعب بقوله : ان بيننا وبين محمد عهدا ، لا ينقض رجل واحد منا العهد ، فلم يظفر عبد الله بن أبى بما كان يرجوه منهم ..

وقد وعد حلفاءه بنى قينقاع بمثل ما وعدكم حتى حاربوا ونقضوا العهد بينهم وبين محمد ثم حصروا أنفسهم فى صياصيهم ، وانتظروا من ابن أبى أن يساعدهم فجلس فى بيته ، ونزلوا فى النهاية على حكم محمد ؟

فاذا كان ابن أبى لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس فكيف ينصرنا نحن ، وقد كنا حلفاء الأوس نضرب قومه من الخزرج بسيوفنا أثناء حروبهم ؟

ذلك أن بنى النضير ظاهروا الأوس على الخزرج ـ قوم عبدالله بن أبى ..

قال ذلك سلام بن مشكم لزعيم بنى النضير حيى بن أخطب .. ولكن حيى بن أخطب جعل فى أذنيه وقرا ، ولم يستجب لنصحه ، وقال له : نأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله .

قال سلام : فهو والله جلاؤنا وإخراجنا من ديارنا وأرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا ، وسبى ذرارينا مع قتل مقاتلينا .

فما زاد ذلك حيي بن أخطب إلا إصرارا على موقفه ، وقال : لابد من قتال محمد ..

وقالت بنو النضير لسيدها حيي : أمرنا لأمرك تبع ، لن نخالفك .. وجاء رسولهم الى النبى - ﷺ - يخبره بأنهم لن يخرجوا من ديارهم .

بدء الحصار

وأصبح المسلمون - ذات يوم على أهبة الاستعداد لحصار بني النضير واستعمل النبى - ﷺ - عبدالله بن أم مكتوم على المدينة ، وجعل لواءه بيد على بن أبى طالب ، وسار بالناس حتى وصل إلى حصون بنى النضير وصلى العصر بفنائهم .

أما هم فقد دخلوا حصونهم ، وتحصنوا بها ، واخذوا يرمون المسلمين بالنبل والحجارة ..

وهناك رواية تقول : ان النبى - ﷺ - حين توجه اليهم وجدهم ينوحون على كعب بن الأشرف الذى قتله المسلمون قبل ذلك لخيانته وفجوره ، وقد علمنا أنه قد سار إلى مكة عقب انتصار المسلمين فى بدر معزيا ومواسيا ومعاهدا لهم على النصرة . قال القرطبى : خرج الى قريش فى أربعين راكبا من اليهود فحالفهم على النبى - ﷺ - عند الكعبة .

والبكاء وسيلة يستخدمها اليهود دائما عندما يريدون أن يظهرو بمظهر الضعيف ، وذلك ليستدروا شفقة الآخرين وعطفهم ، فاذا تمكنوا غدروا بمن عطف عليهم[199] ..

كما أنه يشير الى طبيعة اليهود ق الشعور بالكآبة واجترارها والعيش فيها وعدم محاولة التخلص منها ، وكأنهم يتلذذون بها .. إن البكاء جزء لا يتجزأ من حياتهم ، وكأن من الواجبات اليومية التى يقومون بها أن يخصص الفرد منهم جزءا من وقته للبكاء ، وهناك ق القدس حائط يطلق عليه حائط المبكى يقف حوله اليهود بالعشرات حتى يومنا هذا ق حالة نشيج وبكاء واعتصار للدموع .. وهذه محاورة أجراها أديب يهودى مشهور مع عميد ق الجيش الاسرائيلى جاء فيها :

- لقد كنت أول من صعد جبل البيت المقدس . أليس كذلك ؟

قال - نعم

قال - هل استولى عليك الانفعال ؟

قال - وماذا تعتقد ؟

قال - أعتقد أنك قد بكيت

قال - كلا ، لم أبك .

قال - ولماذا لم تبك ؟

قال - لست أعرف .. إننى لا أحب الدموع .

---

(١٩٩) انظر السيرة الحلبية جـ ٢ صـ ٥٦٢

قال ـ هل شعرت بالرغبة فى البكاء ؟

قال ـ طبعا مثل الآخرين ، ولكنى لم أبك[٢٠٠] .

إنهم يبكون حتى فى أوقات الانتصار .. وهذا دليل على تعقد هذه الشخصية التى ابتلى العرب بمجاورتها منذ القدم .

لقد ذهب النبى والمسلمون لحصارهم ، فوجدوهم يبكون على ابن الأشرف .

فهل البكاء على ابن الأشرف يفوق فى الاهتمام التفكير فى مستقبل الجماعة ؟

وعجب النبى ﷺ بلا شك من ذلك ـ وقال لهم : اخرجوا من المدينة .. كلمة قصيرة حازمة .. ولكنها أيقظتهم ..

فقالوا : الموت أهون من ذلك .. كانوا قد انخدعوا تماما بوعد عبدالله بن ابى ، واستكانوا تماما لأمر حيى بن أخطب .

وأحكم المسلمون الحصار حول حصونهم .

وجاء وقت العشاء فرجع النبى ـ ﷺ ـ إلى بيته فى عشرة من أصحابه عليه الدرع ، وهو راكب فرسه ، واستعمل على العسكر على بن أبى طالب وقيل : استعمل عليهم أبابكر .

وبات المسلمون حولهم فى حصارهم يكبرون حتى أصبحوا وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد عاد إليهم ....

---

(٢٠٠) الشخصية اليهودية والروح العدوانية صـ ١٣٦

وارتفع صوت بلال بالآذان .. وأقبل النبى ـ ﷺ ـ فصلى بالناس .

وأمر بلالا فضرب القبة ، إشارة الى الاقامة ، وإعلاما لهم بأن المسلمين مقيمون ، ولن يبرحوا حتى يستسلم اليهود ..

بدء المناوشة

وكان رجل من يهود اسمه « غزول » كان بارعا فى الرمى واصابة الهدف على الرغم من كونه أعسر . فرصد الخيمة التى أقيمت للنبى ـ ﷺ ـ ورماها بسهم فوصل اليها . فأمر النبى ـ ﷺ ـ بتحويلها فحولت الى مكان آخر .

وفى ليلة افتقد المسلمون على بن أبى طالب . وسألوا عنه . فقال النبى ﷺ : دعوه فانه فى بعض شأنكم .

ولم يلبث بعد قليل حتى جاء علىّ يحمل رأس « غزول » لقد كمن له علىّ حتى خرج هذا الأعسر يصيب غرة من المسلمين ومعه جماعة من يهود ، فشد على عليه فقتله ، وهرب من كان معه ، وحمل علىّ رأسه وعاد به .... وأرسل النبى ـ ﷺ ـ أبا دجانة وسهل بن حنيف فى عشرة من أصحابه ، فأدركوا أولئك القوم الذين كانوا مع « غزول » وقتلوهم ..

وشدد النبى ـ ﷺ ـ الحصار على بنى النضير وطال الحصار . فأقدم بعض جنود المسلمين على إتلاف بعض نخيل اليهود حتى يضطروهم الى الخروج من الحصون ، لأن أشد ما يغيظ اليهود هلاك أموالهم .

وأطل اليهود من حصونهم فوجدوا المسلمين يقطعون النخيل ، فصاحوا :

يا محمد ، ألست تزعم أنك نبى من عند الله تريد الصلاح ، أفمن الصلاح قطع النخل وحرق الشجر ، وهل وجدت فيما أنزل الله عليك إباحة الفساد فى الأرض ؟

وعلم النبى ـ ﷺ ـ بما حدث فأمر المسلمين بالكف عن ذلك .. وفى هذا نزل قول الله تعالى :

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥ ﴾ (٢٠١)

ومن العجيب أن يدعى اليهود أن فى قطع نخلة يغيظ بها المقاتل عدوه فسادا ، ثم لا يعتبرون محاولة قضائهم على الرسول ﷺ وائتمارهم به ومحاولة تشكيك المسلمين فى دينهم ومظاهرة أعدائهم عليهم والحيلولة دون نشر رسالة الهدى والنور والعدل فسادا ؟ أى منطق هذا ؟

لقد ثبت من حروب المسلمين كلها أن النبى ﷺ وخلفاءه من بعده ـ نهوا عن قطع النخيل والأشجار وإتلاف الزرع . ولكن هذه حالة خاصة بهؤلاء القوم المفسدين . لقد رأى بعض المسلمين أن وسيلة النَّيل منهم ودفعهم

---

(٢٠١) الحشر ٥

للخروج من حصونهم ، هى إيذاؤهم فى ثمارهم ، والمعروف عنهم الشح والبخل وتفضيل المال على الأنفس والأهل .

لذلك فعل بعض جنود المسلمين ما فعلوا ونزل القرآن الكريم نافيا الإثم عمن فعل هذا الفعل ..

وقد استدل العلماء بذلك على أن الحكم الشرعى فى إتلاف ثمر العدو منوط بالمصلحة العامة للمسلمين ، وبما يراه الامام أو القائد من تأثير ذلك على العدو ، وعلى تحقيق المصلحة العامة للمسلمين .

فالمسألة إذن من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية .

وقطع بعض نخيل هؤلاء كان لتحقيق المصلحة ، وتلمس السبيل اليها .

إن إباحة قطع شجر الكفار إذا اقتضت المصلحة ذلك هو مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد ومن قبلهم نافع مولى ابن عمر ، والثورى وغيرهم .

وان كان هناك من العلماء من لا يجيز ذلك[٢٠٢] . ويعتبرون أن ما حدث فى معركة بنى النضير كان أمرا خاصا لا يجوز القياس عليه .. لأن المسلمين فعلوا ذلك إغاظة لليهود فقط حتى يخرجوا من حصونهم ، ولم يفعلوه بقصد التخريب أو التدمير .. بدليل انهم لم يقطعوا سوى ست نخلات فقط وفى رواية أنهم قطعوا نخلة واحدة وأحرقوا أخرى .. وقد

---

(٢٠٢) فقه السيرة للبوطى صـ ٢٠٤

اغتاظ اليهود فعلا حتى قال شاعرهم سماك اليهودى فيما يرويه القرطبى :

ألسنا ورثنا الكتاب الحكيم ... على عهد موسى ولم نصدف

وأنتم رعاء لشاء عجاف ... بسهل تهامة والأخيف

ترون الرعاية مجدا لكم ... لدى كل دهر لكم مجحف

فيأيها الشاهدون انتهوا ... عن الظلم والمنطق المؤنف

لعل الليالى وصرف الدهور ... يدلن من العادل المنصف

بقتلى النضير واجلائها ... وعقر النخيل ولم تقطف

فان لا أمت نأتكم بالقنا ... وكل حسام معاً مرهف

بكف كمى به يحتمى ... متى يلق قرنا له يتلف

ورد عليه حسان بن ثابت بقوله :

تعاهد معشر نصروا قريشا ... وليس لهم ببلدتهم نصير

همو أوتوا الكتاب فضيعوه ... وهم عمى عن التوراة بور

كفرتم بالقران وقد أبيتم ... بتصديق الذى قال النذير

وهان على سراة بنى لؤى ... حريق بالبويرة مستطير

لقد كان الشعر من أسلحة الحرب قديما ، وكان له وقع قوى فى النفوس . . فالعرب أرباب . الفصاحة والبلاغة وهم خير من يقدرون قيمة الكلمة ويعرفون سلطان الحكمة ، وان من الشعر لحكمة . .

---

(٢٠٣) أى اليهود

والذى يدل على أن قطع بعض أشجار النخيل أخزى اليهود وأغاظهم ما حدث منهم حين رأوا ذلك ، فقد ذكر الرواة أنه لما قطعت العجوة شقت النساء الجيوب وضربن الخدود ،ودعون بالويل . وقد حدث ذلك فى مكان اسمه « البويرة » تصغير بورة . .

وعلى الرغم من شعور اليهود بالخذلان ، وأن الحصار قد أخذ يفت فى أعضادهم إلا أن عبدالله بن أبى سلول مازال يبعث إليهم سرا ـ أن اثبتوا وتمنعوا فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم ـ وقد أشار القرآن الكريم إلى موقفه هذا قائلا

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) ﴾ (٢٠٤)

لقد كان المنافقون أجبن من اليهود ، وحين عاينوا إصرار المسلمين على الحصار نكصوا على أعقابهم .

---

(٢٠٤) الحشر ١١ : ١٣

وانتظر اليهود من المنافقين أن يسارعوا إلى نجدتهم كما وعدوا ولكنه كان انتظارا بدون جدوى . .

وتيقن اليهود أن عبدالله قد خذلهم وتخلى عنهم . .

وجاء سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا لحيى بن أخطب زعيم بنى النضير يقولان له : أين نصر ابن أبى الذى زعمت ؟

فيقول حيى : وماذا أصنع ؟ هى ملحمة كتبت علينا .

ولزم رسول الله - ﷺ - حصارهم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، والرعب من الأسلحة التى اختص بها النبى - ﷺ - يقول فى ذلك : نُصرت بالرعب مسيرة شهر . . فكيف لا ينصر بالرعب مسيرة يوم أو أقل ؟

الاستسلام

ولم يجد اليهود بدا من الاستسلام . فسألوا رسول الله - ﷺ - أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة - السلاح -

فاحتملوا النساء والصبيان ، وحملوا من أموالهم غير السلاح ما استطاعت الإبل حمله ، وكانت ستمائة بعير . . كان الرجل منهم يهدم بيته ليأخذ ما استحسن من خشبه كالباب وغيره ، فيضعه على ظهر بعيره فينصرف به وهذا هو التخريب الذى عناه الله - سبحانه - فى قوله :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾ (٢٠٥)

موكب الخروج

وخرج اليهود من المدينة مظهرين التجلد ..

خرجت النساء على الهوادج وعليهن الديباج والحرير ، والخز الأحمر والأخضر ، وحلى الذهب والفضة ، وخلفهن القيان بالدفوف والمزامير ، وكانت بين النساء سلمى صاحبة عروة بن الورد الذى قيل فيه : من قال إن حاتما أسمح العرب فقد ظلم عروة بن الورد .

وكان عروة قد أغار على قومها بنى النضير فسباها ، ثم اتخذها حليلة فجاءت منه بأولاد .

---

(٢٠٥) الحشر ٢ : ٤

ثم إن بعض بنى النضير اشتراها من عروة بعد أن سقاه الخمر .. فلما أفاق ندم وحاول أن يستردها ، واستطاع أن يتوصل إلى اتفاق مع الذى اشتراها على أن تخير بينهما ، وظن أنها لا تختار عليه أحدا .. فخيرها فاختارت من اشتراها ..

وحين فارقته قالت له : والله ما أعلم أن امرأة أرخت سترا على بعل أغض طرفا ولا أندى كفا ، ولا أغنى غناء مثلك ، وإنك لرفيع العماد ، كثير الرماد ، خفيف على ظهور الخيل ثقيل على متون الأعداء ، وأحنى على الأهل والجار ، وما كنت لأوثر عليك أهلى لولا أنى كنت أسمع بنات عمك يقلن : قالت أم عروة وفعلت أم عروة ، فأجد من ذلك الموت والغيرة ، والله لا يجامع وجهى وجه أحد من أهلك فاستوص ببنيك خيرا . ثم تزوجت فى بنى النضير بعد ذلك .

وهذا لون من غدر اليهوديات أيضا ، فقد نسيت وفاء من وصفته بالوفاء ، وتركت أولادها ، غيرة من أمه ..

من عروة بن الورد ؟

وعروة بن الورد هذا من شعراء العرب المعدودين فى الجاهلية ، وهو من الشعراء الصعاليك ، ينتمى الى قبيلة عبس ، وكان يسمى أبا الصعاليك وسماه معاوية فيها بعد باسم : مانع الضيم ،

وعرف عنه أنه إذا ما غزا فأصاب قسم الغنيمة بين جماعته بالتساوى ونال مثل حصة الفرد منهم ، بالرغم من أنه زعيم وقائد أريب قادر على ضبط

تبعية أفراده له ، وله شعر جيد منه قوله :

أقلى على اللوم يابنت منذر ونامى وإن لم تشتهى النوم فاسهرى
ذرينى أم حسان[٢٠٦] إننى بها قبل ألا أملك البيع مشترى
أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة فوق صير[٢٠٧]
ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى أخليك أو أغنيك عن سوء محضرى[٢٠٨]

إلى أين ذهب يهود بنى النضير ؟

سار الموكب اليهودى مخترقا شوارع المدينة ، وإن قلوب من فيه لتتمزق أسى ولكن وجوههم تتصنع الضحك والسرور والابتهاج .

هو درس تلقوه عن إخوانهم المنافقين أو إخوانهم المنافقون تلقوه منهم

وكان سلام بن أبى الحقيق وهو من ألداء اليهود قد رفع جلد ثور وهو مملوء بالحلى على ظهر جمل ، وهو ينادى بأعلى صوته : هذا ما أعددناه لرفع الأرض وخفضها[٢٠٩] ، وإن كنا قدر تركنا نخلا ففى خيبر النخل . .

إنه يتغنى بالمال ، ويذكر أن جمع المال هو أهم ما يشغل بال اليهود ، وسياستهم منذ القدم تقوم على السيطرة على اقتصاد البلاد التى يعيشون فيها . وإذا كان المال فى يدهم تحكموا به فى رقاب العباد ، ومن أجل ذلك قال ابن أبى الحقيق كلمته تلك : هذا ما أعددناه لرفع الأرض وخفضها . .

---

(٢٠٦) أم حسان كنية زوجته سلمى

(٢٠٧) الصير : القبر

(٢٠٨) موسوعة الشعر العربى صـ ١٥٨ ـ لمطاوع صفدى وآخرين

(٢٠٩) يقصد أنهم بالمال يستطيعون فعل كل شىء .

وزلزل زلزال المنافقين بجلاء اليهود عن المدينة ، وحزنوا حزنا شديدا ولكنهم لم يستطيعوا أن يتحدثوا ببنت شفة .

وكانت وجهة بعض هؤلاء خيبر كما رأينا من كلمة ابن أبي الحقيق . كما كانت وجهة بعضهم أذرعات فى الشام . وهى التى وردت الاشارة إليها فى الآية بقوله تعالى « أول الحشر »

فقد ورد أن الشام هى أرض المحشر . قال ابن عباس وعكرمة : من شك فى أن المحشر فى الشام فليقرأ هذه الآية :

« **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر** . . . » . . وقد قال النبى ـ ﷺ ـ لهم : اخرجوا ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى أرض المحشر . .

هل أسلم منهم أحد ؟

ولم يسلم من بنى النضير إلا رجلان هما : يامين بن عمير ، وأبو سعد بن وهب . فقد قال أحدهما لصاحبه : والله إنك لتعلم أنه رسول الله فما ننتظر ؟ هيا نسلم فنأمن على دمائنا وأموالنا .

فنزلا من الليل وأسلما . فنجوا . .

وقيل : إن أبا سعد بن وهب ليس من بنى النضير وإنما من بنى قريظة ، وأسلم يوم قريظة ، الذى سيأتى ذكره . وقد روى أن يامين هذا جعل لرجل من قيس ـ جعلا قدره عشرة دنانير ، وقيل : خمسة أوسق من تمر ، إن هو قتل عمرو بن جحاش الذى أراد أن يلقى الحجر على النبى ـ ﷺ ـ

واستطاع القيس أن يجد غفلة من ابن جحاش فقتله .

وفى يامين هذا وغيره ممن أسلم من أهل الكتاب نزل قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ (٢١٠)

قال ابن الأثير : جاء مؤمنو أهل الكتاب فقالوا : يارسول الله نؤمن بك وبموسى والتوراة وعزير ونكفر بما سوى ذلك .

فقال لهم رسول الله ـ ﷺ ـ : آمنوا بالله ورسوله محمد وبكتابه القرآن وبكل كتاب ورسول كان قبل .

فقالوا : نفعل يارسول الله . فأسلموا . (٢١١)

ونزلت الآية المتقدمة .

وقد أنزل الله سورة الحشر بأسرها فى غزوة بنى النضير . . وفيها تصوير لحالة اليهود وقتالهم أتم تصوير . .

● وقد بدأت السورة بتسبيح الله وتنزيهه . .

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ ﴾ (٢١٢)

---

(٢١٠) النساء ١٣٦

(٢١١) أسد الغابة جـ ٥ صـ ٤٦٨

(٢١٢) سورة الحشر ١

● ثم تحدثت عن مظهر من مظاهر قدرة الله - تعالى - فى إجلائه بنى النضير من المدينة بدون قتال ، بعد أن قذف فى قلوبهم الرعب ، لأنهم شاقوا الله ورسوله . .

وتحدثت عن الفىء الذى أفاءه الله على النبى - ﷺ - فى هذه الغزوة التى لم يقاتل فيها المسلمون ، ولم يرموا بسهم . . . . . إن هذا الفىء هو غنيمة خالصة للرسول - ﷺ - ينفق منها على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . .

﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ (٢١٣)

مثل من إيثار الأنصار

● وفى هذه الغزوة ظهر إيثار الأنصار واضحا ، فحين جمعت الغنائم قال النبى - ﷺ - للأنصار بعد أن شكرهم على صنيعهم مع المهاجرين - وكان

---

(٢١٣) الحشر ٦ ، ٧

المهاجرون فى دور الأنصار ـ : « إن أحببتم قسمت ما أفاء الله عَلَيَّ من بنى النضير بينكم وبينهم ، وكان المهاجرون على ماهم عليه من السكنى فى مساكنكم ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم .

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ : بل تقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا . ونادت الأنصار : رضينا وسلمنا يارسول الله فقال النبى ـ ﷺ ـ « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار » . . . . وأعطى رسول الله ـ ﷺ ـ المهاجرين ولم يعط من الأنصار أحدا إلا ثلاثة هم : أبو دجانة سماك بن خرشة ، وسهيل بن حنيف ، والحارث بن الصمة ـ لما كانوا فيه من عوز شديد وفقر واضح .

وبذلك ضرب الأنصار المثل الأعلى فى الإيثار الذى ذكرهم الله به وأثنى عليهم كما أثنى على المهاجرين ، ومن جاء بعد هؤلاء وهؤلاء من التابعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين قال تعالى :

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا

ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ (٢١٤)

لقد صورت هذه الآيات الثلاث كيف يكون المجتمع المثالى السليم ، الذى يقوم على المحبة والايثار والاحترام المتبادل والتعاون الكامل .

قال ابن أبي ليلى : الناس على ثلاث منازل ..... المهاجرون ، والذين تبوءوا الدار والايمان ، والذين جاءوا من بعدهم .. فاجهد ألا تخرج من هذه المنازل ..

وقال بعضهم : كن شمساً ، فإن لم تستطع فكن قمرا ، فإن لم تستطع فكن كوكبا مضيئا .... ومعنى هذا كن مهاجريا ، فان لم تستطع فكن أنصاريا ، فان لم تكن فاعمل كأعمالهم ، فإن لم تستطع فأحبهم واستغفر لهم كما أمرك الله ..

وروى مصعب بن سعد قال : الناس على ثلاث منازل ، مضت منزلتان وبقيت منزلة .. فأحسن ما أنتم عليه أن تكونوا بهذه المنزلة التى بقيت .

إن هذه الآيات تعلمنا أن نحب السابقين ، ونحترم االأئمة الماضين ، ندعو لهم ونترحم عليهم ، ونذكر أعمالهم بكل خير وحب وإجلال ، ولا نتتبع زلة أحدهم ، ونضعها أمام المجهر لتبدو كبيرة شنيعة ..

---

(٢١٤) الحشر ٨ : ١٠

● ثم تحدثت السورة عن موقف المنافقين من اليهود ، وقد أشرنا إلى ذلك .

● كما تحدثت عن جبن اليهود وخوفهم وأنهم لايقاتلون إلا من وراء الحصون :

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) ﴾ (١)

لقد صورت هذه الآيات تنافر قلوب المنافقين واليهود ، وتخلى المنافقين عن اليهود بعد أن منوهم الأمانى ، وأغروهم بالإصرار على مجابهة النبى والمسلمين . .

وفى هذه الآية إشارة أيضا إلى التفكك القائم بينهم والاختلاف الشديد بين طوائفهم ، ولكن الذى يوحد صفوفهم هو الوقوف ضد الاسلام .

---

(٢١٥) الحشر ١٤ : ١٧

فأعداء الإسلام على مختلف العصور مختلفون فى المذاهب والاتجاهات والسياسات ، ولكنهم إذا واجهوا الاسلام وقفوا أمامه صفا واحدا ، هم مختلفون فيما عدا كيدهم للاسلام فهم متفقون .. ولعل المسلمين يتنبهون إلى ذلك فيصلحون ذات بينهم ويوحدون كلمتهم ليتمكنوا من مواجهة أعدائهم ..

● وقد أشارت الآيات أيضا إلى تشابه موقف بنى النضير مع موقف بنى قينقاع . فى الكيد والعاقبة . فكلتا الطائفتين وقفت موقف الغدر والخيانة للعهد فلقيت الجزاء الذى يستحقه الغادر اللئيم ..

مثل الشيطان الذى قال للانسان اكفر

وقد ضرب الله مثلا للمنافقين فى موقفهم من اليهود، بموقف الشيطان من صاحبه الذى يغويه فيرديه ثم يتخلى عنه .

وقد ذكر القرطبى فى ذلك قصة طريفة رواها بعض الرواة .. فحواها أن راهبا ذهبت إليه امرأة أصابها لمم ، ليدعو لها ، فزين له الشيطان أن يطأها ، فوطئها ، فحملت ، فلما عرف ذلك قتلها خوفا من أن يفتضح أمره .. فعلم قومها بذلك ، فجاءوا إلى الراهب واستنزلوه من صومعته ليقتلوه ، فجاءه الشيطان ووعده إن سجد له أنجاه منهم ، فسجد الراهب له ، فتبرأ منه الشيطان بعد ذلك وأسلمه ..

وقد وردت هذه القصة بروايتين فحواها واحد ولفظهما مختلف ، أحداهما نسبت لابن عباس ، والأخرى لوهب بن منبه .

ولا بأس من ذكر الروايتين لما فيهما من العظة والعبرة .

رواية ابن عباس

ذكر أن راهبا فى الفترة الأولى كان اسمه برصيصا ، قد تعبد فى صومعته سبعين سنة ، لم يعص الله فيها طرفة عين ، حتى أعيا إبليس ، فجمع إبليس مردة الشياطين فقال : ألا أجد منكم من يكفينى أمر برصيصا ؟

فقال أحد الشياطين : أنا أكفيك أمره .

فانطلق فتزيا بزى الرهبان ، وحلق وسط رأسه ، حتى أتى صومعة برصيصا فناداه فلم يجبه ، وكان لاينفتل من صلاته إلا لضرورة ، وكان دائم الصوم ، وربما وصل بين اليومين والثلاثة فى صومه .

فلما رأى الشيطان أنه لايجيبه أقبل على العبادة فى أصل صومعته وانفتل برصيصا من صلاته فرأى رجلا فى هيئته حسنة من هيئة الرهبان قائما يصلى فندم حين لم يجبه . .

فقال له : ما حاجتك ؟

قال : أن أكون معك . أتأدب بأدبك ، وأقتبس من عملك ، ونجتمع على العبادة .

فقال برصيصا : إنى فى شغل عنك
ثم أقبل على صلاته ، وأقبل الشيطان على صلاته أيضا
فلما رأى برصيصا شدة اجتهاده وعبادته قال له : ما حاجتك ؟
قال : أن تأذن لى فأرتفع إليك .

فأذن له ، فأقام ذلك الشيطان الذى تصور بصورة راهب ـ حولا معه . . يظهر العبادة ، ويكثر من الصيام ، ولا ينفتل من صلاته إلا لضرورة ، واجتهد فى ذلك حتى فاق الراهب فى عبادته وصيامه

ورأى برصيصا اجتهاده فتقاصرت إليه نفسه ، فأخذ يتقرب إليه ويطمئن له ، فلما وجد الشيطان أنه قد وثق فيه واطمأن إليه قال له : عندى دعوات يشفى بها السقيم والمبتلى والمجنون
ألا أعلمك إياها ؟

فقال برصيصا : بلى ـ فعلمه إياها .
ثم جاء الشيطان إلى إبليس فقال له : قد والله أهلكت الرجل .
ثم تعرض الشيطان لرجل فمسه ، ثم قال لأهله ـ وقد تصور فى صورة الآدميين ـ : إن بصاحبكم جنونا أفأشفيه ؟

قالوا : نعم ـ ومكث معه مدة من الزمن فى علاجه ـ ثم قال لهم : لا أقوى على علاجه ، ولكن اذهبوا إلى برصيصا ، فإن عنده اسم الله الأعظم الذى إذا سُئل به أعطى ، وإذا دعى به أجاب

فجاءوا به الى برصيصا ، فدعا بتلك الدعوات ، فذهب عنه الشيطان .

ثم جعل الشيطان يفعل بالناس ذلك ويرشدهم إلى برصيصا ، فيدعو لهم بالشفاء فيشفون . .

ثم انطلق إلى جارية من بنات الملوك بين ثلاثة إخوة ، وكان أبوهم ملكا فمات واستخلف أخاه ، . . فمسها الشيطان وأصابها بالصرع ثم جاء إلى الإخوة فى صورة طبيب ليعالجها ، فقال لهم : إن شيطانها مارد لايطاق ، ولكن اذهبوا بها إلى برصيصا ، فدعوها عنده ، فإذا جاء شيطانها دعا لها فبرئت .

فقالوا : لايجيبنا إلى هذا .

فقال : فابنوا لها صومعة فى جانب صومعته ثم ضعوها فيها ، وقولوا له هى أمانة عندك فاحتسب فيها .

فبنوا صومعة ووضعوا فيها الجارية . فلما انفتل من صلاته عاين الجارية وما بها من الجمال فأسقط فى يده . . فدعا لها فشفيت ، فجاءها الشيطان ومسها . . فانفتل برصيصا من صلاته ، ودعا لها فذهب عنها الشيطان .

ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فمسها ، فانفتل برصيصا من صلاته ودعا لها ، فذهب عنها الشيطان .

ثم أقبل على صلاته فجاءها الشيطان فمسها وكان يكشف عنها ويتعرض بها لبرصيصا .

ثم جاءه الشيطان فقال له : ويحك ، واقعها ، فما تجد مثلها ، ثم تتوب بعد ذلك .

فلم يزل به حتى واقعها ، فحملت . .

فقال له الشيطان : ويحك ، لقد افتضحت ، فهل لك أن تقتلها ثم تتوب فلا تفتضح ؟ فإن جاءوك وسألوك عنها فقل : جاءها شيطانها فذهب بها . .

فقتلها برصيصا ودفنها ليلا ـ فأخذ الشيطان طرف ثوبها حتى بقى خارجا من التراب . ورجع برصيصا الى صلاته . .

ثم جاء الشيطان إلى إخوتها فى المنام فقال لهم : إن برصيصا فعل بأختكم كذا ، وقتلها ودفنها فى جبل كذا .

فاستعظموا ذلك وذهبوا إلى برصيصا ، وقالوا له : ما فعلت أختنا ؟
فقال : ذهب بها شيطانها . فصدقوه وانصرفوا .

فجاءهم الشيطان فى المنام وقال لهم : إنها مدفونة فى موضع كذا ، وإن طرف ردائها خارج من التراب .

فانطلقوا فوجدوها . . فهدموا صومعته ، وأنزلوه ، وحملوه إلى الملك ، فأقر على نفسه فأمر بقتله .

فلما صلب جاءه الشيطان وقال له : أتعرفنى ؟

قال برصيصا : لا ، والله .

قال : أنا صاحبك الذى علمتك الدعوات ، أما اتقيت الله ؟ أما استحييت وأنت أعبد بنى اسرائيل ؟ ثم لم يكفك صنيعك حتى فضحت نفسك وأقررت عليها وفضحت أشباهك من الناس ؟

فإن مت على هذه الحالة لم يفلح أحد من نظرائك بعدك .

فقال برصيصا : كيف أصنع ؟

قال الشيطان : تطيعنى فى خصلة واحدة ، وأنجيك منهم وآخذ بأعينهم .

قال : وماذاك ؟

قال : تسجد لى سجدة واحدة .

فقال : أنا أفعل ، فسجد له من دون الله .

قال الشيطان : يابرصيصا ، هذا ماأردت منك ، كان عاقبة أمرك أن كفرت بربك ، انى برىء منك .. إنى أخاف الله رب العالمين ..

رواية وهب

أما رواية وهب بن منبه فتقول إن عابدا من بنى اسرائيل ، كان أعبد أهل زمانه ، وكان فى زمنه ثلاثة إخوة لهم أخت ، وكانت بكرا وليس لهم أخت غيرها .

فخرج ثلاثتهم للغزو فلم يدروا عند من يخلفون أختهم . ولاعند من يأمنون عليها ، ولاعند من يضعونها .

فاجتمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بنى إسرائيل وكان ثقة فى أنفسهم .

فأتوه فسألوه أن يخلفوها عنده ، فتكون فى كنفه وجواره ، الى أن يقفلوا - أى يرجعوا - من غزاتهم .

فأبى ذلك عليهم ، وتعوذ بالله منهم ومن أختهم .

فلم يزالوا به حتى أطاعهم ، فقال : أنزلوها فى بيت بجوار صومعتى . فأنزلوها فى ذلك البيت ، ثم انطلقوا وتركوها ، فمكثت فى جوار العابد زمانا ينزل اليها الطعام من صومعته فيضعه عند باب الصومعة ، ثم يغلق بابه ويصعد فى صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ماوضع لها من الطعام .

فتلطف له الشيطان فلم يزل يرغبه فى الخير ، ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارا ، ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها ، فلبث بذلك زمانا . . ثم جاءه إبليس ، وقال له : لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى تضعه فى بيتها كان أعظم لأجرك . فلم يزل به حتى مشى اليها بطعامها فوضعه فى بيتها . .

فلبث بذلك أياما ، ثم جاءه إبليس فرغبه فى الحديث اليها وقال له : لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك ، فإنها قد استوحشت وحشة

شديدة . لوجودها بمفردها ، فلم يزل به حتى حدثها زمانا ، يطلع عليها من فوق صومعته . .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال له : لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها ، وتقعد هى على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها . فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه على باب صومعته يحدثها ، وتخرج الجارية من بيتها فتحدثه ، فلبثا أياما يتحدثان .

ثم جاءه إبليس فرغبه فى القرب منها ، وقال له : لو خرجت من باب صومعتك فجلست قريبا من باب بيتها كان آنس لها ، فلم يزل به حتى فعل . فلبثا أياما كذلك .

ثم جاءه إبليس وأخذ يوسوس له ، ويرغبه فى الاقتراب منها أكثر ، موهما إياه أن ذلك من باب الخير ، وقال له : لو دنوت من باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ، ففعل ، فكان ينزل من صومعته فيقعد على باب بيتها فيحدثها فلبثا أياما . .

ثم جاءه إبليس فقال له : لو دخلت البيت معها تحدثها ولم تتركها تبرز وجهها حتى لايراها أحد كان أحسن بك ، فمازال به حتى دخل البيت فجعل يحدثها نهاره كله ، فإذا أمسى صعد الى صومعته .

ثم أتاه إبليس بعد ذلك ، فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبلها ، فلم يزل به إبليس يحسنها فى عينه ويسول له حتى وقع

عليها فحملت . ثم ولدت له غلاما .

فجاءه إبليس ، فقال له : أرأيت إن جاء إخوة هذه الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع ؟ لاآمن عليك أن تفتضح أو يفضحوك .

فاعمد إلى ابنها فاقتله وادفنه ، فإنها ستكتم عليك مخافة إخوتها ان يطلعوا على ماصنعت بها ففعل .

ثم أتاه بعد أن قتل الطفل فقال له : أتراها تكتم إخوتها ماصنعت بها ، وقد قتلت ابنها ! خذها واذبحها وادفنها مع ابنها . فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها فى الحفيرة مع ابنها . وأطبق عليها صخرة عظيمة ، وسوى عليها التراب .

وصعد فى صومعته يتعبد فيها .

فمكث بذلك ماشاء الله أن يمكث ، حتى قفل إخوتها من الغزو ، فجاءوه فسألوه عنها ، فنعاها لهم وترحم عليها ، وبكى لهم وقال : كانت خير فتاة وهذا قبرها ، فانظروا اليه .

فأتى إخوتها القبر فبكوا على قبرها ، وترحموا عليها ، وأقاموا على قبرها أياما ، ثم انصرفوا . . .

فلما جن عليهم الليل ، وأخذوا مضاجعهم أتاهم الشيطان فى صورة رجل مسافر فبدأ بأكبرهم ، فسأل عن أختهم ، فأخبره بقول العابد وموتها وترحمه عليها ، وكيف أراهم موضع قبرها . . فكذبه ذلك الرجل ، وقال :

لم يصدقكم أمر أختكم ، إنه قد واقع أختكم وولدت منه غلاما ، فذبحه وذبحها معه فزعا منكم ، وألقاها فى حفيرة احتفرها خلف الباب الذى كانت فيه عن يمين الداخل ، فانطلقوا فادخلوا البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله ، فإنكم ستجدونها هنالك ، قد دفنت مع ابنها .

وأتى الأوسط فى منامه ، وقال له مثل ذلك ، ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك .

فلما استيقظ الاخوة استيقظوا متعجبين لما رأى كل واحد منهم ، فأقبل بعضهم على بعض . يقول كل واحد منهم : لقد رأيت عجبا

فأخبر كل واحد منهم بما رأى .

فقال أكبرهم : هذا حلم ليس بشىء ، فامضوا بنا لعملنا ودعوا هذا ، فقال أصغرهم : لاأمضى حتى آتى المكان فأنظر فيه . .

فانطلقوا جميعا حتى دخلوا البيت الذى كانت فيهم أختهم ، ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وصف لهم فى منامهم ، فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفيرة كما قيل لهم .

فسألوا العابد ، فصدق قول إبليس فيما صنع بها ، فاسْتَعْدوا عليه ملكهم ، فأنزله من صومعته ، وقدمه ليصلب .

فلما أوقفوه على الخشبة أتاه الشيطان فقال له : قد علمت أنى صاحبك الذى فتنتك فى المرأة حتى أحبلتها وذبحت ابنها وذبحتها فإن أنت أطعتنى

اليوم وسجدت لى خلصتك مما أنت فيه . .

واستجاب العابد للشيطان فسجد له فكفر بالله .

فلما كفر خلى الشيطان بينه وبين الناس فصلبوه . . ففى مثل هذا نزل قوله ـ تعالى ـ

« كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين »

قال ابن عباس : فضرب الله هذا مثلا للمنافقين مع اليهود ، وذلك أن الله أمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يجلى بنى النضير عن المدينة ، فدس إليهم المنافقون ألا تخرجوا من دياركم وان قاتلوكم كنا معكم وإن أخرجوكم كنا معكم ، فحاربوا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فخذلهم المنافقون وتبرءوا منهم كما تبرأ الشيطان من برصيصا العابد . .

ولم تنته جولة الصراع مع اليهود بجلاء بنى النضير عن المدينة ، فمازالت فى فى جعبتهم بقية وبقية .

ولم ينته تحالف المنافقين معهم عند هذا الحد ، بل استمر التحالف بينهم على الرغم من ثبوت عدم جدواه . . واليهود الذين يضرب بهم المثل فى شدة الحذر والمكر لم يستوعبوا درس المنافقين جيدا . فمازالت علاقتهم وثيقة

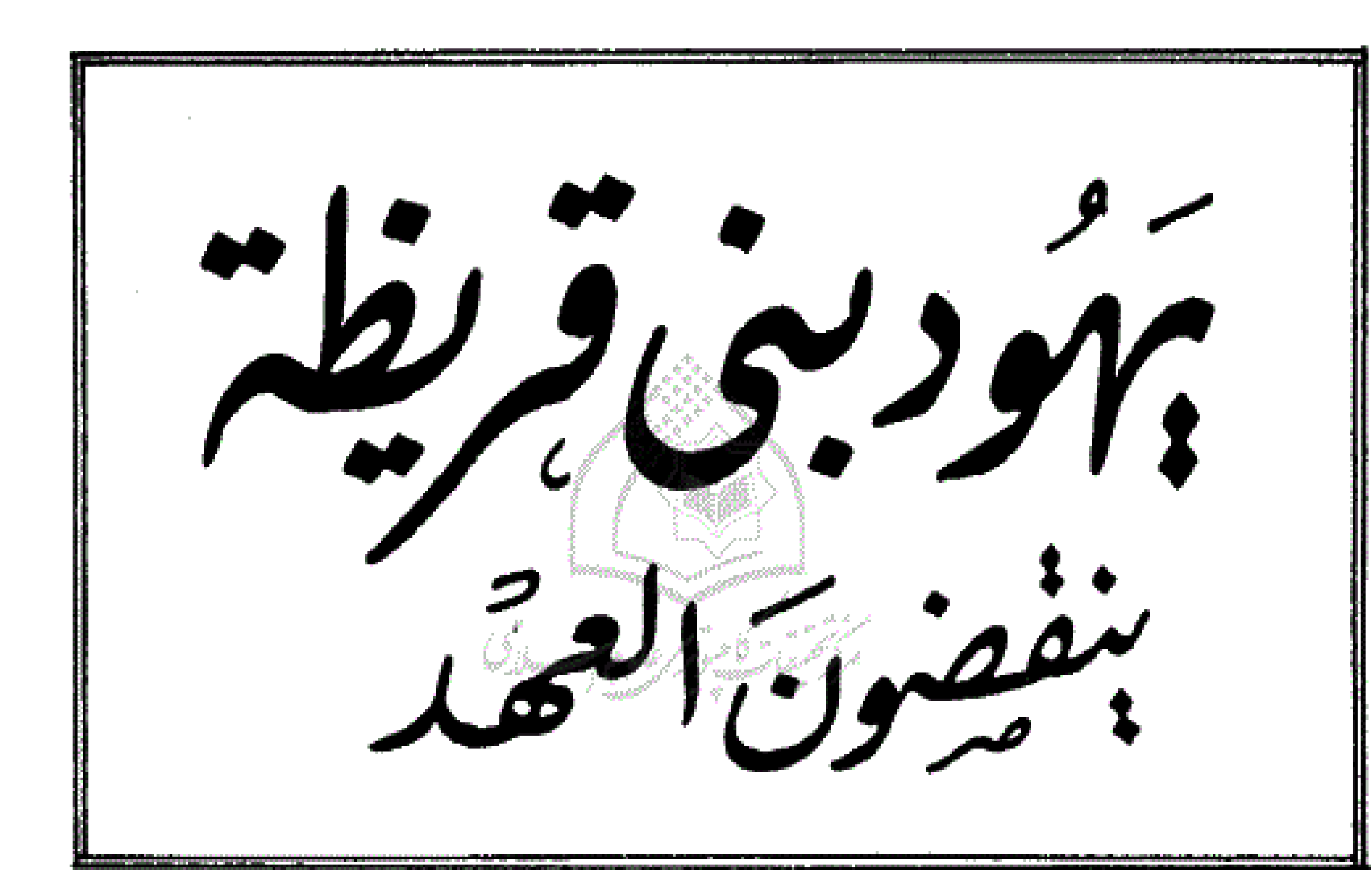
محكمة بالمنافقين،وربما كانت نظرية « الاستفادة ماأمكن » هى المسيطرة على الطرفين . . أو ربما كانت عقدة الكراهة للاسلام هى التى تجمع بين الاثنين وهذا هو الظاهر والواضح .

وتدور الأيام ، وتظهر حلقة جديدة من التآمر اليهودى الخبيص . وينقض بنو قريظة العهد الذى أبرموه مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى أشد المواقف حرجا بالمسلمين . .

ولنتحدث عن قصة بنى قريظة الآن لنستكمل بذلك الحديث عن طوائف اليهود الثلاث التى كانت تقيم بالمدينة وحولها . .






يهود بني قريظة
ينقضون العهد


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

غزوة بني قريظة

- كيف نقض بنو قريظة العهد ؟
- قصة أصحاب الرجيع .
- انضمام بني قريظة للعدو .
- قصة نعيم بن مسعود .
- النبي يتوجه مع المسلمين إلى بني قريظة .
- علي بن أبي طالب يحمل الراية .
- معنى قول النبي - صلى الله عليه وسلم - " لا يصلين أحد إلا في بني قريظة "
- الحصار .
- بداية الوهن .
- حكم سعد بن معاذ على بني قريظة .
- دلائل وعبر .



غـــــزوة بنى قريظة

بنو قريظة قوم من اليهود منسوبون الى قريظة ـ بضم القاف وفتح الراء وسكون الياء ـ وهو اسم رجل نزل أولاده قلعة حصينة قرب المدينة فنسبت إليهم ، وقريظة والنضير أخوان . . قيل : هما من ولد هارون ـ عليه السلام ـ وذكر بعضهم أن بنى قريظة كانوا يزعمون أنهم من ولد شعيب نبى الله ـ عليه السلام ولانستطيع أن نؤكد ذلك . .

وقد عاهد بنو قريظة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكونوا معه وأن لا يمالئوا عليه عدوا ؟ ؟ ولكنهم نقضوا هذا العهد ، وحدث منهم ماكان يمكن أن يترتب عليه أوخم العواقب وأسوأ النتائج بالنسبة للاسلام والمسلمين ، لولا حفظ الله لدينه . . أما قصة ذلك فتتصل اتصالا وثيقا بغزوة الأحزاب ـ التى سنتحدث عنها فيما بعد ان شاء الله ـ والتى جمع الكفار فيها جموعهم من كل مكان بتحريض من اليهود وأحاطوا بالمدينة من كل جانب ، عازمين على استئصال شأفة الاسلام والمسلمين . لولا أن هزمهم الله بجنود من عنده وسلط عليهم ريحا صرصرا عاتية . . كما سنرى فيما بعد ان شاء الله .

وأثناء حصار الأحزاب للمدينة ـ وفى هذا الوقت العصيب الذى بلغت فيه القلوب الحناجر وظن المؤمنون بالله الظنون ـ نقض يهود بنى قريظة عهدهم وانضموا الى المشركين فوجهوا بذلك طعنة للمسلمين فى ظهورهم

لولا أن الله سلم ـ لكانت قاضية . . .

كيف نقض بنو قريظة العهد ؟

قال ابن هشام فى سيرته : خرج عدو الله حيى بن أخطب ـ زعيم بنى النضير ـ حتى أتى كعب بن أسد ـ زعيم بنى قريظة ـ وصاحب عقدهم عهدهم ، وكان كعب قد وادع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قومه ، وعاقده على ذلك عاهده . .

وطرق حيى بن أخطب باب الحصن على كعب بن أسد ، فلما علم كعب أن حُيَيّاً أغلق دونه باب حصنه ، استأذن عليه ، فأبى أن يفتح له ، فناداه حيى : ويحك ياكعب ، افتح لى .

فقال كعب : ويحك ياحيى ، أنك امرؤ مشئوم ، وإنى قد عاهدت محمداًفلست بناقض مابينى وبينه ، ولم أر منه الاِ وفاء وصدقا . . .

لقد أحس كعب بأن أمرا خطيرا هو الذى دفع حييا الى المجىء ، وأدرك أنه ماأتى اليه إلا ليحرضه على نقض العهد الذى أبرم بينه وبين محمد . . وعرف خطورة ذلك ومايترتب عليه . . وقد جرب شؤم حيى قبل ذلك ، وكان يعرف مدى مايكنه للنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ من حقد وضغينة على الرغم من معرفته معرفة اليقين أنه نبى . .

فلماذا يورط كعب بن أسد نفسه وقومه فى مغامرة . . لاتعرف نتائجها بسماع ماسوف يقوله له حيى بن أخطب ؟

إنه لايريد أن يسمع شيئا لأنه لو سمع منه فربما يلين لى ، ولو لان لنقض العهد ، ولو نقض العهد لعرض نفسه وقومه لحرب المسلمين . . وقد يؤدى ذلك الى ضياعه وضياع قومه ، لقد عرف أن حيى بن أخطب داهية ، وله لسان ذرب ومنطق مؤثر فمتى ماتمكن من سمعه فلن يستطيع مقاومته ، فالأجدى إذن ألا يسمع منه شيئا وألا يلقاه . فأصر كعب على ألا يفتح له الباب وألا يستقبله .

ولكن حييا ألح فى لقائه ، وقال له : ويحك افتح لى أكلمك ، وماأنا بمنصرف حتى أكلمك . .

قال كعب : ماأنا بفاعل .

فقال له حيى : والله ماأغلقت بابك دونى ألا تخوفا منك على جشيشتك ـ الجشيشة لون من الطعام ـ أن آكل معك منها . .

فأحفظت هذه الكلمة كعبا وأثارت غيظه فقام وفتح الباب وهو كاره .

وكان أول ماقال حيى لكعب : ويحك ياكعب . . جئتك بعز الدهر ، وببحر طام ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها . وقد تحالفوا مع أكثر قبائل العرب وعاهدوا أنفسهم وعاهدونى على ألا يبرحوا حتى يستأصلوا محمدا ومن معه .

فقال له كعب : بل جئتنى والله بذل الدهر ، وبجهام قد هراق ماءه ، ويرعد ويبرق ليس فى شيء . . ويحك ياحيى،دعنى ومأانا عليه فإنى لم أر من محمد الا صدقا ووفاء . .

ولكن الحقد الدفين الذى يتنزى به قلب حيى أبى أن يستكين . . ألم يقل لأخيه ذات يوم وقد رجعا من عند النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين جاء الى المدينة أول ماجاء وتبين لهما أنه النبى المبعوث آخر الزمن : سأبقى له عدوا ماحييت .

ان رجلا يضمر ذلك العداء كله للحق لايمكن أن يرجع من عند كعب فاشلا فى مهمته ، وماله لايجرب مع كعب كل الخدع والحيل التى تمتلىء بها جعبته !

ومازال على حد تعبير ابن هشام يفتل له فى الذروة والغارب(٢١٦) حتى لان له . وقبل ماأشار عليه به ونقض عهده مع النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونفض يده مما كان قد أبرمه معه . . وأعطاه حيى عهدا على أنه إن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا فانه سيدخل معه فى حصنه يصيبه مايصيبه

النبى يستوثق من خبر نقض العهد :

ونما الى علم النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن بنى قريظة نقضوا عهدهم معه ، وظاهروا الأحزاب فى موقفهم ضده . فأراد أن يستوثق من ذلك ،

---

(٢١٦) يفتل فى الذروة والغارب : مثل يضرب ، وأصله االبعير يستصعب عليك فتأخذ القراد من ذروته وغارب سنامه ، فيجد لذة فيأنس عند ذلك ، فضرب الله مثلا فى المراوضة ، ومحاولة إقناع شخص بما تريده .

فأمر سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وعبد الله بن رواحة بالذهاب الى بنى قريظة ومعرفة خبرهم ، قال لهم : انطلقوا لتنظروا أحق مابلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان حقا فالحنوا الىّ لحنا أعرفه . ولاتقولوا للناس حتى لاتفتوا فى أعضادهم . وان كانوا على الوفاء فيما بيننا فأجهروا به للناس .

ومعنى الحنوا[٢١٧] أى أخبرونى عن طريق الكناية .

وخرج هؤلاء القوم الى بنى قريظة وجاءوهم فى حصونهم فوجدوهم على أخبث مابلغ النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنهم ، فقد قالوا لهم : من رسول الله ؟ على وجه الانكـار لرسالته ، وتكلموا فيه بما لايليق وتبرءوا من عقده وعهده ، وقالوا : لاعهد بيننا وبينه ولاعقد .

فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه وكان رجلا فيه حدة ، فكفه سعد بن عبادة . وعاد الوفد الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قائلين له : يارسول الله ، عضل والقارة .

لم يقولوا : غدروا ، ولكنهم كنوا عن ذلك بما حدث للمسلمين من غدر أصحاب الرجيع وماأصاب خبيبا من المسلمين فى ذلك اليوم ، فقال النبى ـ

---

(٢١٧) اللحن : هو العدول بالكلام عن الوجه المعروف عند الناس الى وجه لايعرفه الا صاحبه ، كما أن اللحن الذى هو الخطأ عدول عن الصواب المعروف .

صلى الله عليه وسلم ـ الله أكبر ، أبشروا يامعشر المسلمين .

قصة أصحاب الرجيع :

أما قصة أصحاب الرجيع التى كنى بها سعد بن معاذ ومن معه عن غدر اليهود فقد ذكرها الرواة كما يلى :

قدم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رهط من عضل والقارة ، وهما يظنان من بنى الهون بن خزيمة بن مدركة . وبنو عضل ـ بفتح العين والضاد ـ ينسبون الى عضل بن الدبش بن محكم .

وبنو القارة ـ بتخفيف الراء ـ ينسبون الى أكمة سوداء فيها حجارة أطلقوا عليها اسم القارة كانوا قد نزلوا بها فسموا بها . وكانوا يُعْرَفُون باصابة المرمى ويضرب بهم المثل فى ذلك حتى قالوا : « قد أنصف القارة من راماها »

قدم هؤلاء الرهط الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : يارسول الله إن فينا إسلاما فابعث فينا نفرا من أصحابك يفقهوننا فى الدين ويقرئوننا القرآن . . ويعلموننا شرائع الاسلام ، فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نفرا من أصحابه للقيام بتلك المهمة وكانوا ستة هم :

مرثد بن أبى مرثد الغنوى
وخالد بن البكير الليثى
وعاصم بن ثابت بن أبى الأفلح

وخبيب بن عدى

وزيد بن الدثنة بن معاوية

وعبد الله بن طارق .

وأمَّر النبى - صلى الله عليه وسلم - على هؤلاء مرثد بن أبى مرثد الغنوى . وخرج أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع - وهو ماء لهذيل بناحية الحجاز ، بين مكة وعسفان ، غدروا بهم ، فقد فوجىء أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم فى رحالهم بالرجال وقد جردوا عليهم السيوف وأحاطوا بهم ، وقالوا لهم : استأسروا لنا .

وجرد المسلمون سيوفهم ليدافعوا عن أنفسهم ، فقال لهم المهاجمون : إنا والله ما نريد قتلكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة[٢١٨] ، ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم .

فأما مرثد . وخالد ، وعاصم فقد قالوا : والله لانقبل من مشرك عهدا أبدا ، وأنشد عاصم بن ثابت :

ما علتى وأنا جلد نابل	والقوس فيها وتر عنابل
تزل عن صفحتها المعابل	الموت حق والحياة باطل

---

(٢١٨) أى أنهم أرادوا أسرهم وبيعهم الى أهل مكة .

وكل ماحم الاله نازل — بالمرء والمرء اليه آئل
إن لم أقاتلكم فإن هابل[219]

وقاتل عاصم حتى قتل ، وقتل معه صاحباه .

وأما يزيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق ، فلانوا ورقوا ، فأسرهم العدو ، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم .

وفى الطريق إلى مكة استطاع عبد الله بن طارق أن ينتزع نفسه من القران ، وأخذ سيفه واستأخر عنهم . ولكنهم رموه حتى قتلوه ، فقبره هناك فى الموضع الذى قتل فيه .

وبيع خبيب وزيد بمكة بأسيرين لهذيل فيها .

وقد اشتراهما أهل مكة لقتلهما ثأراً لمن قتلوا فى معاركهم مع المسلمين . اشترى صفوان بن أمية - زيد بن الدثنة وحين قدَّم صفوان بن أمية - زيدا - ليقتله ثأراً بأبيه أمية بن خلف ، وساقوه من الحرم الى التنعيم واجتمع القرشيون حوله ليشهدوا مقتله ويتشفوا به ، جاءه أبو سفيان فقال له : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن فى مكانك تضرب عنقه وأنك فى أهلك ؟

---

(٢١٩) العنابل : الشديد ، وهابل : ثاكل وفاقد .

فقال زيد : والله ما أحب أن محمدا الآن فى هذا المكان الذى أنا فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى .

فقال أبوسفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد .. محمداً .

وحقا ذلك فإنه حب تفرضه العقيدة وأساسه الصفاء والاخلاص .
وليس مبعثه المغانم المادية والمصالح الدنيوية كالحب السائد بين الناس .
وقتل زيد . ومضى الى ربه شهيدا راضيا مرضيا .

وأما خبيب بن عدى وكان قد اشتراه بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بأبيهم الذى قتله خبيب يوم بدر ، فقد حبسوه فى بيت ماوية ـ مولاة لهم ـ ووكلوا به من يحرسه .

وقال خبيب لموهب زوج ماوية : يا موهب أطلب إليك ثلاثا : أن تسقينى العذب ، وأن تجنبنى ما ذبح على النصب ، وأن تخبرنى إذا أرادوا قتلى .

وقد حدث من اكرام الله إياه فى أثناء حبسه ما أثار عجب هؤلاء القوم الكافرين .

حدثت زينب بنت الحارث أخت عقبة قاتل خبيب قالت : اطلعت على خبيب يوما وان فى يده لقطفا من عنب مثل رأس الرجل يأكل منه ـ وما فى مكة يومئذ حبة من عنب ـ إنها كرامة له من الله على نحو ما أكرم به مريم

حين سألها زكريا وقد وجد عندها رزقا : أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

ولما هموا بقتله قال لهم : أمهلونى حتى أصلى ركعتين ، فصلاهما فى موضع مسجد التنعيم الآن ـ وهو الذى يقال له مسجد عائشة ـ عند طرف مكة من جهة المدينة على ثلاثة أميال من مكة .

والتفت إلى أعدائه وقال : لولا أنكم تظنون أن بى جزعا من الموت لزدت فى الصلاة . ثم قال : اللهم أحصهم عددا ، ولا تبق منهم أحدا ، واقتلهم بددا .

وقد ذكر أن قاتليه لم يحل عليهم الحول ومنهم أحد على قيد الحياة إلا من أسلم منهم بعد ذلك .

لقد أصابت دعوة خبيب كل من سبق فى علم الله أنه يموت كافراً ، ومن أسلم منهم لم يعنه خبيب ولم يقصده بدعائه . .

وقال خبيب : اللهم أنى لا أجد من يبلغ رسولك منى السلام فبلغه ، فجاء جبريل عليه السلام ـ الى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخبره وأبلغه .

فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو جالس بين أصحابه : وعليك السلام ، خبيب قتلته قريش .

وقد أنشد خبيب عند استشهاده أبياتا من الشعر تشهد بصدق إيمانه وقوة يقينه فقد قال :

فلست أبالى حين أقتل مسلما ... على أى شق كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الاله وان يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع
إلى الله أشكو غربتى بعد كربتى ... وما أرصد الأحزاب لى عند مصرعى

فهؤلاء هم أصحاب الرجيع الذين ذهبوا شهداء .... غدر بهم جمع من قبائل عضل والقارة

ومن أجل هذا كنى بهم سعد بن معاذ وسعد بن عبادة حين أخبرا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بغدر بنى قريظة .

انضمام بنى قريظة للعدو

وانضم بنو قريظة للعدو المحيط بالمدينة .. وهذا هو قوله ـ تعالى

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ ﴾ (٢٢٠)

قال القرطبى : الذين جاءوا من فوق الوادى وهو أعلاه ، عوف بن مالك فى بنى نصر وعيينة بن حصن فى أهل نجد ، وطليحة بن خويلد

---

(٢٢٠) الأحزاب ١٠

الأسدى فى بنى أسد والذين جاءوا من أسفل الوادى أبو سفيان بن حرب فى أهل مكة . وأبو الأعور السلمى ومعه حيى بن أخطب اليهودى فى بنى قريظة .

لقد انكشف أمر بنى قريظة تماما ، وأسفروا عن العداوة ، ولم يكتفوا بذلك بل كان لهم دور آخر أكبر ، هو استطلاع جبهة المسلمين الداخلية . وأخبار الكفار بكل ما يحدث . .

قالت صفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها ـ كنا يوم الأحزاب فى حصن حسان بن ثابت ، النساء والصبيان . . . . . . وكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه فى نحر العدو لايستطيعون الانصراف الينا ، فاذا يهودى يدور حول الحصن . وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأخذت صفية عموداً ، ونزلت من الحصن وتربصت باليهودى فقتلته بالعمود .

لقد وضحت عداوة بنى قريظة إذن ، وأسفروا عن غدرهم ، وزين لهم شيطانهم حيى بن أخطب أنهم على وشك الانتهاء من محمد وأصحابه ووجدوا من المنافقين فى المدينة تظاهرا قويا على العصيان ونقض العهد .

والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن فارغا لهم . فقد كان مشغولا بالخطر الداهم من الخارج . ولكن الخطر الداخلى كان أعنف . وبذلك أصبح المسلمون فى موقف لايحسدون عليه . . لقد أصبح الموقف صعباً

فقام سليط من ساعته وأخبر النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما سمع فأرسل النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ زيد بن حارثة فى سرية الى القردة من أرض نجد « وهى بين الربذة والغمرة ناحية ذات عرق » فسار زيد لهلال جمادى الآخرة من العام الثالث فى مائة راكب ، وكان الصراع على أشده بين قريش والمسلمين فأصاب زيد ومن معه أعيان القوم .

وعاد زيد بالعير الى المدينة فخمسها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبلغ الخمس عشرين ألف درهم ، وقسم ما بقى على أفراد السرية ..

هذه خدمة أداها نعيم بن مسعود دون أن يدرى الى المسلمين .

وانطوت الأيام وجاءت موقعة الأحزاب حيث نجح اليهود فى تجميع القبائل المشركة ضد المسلمين وزحفوا الى المدينة يريدون تطويقها .... ولنترك نعيم بن مسعود يحدثنا عن موقفه .... يقول :

كنت أقدم على كعب بن أسد زعيم بنى قريظة فأقيم عندهم الأيام أشرب من شرابهم وآكل من طعامهم ثم يحملونى تمرا على ركابى ما كانت ، فأرجع به الى أهلى .

فلما سارت الأحزاب الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سرت مع قومى وأنا على دينى لم أسلم بعد .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بى عارفا ... فقذف الله فى

والأمر يحتاج إلى حسن التدبير وإحكام التخطيط واستعمال الحكمة ما أمكن ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعدم ذلك . . فسرعان ما تهيأت الفرصة والوسيلة التى استطاع ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن طريقها أن يجد للمسلمين مخرجا وربما أغنت الفطنة غناء الجيوش الزاحفة والرعود العاصفة والرماح الخاطفة وهذا هو ما حدث . . . . لقد تهيأت تلك الفرصة أمام النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بإسلام نعيم بن مسعود :

من نعيم بن مسعود ؟

ونعيم بن مسعود الذى أسلم فى هذه الفترة الحرجة التى ألمت بالمسلمين هو من بني أشجع بن ريث بن غطفان ، وكانت منازل قبيلته فى نجد وكان قبل إسلامه كثير التردد على يهود المدينة من بنى النضير وبنى قريظة فكانوا يميزونه بالعطاء فى مقابل خدمات يؤديها إليهم . .

وقدم نعيم مرة وهو مشرك على كنانة بن أبى الحقيق فى بنى النضير فشرب معه الخمر حتى سكر وكان فى المجلس سليط بن النعمان ـ وهو صحابى ـ يشرب معهم ، ولم تكن الخمر قد حرمت بعد .

فذكر نعيم والخمر تدور برأسه أن عير قريش خرجت من مكة وعليها صفوان بن أمية تحمل تجارة الى الشام ، وأنه قد ابتعد عن الطريق المسلوك ، فسلك طريقا آخر تخوفا من اعتراض المسلمين .

قلبى الاسلام فكتمت ذلك عن قومى . وخرجت حتى جئت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين المغرب والعشاء فوجدته يصلى . فلما رآنى قال : ما جاء بك يا نعيم ؟

قلت : جئت أصدقك وأشهد أن ما جئت به حق فمرنى بما شئت يا رسول الله .

قال : إن استطعت أن تخذل عنا الناس فخذل .

قلت : ولكن يا رسول الله إنى أقول

قال : قل ما بدا لك فأنت فى حل

ولم يكن أحد من القوم قد علم بعد باسلام نعيم

قال نعيم : فذهبت الى بنى قريظة فقلت اكتموا عنى ، اكتموا عنى .

قالوا : نفعل .

فقلت : إن قريشا وغطفان على وشك الانصراف عن محمد ، إن أصابوا فرصة انتهزوها ، والا عادوا الى بلادهم ، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنا .

قال بنو قريظة : قد أشرت بالرأى .

ثم خرج نعيم الى أبى سفيان ، فقال : قد جئتك بنصيحة فاكتم عنى .

قال : أفعل

قال نعيم : إن بنى قريظة قد ندموا على ماصنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وأرادوا إصلاحه ومراجعته ، فقد أرسلوا إليه وأنا عندهم : من يقول له : إنا سنأخذ من قريش وغطفان سبعين رجلا من أشرافهم ونسلمهم اليك تضرب أعناقهم ، ونكون معك على قريش وغطفان حتى نردهم عنك ، وترد جناحنا الذى كسرت إلى ديارهم - يعنون بذلك بنى النضير - فإن بعثوا اليكم يسألونكم رهنا فلا تدفعوا اليهم أحدا واحذروهم .

ثم أتى غطفان فقال لهم ماقال لقريش ، وكان نعيم رجلا منهم فصدقوه . فلما كان ليلة السبت وكان ذلك من صنع الله - عز وجل - لرسوله والمؤمنين - أرسل أبو سفيان الى بنى قريظة - عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان يقول لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخف والحافر ، فاغدوا صبيحة غد للقتال حتى نناجز محمدا .

فأرسلت اليهم بنو قريظة : ان اليوم يوم السبت ، وقد علمتم أنا لا نعتدى فى السبت ، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا يكونون معنا ، فاننا نتخوف أن ترحلوا وتدعونا ومحمدا .

فقال أبو سفيان : هذا ماقال نعيم .
وأرسلت بنو قريظة الى غطفان بمثل ماأرسلت به الى قريش .
فقالت قريش وغطفان : إنا والله مانعطيكم ولكن اخرجوا فقاتلوا معنا .

فقال اليهود فيما بينهم : نحلف بالتوراة أن الخبر الذى قال نعيم لحق ، وجعلت قريش وغطفان يقولون الخبر ماقال نعيم .

ويئس هؤلاء من نصر هؤلاء ، واختلف أمرهم وتفرقوا فكان نعيم يقول : أنا ختلت بين الأحزاب حتى تفرقوا فى كل وجه ، وأنا أمين رسول الله - ﷺ - على سره . . وهكذا كان غناء رجل واحد فيه غناء جيش بأكمله . .

الغـــــزوة

وانتهت موقعة الأحزاب بهزيمة المشركين هزيمة منكرة كما سنفصل ذلك فيما بعد ، وعاد النبى - ﷺ - إلى بيته ، كما عاد المسلمون إلى بيوتهم .

ولكن جبريل يأتى للنبى - ﷺ - يقول له : إن كنت قد وضعت السلاح فما وضعت الملائكة السلاح . إن الله يأمرك أن تخرج الى بنى قريظة ، وإنى متقدم إليهم فمزلزل بهم حصونهم .

فأمر النبى - ﷺ - مناديا ينادى فى الناس : لايصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة . .

لقد أراد الله - عزت قدرته - أن يلقن بنى قريظة درسا قاسيا ، ويعلمهم كيف تكون نتيجة الغدر بالعهود . . فأرسل جبريل - عليه السلام - يطلب إلى النبى - ﷺ - ضرورة التوجه الى هؤلاء الغدرة ، ويُعْلِمه بأن الملائكة أمامه فى مقدمة الصفوف .

وقد كان المسلمون مجهدين من المواجهة مع الأحزاب وقد بلغ الاعياء بهم مبلغا لايخفى على أحد ، والنبى - ﷺ - رءوف بأمته ، رحيم بأصحابه ، فقال لجبريل : إن أصحابى مجهدون فلو نظرتهم أياما ؟

فقال له جبريل : انهض الى بنى قريظة فوالله لينصرنك الله عليهم ، ولأدخلن فرسى هذا عليهم فى حصونهم ، ثم لأحطمنها عليهم .

وأدبر جبريل - عليه السلام - ومن معه من الملائكة - حتى سطع الغبار فى زقاق بنى غَنْم .. وهم طائفة من الأنصار .

ولقد قال جبريل للنبى - ﷺ - أيضا : عذيرك من محارب - أى من يعذرك ؟

قالت عائشة - رضى الله عنها - وقد ارتاع النبى - ﷺ - حين سمع قول جبريل هذا حتى وثب وثبة شديدة ، وخرج فى اثر هذا الصوت ..

وكانت عائشة - رضى الله عنها - لا تعرف أن هذا جبريل ، وخرجت وراء النبى - ﷺ - فاذا هى بالنبى - ﷺ - متكىء على معرفة دابة يمتطيها رجل يكلمه . فرجعت .

فلما دخل قلت له . من ذلك الرجل الذى كنت تكلمه ؟

قال : أرأيته .

قالت : نعم .

قال : بمن تشبهينه ؟

قالت بدحية الكلبى .

قال : ذلك جبريل - عليه السلام - أمرنى أن أمضى إلى بنى قريظة . ولم يبق مجال للتأخر بعد ذلك ، فاستعد النبى - ﷺ - فورا للغزو .

ونادى مناديه : ياخيل الله اركبى ، وهو تعبير من أبلغ التعبيرات وأوجزها فى إثارة الحمية للقتال . . ولا عجب فى ذلك فهو - ﷺ - أفصح من نطق بالضاد وقد أعطاه الله جوامع الكلم .

ولبس النبى - ﷺ - درعه ووضع البيضة (٢٢١) على رأسه ، وتقلد سيفه ، وأخذ قناة بيده الشريفة ، وركب فرسه اللَّجِيف . أو اللحيف - بالجيم أو الحاء - والناس حوله فى خيولهم وأسلحتهم ، وكانت عدة الجنود ثلاثة آلاف بينهم ستة وثلاثون فارسا . .

واستعمل النبى - ﷺ - على المدينة عبد الله بن أم مكتوم .

وحمل الراية على بن أبى طالب وتقدم بها . .

ومر النبى - ﷺ - على نفر من بنى النجار قد لبسوا السلاح ، فقال لهم :

هل مر بكم أحد ؟

---

(٢٢١) أى الخوذة

قالوا : نعم ، رجل يشبه دحية الكلبى على بغلة بيضاء ـ وفى رواية : على فرس أبيض عليه اللأمة ، وأمرنا بحمل السلاح ، وقال لنا : رسول الله ـ ﷺ ـ يطلع عليكم الآن ، فلبسنا السلاح ووقفنا على استعداد . .

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : ذاك جبريل ـ عليه السلام ـ بعثه الله إلى بنى قريظة ليزلزل حصونهم ، ويقذف الرعب فى قلوبهم .

لقد كان جبريل حين يأتى فى صورة البشر ، يأتى فى صورة دحية بن خليفة الكلبى ، وهو رجل جميل الصورة حسن المنظر والهيأة . وقد سبق أن تحدثنا عن ذلك .

علىّ يتقدم بالراية

وتقدم على بن أبى طالب بالراية نحو حصون بنى قريظة ، ومعه نفر من المهاجرين والانصار ، وركز اللواء قريبا منها . وحين رآه اليهود اشتد هياجهم ، وانطلقت ألسنتهم بالألفاظ السيئة ضد المسلمين ، وضد الدين الاسلامى . .

لقد ظنوا أن هناك من يمنع عنهم ، وأن حصونهم سوف تحميهم وترد عنهم القتل والهلاك ، ولكنهم كانوا واهمين . .

وقد سول لهم شيطانهم أنه بامكانهم أن يُيْئِسوا المسلمين من حصارهم ، فحصونهم منيعة ، ولديهم الزاد الذى يكفيهم مددا طويلة مُدَداً طويلة من

الزمان ، وسوف لا يجد المسلمون منفذا اليهم فيعودون يائسين . قادما فأشفق عليه من أن يسمع ماتفوّه به اليهود فتتأذى مشاعره ، فقال لأبى قتادة الأنصارى : الزم اللواء حتى أحضر .

وأسرع ليستقبل النبى - ﷺ - يقول له : يارسول الله لا تدن من هؤلاء الأخابث .

فقال النبى - ﷺ - « لعلك سمعت منهم لى أذى ؟ »
قال : نعم يارسول الله .
فقال النبى - ﷺ - « لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئا » .

وتقدم النبى - ﷺ - نحو حصونهم ، ونادى أشرافهم ، قائلا ، أجيبوا ياأخوة القردة وعبدة الطاغوت ، لماذا توجهون إلىّ الشتائم ؟ هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟

ولكنهم كدأبهم جعلوا يحلفون ويقولون : ماقلنا شيئا . ياأبا القاسم ، ماكنت جهولا . .

وذكر بعض الرواة - أن أسيد بن حضير - رضى الله عنه - كان قد سبق وتقدم اليهم ، وهددهم قائلا : ياأعداء الله : لا تبرحوا من حصونكم حتى تموتوا جوعا ، إنما أنتم بمنزلة ثعلب فى حجر .

وتبخر ماكانوا يظهرون من تشدد ، وأسقط فى أيديهم ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، فبدوا على طبيعتهم من الجبن والخور ، وفزعوا فزعا شديدا ، وأقبلوا على أسيد يستعطفونه قائلين : يابن الخضير . نحن مواليك وحلفاؤك - يقصدون أن يستشفع لهم عند رسول الله - ﷺ - كما استشفع عبد الله بن أبى بن سلول لمواليه من بنى قينقاع .

ولكن أسَيْداً كان مؤمنا لا يهالىء فى دينه ، فقال لهم : لا عهد بينى وبينكم .

موقف المسلمين من قول النبى - ﷺ - لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة .

وكان النبى - ﷺ - قد قال عند خروجه بالمسلمين من المدينة : لا يصلين أحد العصر إلا فى بنى قريظة . . وقد وقف بعض المسلمين من هذا القول موقف الالتزام بظاهر القول ، فأمسكوا عن الصلاة حتى وصلوا ، ولقد شغل بعضهم شاغل فلم يصلوا الى بنى قريظة إلا بعد العشاء الآخرة ، فصلوا العصر بعدها .

واجتهد بعضهم قائلا : إنما يريد النبى - ﷺ - منا الإسراع إلى بنى قريظة ، ولا يريد منا أن ندع الصلاة حتى نصل ، أو نخرجها عن وقتها . . وقد صلى هؤلاء العصر عندما حان وقته ثم واصلوا سيرهم .

وما عاب النبى - ﷺ - أحدا من الفريقين ولا عنفهم ، لأن كلا منهم مجتهد متأول ، وكل منهم مأجور بقصده . .

وقد ورد أن الذين صلُّوا العصر فى وقتها إنما صلوها على ظهور دوابهم .. وهذه نبذة قصيرة عن الاجتهاد :

معنى الاجتهاد

والاجتهاد فى اللغة بذل الجهد فى طلب المقصود .

وفى الاصطلاح : استفراغ الفقيه الوسع للوصول الى معرفة الحكم الفقهى فى قضية ما .. وقد اجتهد المسلمون فى فهم كلام النبى - ﷺ - فى هذا الأمر فمنهم من وقف عند حدود الامتثال الظاهر ، ومنهم من فهم منه الاسراع .

وربما استدل الذين أخروا الصلاة إلى أن وصلوا إلى بنى قريظة بما حدث فى أثناء - معركة الأحزاب - فقد كان لشدة انشغالهم بالحرب أن صلوا العصر بعد غروب الشمس ، فجوزوا عموم ذلك فى كل شغل يتعلق بالحرب ، لاسيما والزمان زمان تشريع .

على أن الاجتهاد لا يعنى العصمة من الخطأ ولذلك قال النبى - ﷺ - « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر[٢٢٢] »

والاجتهاد لايكون إلا فيما ليس فيه نص ، وقد دعا إلى النبى - ﷺ - فحين بعث معاذ بن جبل إلى اليمن قال له : كيف تقضى يامعاذ ؟ قال أقضى بكتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -

(٢٢٢) رواه مسلم من حديث عمرو بن العاص

قال له : فإذا لم تجد ؟

قال : أجتهد رأيى ولا آلو - أى لا أقصر .

فَسُرَّ منه النبى - ﷺ -

ومعنى ذلك أنه لا جمود فى الإسلام . . فهناك قضايا تَجِدُّ وأحداث تنشأ تحتاج من العلماء إلى بيان الرأى فيها ، فهم يجتهدون لاستنباط مايحتاج إليه الناس من أحكام . .

ولكن الاجتهاد له شروط ، فليس لكل انسان الحق فى أن يجتهد فى أمور الدين وأحكامه .

وأهم شروط الاجتهاد المعرفة الواسعة بعلوم القرآن والسنة ومراميها وأحكامها ، مع التجرد عن الهوى ، والرجوع إلى الحق متى تبين له وجهه .

ولذلك يقول القرطبى فى تفسيره : إنما يكون الأجر للحاكم الذى يخطىء - إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن والقياس وقضاء من مضى ، لأن اجتهاده عبادة يؤجر عليها ، ولا يؤجر على الخطأ ، بل يوضع عنه الأثم فقط ، فأما من لم يكن محلا للاجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطأ فى الحكم ، بل يتحمل عليه الوزر[٢٢٣]

والعصور الاسلامية المزدهرة مليئة بالأئمة المجتهدين الذين أناروا الطريق للمسلمين ، ووضعوا لهم من القواعد والأحكام ماحفظوا به أصول هذا الدين الحنيف . .

---

(٢٢٣) تفسير القرطبى ج ١١ ص ٣١١ ط دار الكتب تفسير آية (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث) الآية رقم ٧٨ ومابعدها من سورة الأنبياء

وجاء بعدهم من اهتدى بهديهم وسار على نهجهم ، وقد ورد عن السيوطى قوله ـ لا يخلو زمن من مجتهد واحد على الاقل ، كما أنه يبعث الله على رأس كل قر من يجدد للناس دينهم[٢٢٤] هذه إلمامة قصيرة وسريعة عن الاجتهاد ، اقتضاها المقام ، ونعود الآن إلى أحداث بنى قريظة . .

الحصار

وضرب النبى ـ ﷺ ـ على بنى قريظة الحصار وأحكمه .

وأطل هؤلاء المحاصرون من حصونهم فإذا المسلمون قائمون حول الحصن فى لباس الحرب يكبرون ويهللون ، وعيونهم يقظة ، وقلوبهم ثابتة ، وعزمهم قوى ـ لقد أعدوا أنفسهم على أنهم مقيمون لا راحلون ، وفى كل وقت من أوقات الصلاة ينادى المؤذن بصوته الجميل الرائع . . الله أكبر فتتجاوب معه القلوب ، وتردد معه الألسنة تصديقا لقول الرسول ـ ﷺ ـ :

« إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن ثم صلوا علىَّ »

فكان هذا التجاوب بالتكبير يزلزل الأرض تحت أقدام اليهود ، فترجف أفئدتهم ، وتضطرب نفوسهم . . وهكذا قذف الله الرعب فى نفوسهم فأصبحوا عاجزين عن التفكير السليم ، وعن التشاور فيما يفعلون . لقد بدأ الاضطراب واضحا فى تصرفاتهم ، وأذهلهم الخوف عن تبين وجه الصواب فى آرائهم . . وبخاصة بعد أن طال أمد الحصار دون أن يتغير شىء فى

---

(٢٢٤) دائرة المعارف الاسلامية مادة اجتهاد ج ٢ ص ٣٢ق

موقف المسلمين الصامدين حولهم .. لقد استمر الحصار طوال خمسة وعشرين يوما فى بعض الروايات ..

بداية الوهن

وجمع زعيمهم كعب بن أسد كبار اليهود قائلا لهم فى نصيحة : يامعشر يهود ، قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى أعرض عليكم ثلاث خلال فخذوا أيها شئتم .

قالوا : ماهى ؟

قال : نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فوالله لقد تبين لكم أنه نبى مرسل وأنه الذى تجدونه فى كتابكم التوراة ، فتأمنون على دمائكم وأموالكم ونسائكم ..

ولكنهم أبوا ذلك إباء شديدا ، وقالوا : لا نفارق ديننا أبداً ، ولا نترك حكم التوراة ، ولا نستبدل به غيره ـ وقد دل ذلك على جهلهم وقصر نظرهم وشدة حمقهم وتعصبهم الأعمى ، الذى حال بينهم وبين رؤية النور الذى جاء لهدايتهم .. ولو كانوا يؤمنون بالتوراة حقا لآمنوا بمحمد ـ ﷺ ـ إنهم ليجدونه فى التوراة عندهم مكتوباً يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم ..

لقد كان كعب جاداً فى عرضه على بنى قريظة أن يؤمنوا بالنبى ـ ﷺ ـ كما كان كارها لنقض العهد بينه وبين النبى ـ ﷺ ـ ولذلك قال لقومه : مامنعنا

من الدخول مع محمد إلا الحسد للغرب ، حيث لم يكن ذلك النبى من بنى إسرائيل ، ولقد كنت كارها لنقض العهد ، ولم يكن البلاء والشؤم إلا من هذا الجالس - وأشار إلى حيى بن أخطب -

أتذكرون ما قال لكم ابن خراش حين قدم عليكم ؟ لقد قال لكم : إنه يخرج بهذه القرية نبى فاتبعوه وكونوا له أنصارا ، فإن فعلتم ذلك تكونوا قد آمنتم بالكتابين الأول والآخر ، أى بالتوراة والقرآن ؟

لقد كان يهود بنى قريظة يعرفون أن رسول الله - ﷺ - مذكور فى كتبهم ، وكانوا يعلمون أولادهم صفته ، ويذكرون لهم أن مهاجره المدينة ، كما كانوا يعرفون أوصاف أصحابه . .

وروى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال : كانت يهود بنى قريظة وبنى النضير وفدك وخيبر يعرفون صفة النبى - ﷺ - قبل أن يبعث ، ويعرفون أن دار هجرته المدينة . .

ومازال كعب يذكرهم بذلك ، ويرغبهم فيه وهم يرفضون حتى أيس منهم . . فلم يجد بدا من أن يعرض عليهم الخلة الثانية ، فقال لهم : فإذا أبيتم علىّ ذلك ، فهلم نقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا - مشاة - رافعين السيوف ، لم نترك وراءنا ثقلا نخشى عليه أو نحرص على الحياة من أجله ، ثم نقاتلهم حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ، فإن

نهلك نهلك ولم نترك وراءنا ما نخاف عليه من أهل وولد ، وإن ننتصر على محمد فلعمرى لنجدن ـ عوضا عن النساء والأبناء ـ يعنى بذلك أنهم بامكانهم تعويض من هلك من الأزواج والأبناء ـ ولكنهم نفروا من ذلك العرض وقالوا له : أيُّ عيش لنا بعد أبنائنا ونسائنا ؟

فقال كعب : أما وقد أبيتم ذلك أيضا ، فقد بقيت الخلة الثالثة .

قالوا : وماهى ؟

قال : هذه الليلة ليلة السبت ، وعسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها ، لاعتقادهم أنا لا نحدث فيها شيئا ، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة .

فقالوا : نفسد سبتنا ، ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا ، إلا من قد علمت ، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ . يعنون بذلك ماأشار إليه الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بقوله :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا

قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ (٢٢٥)

قال لهم كعب : مابات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة من الدهر حازما .

وعرض عليهم رجل منهم إسمه عمرو بن سعدى رأيا كان فيه النجاة لهم لو قبلوه .

قال لهم : يامعشر يهود ، قد خالفتم محمدا فيما خالفتموه ، ولم أشرككم فى غدركم ، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فأثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية ، فوالله ماأدرى أيقبلها أم لا ؟

قالوا : نحن لا نقر للعرب بخراج فى رقابنا يأخذونه ، القتل خير من ذلك .

قال : فإنى برىء منكم .

وخرج فى تلك الليلة ، فمر بحرس رسول الله - ﷺ - وعليه محمد بن مسلمة .

---

(٢٢٥) الاعراف ١٦٣ : ١٦٦

فقال محمد بن مسلمة : من هذا ؟

قال : عمرو بن سعدى .

قال محمد : مر ، اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام ، وخلى سبيله ـ وكان عمرو معروفا بالكرم وكراهية الغدر ـ وبعد ذلك لم يدر أين هو . وقيل : وجدت جثته ، وأخبر رسول الله ـ ﷺ ـ خبره ، فقال : ذلك رجل نجاه الله بوفاته[٢٢٦]

ثم اراد اليهود أن يلجأوا إلى المفاوضات لعلهم يجدون من خلالها ثغرة للنجاة أو المماطلة والتسويف وكسب الوقت ، وهذه عادتهم التى درجوا عليها وتوارثتها أجيالهم من بعدهم حتى وقتنا هذا .

فأرسلوا الى النبى ـ ﷺ ـ قائلين : أرسل إلينا أبا لبابة ـ وهو رفاعة بن عبد المنذر الأنصارى ـ نستشيره فى أمرنا .

وكان أبو لبابة مناصحا لهم ، وكان له مال فى بنى قريظة ، فأرسله النبى ـ ﷺ ـ إليهم .

فلما رأوه قادما عليهم قام إليه الرجال ، وأسرعت إليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه ، من شدة مالقوا من المحاصرة ـ فرق لهم .

---

(٢٢٦) السيرة الحلبية ج ٢ ص ٦٩٢

فقال بنو قريظة لأبي لبابة : أترى أن ننزل على حكم محمد ؟

قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه . يعنى بذلك أن النزول على حكمه معناه القتل . .

أبو لبابة يحبس نفسه

وشعر أبو لبابة أنه زل بإشارته تلك إليه حلقه زلة ، لاتغتفر وأدرك أنه قد خان سر رسول الله ـ ﷺ ـ

قال أبو لبابة : فوالله مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أنى خنت الله ورسوله ، لأن فى إشارته تلك تنفيرا لهم عن الانقياد لحكم النبى ـ ﷺ ـ ومن ثم فقد نزل فى ذلك قوله ـ تعالى ـ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (٢٢٧)

وحين أدرك أبو لبابة أنه قد أخطأ بإشارته تلك ندم واسترجع ، فقال له كعب : مالك ياأبا لبابة ؟

فقال له : خنت الله ورسوله .

---

(٢٢٧) الأنفال ٢٧ ، ٢٨

ونزل أبو لبابة من حصن بنى قريظة وهى يبكى بكاء مرا ، وانطلق على وجهه ، ولم يأت رسول الله - ﷺ - وذهب الى المسجد وربط نفسه الى سارية من سوارية - هى السارية التى عند باب أم سلمة - رضى اله عنها -

وكانت هذه السارية أكثر ما يصلى النبى - ﷺ - صلاة النفل عندها ، وكان ينصرف إليها من صلاة الصبح ، وكان يستبق إليها الفقراء والمساكين ومن لا بيت له إلا المسجد ، فيجىء إليهم النبى - ﷺ - ويتلو عليهم ما نزل عليه فى ليلته ويحدثهم ويحدثونه .

وأقسم أبو لبابة ألا يذوق طعاما ولا شرابا حتى يموت أو يتوب الله عليه مما صنع ، كما أقسم أيضا ألا يطأ بنى قريظة ، وألا يرى فى مكان خان فيه الله ورسوله .

ويلغ رسول الله خبره وكان قد استبطأه - فقال - وهو الذى سماه ربه الرءوف الرحيم - : لو جاءنى لاستغفرت له ، فأما إذ فعل مافعل فما أنا بالذى أطلقه حتى يتوب الله عليه .

وظل أبو لبابة فى محبسه تتناوب زوجته وابنته على ملاحظته ، لا يفكانه إلا إذا أراد الصلاة أو أراد قضاء حاجته . وانتهى أمر بنى قريظة الى ما انتهى إليه على ما سنوضحه . بعد ونزلت توبة الله على أبى لبابة

ويقص علينا ابن الأثير قصة ذلك فيقول : نكث أبو لبابة سبعة أيام لا يذوق شيئا حتى خر مغشيا عليه ، ثم تاب الله عز وجل عليه ، فقيل له : قد تاب الله عليك .

فقال : لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله - ﷺ - يحلنى ، فجاء النبى - ﷺ - فحله بيده .

وقال أبو لبابة ؛ يارسول الله إن من توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالى كله صدقة إلى الله - تعلى - وإلى رسوله - ﷺ -

قال النبى - ﷺ - : يكفيك الثلث .[228]

وقد نزلت توبة الله على أبى لبابة والنبى - ﷺ - فى بيت أم سلمة - رضى اله عنها- نزل قوله تعالى

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾[229]

قالت أم سلمة : سمعت رسول الله - ﷺ - من السحر يضحك ، فقلت : مم تضحك يارسول الله ؟

---

(٢٢٨) أسد الغابة ج ٦ ص ٢٦٦

(٢٢٩) التوبة ١٠٢

قال : تاب الله على أبي لبابة .

قلت : أفلا أبشره يارسول الله ؟

قال : بلى ، إن شئت .

فقامت على باب حجرتها فقالت : يا أبا لبابة أبشر فقد تاب الله عليك . فذهب الناس اليه ليطلقوه ، فقال : لا والله حتى يكون رسول الله - ﷺ - الذى يطلقنى بيده الشريفة .

فلما مر النبى - ﷺ - على أبي لبابة خارجا الى صلاة الصبح أطلقه .

الحكم على بنى قريظة

ونزل بنو قريظة على حكم رسول الله - ﷺ - فأمر بهم فجمعوا ، ثم جعل الرجال فى ناحية والنساء والذرارى فى ناحية أخرى ، واستعمل عليهم عبدالله بن سلام ، وقد كان منهم قبل أن يسلم .

وتدافعت الأوس الى النبى - ﷺ - يقولون له : يارسول الله موالينا وحلفاؤنا ، وقد فعلت فى موالى إخواننا بالأمس ماقد فعلت . .

إنهم يعنون بذلك ما فعل ببنى قينقاع حيث استشفع فيهم عبدالله بن أبي سلول فأطلق النبى - ﷺ - سراحهم على نحو ما قدمنا .

وأرادت الأوس أن يقبل النبى - ﷺ - رجاءهم فى بنى قريظة كما قبل رجاء الخزرج فى بنى قينقاع .

ورد النبى - ﷺ - الأمر اليهم فقال لهم : ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم ؟

قالوا : بلى

قال : فاختاروا من شئتم من أصحابى .

فتشاورت الأوس مع اليهود ثم قالوا :

نختار سعد بن معاذ - وهو سيد الأوس حينئذ - وظن بنو قريظة أنه سيكون رحيما بهم لما كان بينهم من حلف سابق .

وكان سعد بن معاذ قد أصابه سهم فى أكحله يوم الخندق . فأبقاه النبى - ﷺ - فى خيمة الجرحى التى كانت تشرف عليها رفيدة الأنصارية ، وهى امرأة متطببة كانت تداوى الجرحى من المسلمين وتقوم على رعايتهم . . وكان النبى - ﷺ - يعوده ويطمئن عليه . . (٢٣٠)

وقد دعا سعد ربه قائلا : يارب لا تمتنى حتى تقر عينى فى بنى قريظة . .

وظل سعد تحت العلاج حتى أوشك أن يتماثل للشفاء ، فجاءه من يخبره أن بنى قريظة قد اختارته ليحكم فيها ؛

وجاءه قومه فحملوه من خيمة رفيدة التى فى المسجد ، وأركبوه حمارا قد فرشوا له على ظهره ، واقبلوا به الى رسول الله - ﷺ - وهم يقولون له :

---

(٢٣٠) أسد الغابة ج ، ص ١٢٠

يا أبا عمرو أحسن الى مواليك ، فقد اختاروك لتحكم فيهم كم اختارك رسول الله - ﷺ - لذلك - وقد رأيت كيف أحسن عبدالله بن أبي الى مواليه .

فقال سعد : لقد آن لسعد بن معاذ ألا تأخذه في الله لومة لائم . ولعل ذا الفطنة ممن سمعه أدراك قصده فصاح ناديا بني قريظة : واقوماه .

وانتهى سعد بن معاذ الى مجلس النبي - ﷺ - فلما رآه قال النبي - ﷺ - لمن حوله من الأنصار : قوموا الى سيدكم .

وهو تكريم لسعد بن معاذ الذى أبلى فى الإسلام بلاء حسنا ، وكانت له منزلة فى قلب رسول الله - ﷺ - وكان إسلامه بركة على قومه ، فحين أسلم على يد مصعب بن عمير فى المدينة - قبل هجرة النبى - ﷺ - إليها - قال لقومه : كلام رجالكم ونسائكم علىَّ حرام حتى تسلموا ، فأسلموا .

وكلمة « سيدكم » التى قالها النبى « ﷺ - لا تعنى السيادة المطلقة ، بل هو لفظ يقتضى التكريم والأفضلية ، والتفاضل بين الناس لا ينكره أحد ، وكان الجميع يعرفون مكانه سعد ومنزلته وفضله . .

وأما نهى بعض الناس عن استعمال لفظ السيد على اعتبار أن السيد هو الله ،فإن المقصود بذلك السيادة المطلقة وهى لله وحده ، فان سيادة الله

لا يبارى فيها أحد ، وهى مسلمة لا جدال فيها ، وهى سيادة مطلقة ، ومن الذى يجرؤ على تشبيه سيادة عبد مهما كانت منزلته بسيادة الله ـ جلت قدرته ـ على ملكة وملكوته ؟

ولقد وردت كلمة « سيد » فى كلام العرب ويعنون بها الفاضل فى قومه دون أن ينكر ذلك أحد .

وفى لسان العرب ؛ المسوَّد : السيد ، وفى حديث قيس بن عاصم : اتقول الله وسودوا أكبركم ويفضلكم

قال : والسيد يطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم والحليم ومحتمل أذى قومه والزوج والرئيس والمقدم . وفى الحديث : « لا تقولوا للمنافق سيدا مهما علا ـ فهو إن كان سيدكم وهو منافق فحالكم دونه حالة ، والله لا يرضى لكم ذلك » .

ولعل الذى نهى عن استعمال لفظ السيد مع الناس نظر إلى ما أورده ابن منظور يضا من أن رجلا جاء الى النبى ـ ﷺ ـ فقال له :

أنت سيد قريش ؟ فقال النبى ـ ﷺ ـ البيد الله . فقال الرجل : أنت أفضلها قولا وأعظمها فيها طولا .

فقال النبى ـ ﷺ ـ ليقل أحدكم بقوله ولا يستجرئنكم . . ومعنى ذلك أن الله عز وجل هو الذى يستحق السيادة المطلقة ، وقد كره النبى ـ ﷺ ـ أن

يمدح فى وجهه ، وأحب التواضع لله تعالى . وجعل السيادة للذى خلق الخلق أجمعين . . وليس هذا بمخالف لقوله - ﷺ - لسعد بن معاذ حين قال لقومه : قوموا إلى سيدكم . . . لقد أراد أنه أفضلكم رجلاً وأكرمكم ، وأما صفة الله - جل ذكره - بالسيد فمعناه أنه مالك الخلق ، والخلق كلهم عبيده فالمعنى فى وصفه عز وجل بالسيد - فير المعنى فى وصف عباده بذلك الوصف .

وكذلك قوله - ﷺ - أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . . . . أراد أنه أول شفيع ، وأول من يفتح له باب الجنة ، قال ذلك إخبارا عما أكرمه الله به من الفضل والسؤدد وتحدثا بنعمة الله عليه . . (٢٣١)

وقد ورد لفظ السيد فى عبارات كثيرة على لسان النبى - ﷺ - والصحابة ، ولا يعنون بها سوى فضل من قيلت فى شأنه ولا يعنون بها أكثر من ذلك . .

وقد تكرر وصف سعد بن معاذ بهذه الصفة على لسان النبى - ﷺ - . فقد أورد عياض بن عبدالرحمن عن سعد بن ابراهيم عن أبيه عن جده قال : كنا جلوسا عند رسول الله - ﷺ - فجاء سعد بن معاذ فقال : هذا سيدكم . . (٢٣٢)

---

(٢٣١) لسان العرب لابن منظور ج ٣ ص ٢١٤٤ مادة سود
(٢٣٢) أسد الغابة ج ٢ ص ٢٧٥

على أن الأمر بالقيام لسعد بن معاذ فيه تكريم له ـ لفضله وحسن بلائه فى الاسلام ، وفيه أيضا حث على القيام لتكريم القادم والزائر ، أما النهى الوارد عن القيام فهو منصرف الى تمثل الناس قياما لشخص من الناس .. بمعنى أن يظل هو جالسا ويظلون هم وقوفا حوله لا يجرءون على الجلوس . هذا هو المنهى عنه استنادا الى قوله ـ ﷺ ـ : « من أحب أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار »

كما أن ذلك منصرف الى من أحب ذلك من الناس ورغب فيه تعاليا واستكبارا على غيره .. إن الاسلام دين الفضل والمروءة واحترام أقدار الناس ، والنبى ـ ﷺ ـ يقول : « أنزلوا الناس منازلهم »

إنم هذا تشريع حكيم يحفظ للناس مكانتهم ، ويعطيهم حقوقهم ويؤكد الأثر الكريم : إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل ..

حكم سعد

لقد قال رجال من الأوس لسعد : ياسعد إن رسول الله ـ ﷺ ـ قد ولاك أمر مواليك لتحكم بينهم ..

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ لسعد : احكم فيهم ياسعد .
فقال سعد : الله ورسوله أحق بالحكم
قال النبى ـ ﷺ ـ قد أمر الله ورسوله أن تحكم فيهم .

فتوجه سعد إلى الجهة التى ليس فيها رسول الله - ﷺ - وقال عليكم بذلك عهد الله وميثاقه أن الحكم كما حكمت؟

قالوا : نعم

ثم أشار إلى الجهة التى فيها رسول الله - ﷺ - وقال - وهو لا ينظر إلى رسول الله - ﷺ - إجلالا له : وعلى من ههنا مثل ذلك؟

فقال رسول الله - ﷺ - : نعم .

فقال سعد : أحكم بأن تقتل الرجال وتغنم الأموال وتسبى الذرارى والنساء . وتكون ديارهم للمهاجرين دون الأنصار .

فقال النبى - ﷺ - : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات .. لقد نظر سعد فى حكمه إلى أن بنى قريظة قد ارتكبوا أعظم الجرم حين نقضوا عهدهم مع رسول الله - ﷺ - فى وقت عصيب ، ولولا رعاية الله للمؤمنين ، وإرادته حفظ دينه - لكان فى ذلك القضاء الإسلام والمسلمين

إن قتل من نقض العهد أمر جائز شرعا تخلصا من شره ، وعبرة لغيره ، وحسما لدابر الفتنة ، وقطعا لمادة الشر .

لقد مر باليهود قبل هذا الحادث حادثان كان فى الإمكان أن يكون كلاهما أو أحدهما فيه عبرة لبنى قريظة ، ومع ذلك لم يعتبروا . وكان فى نقضهم

العهد هذه المرة فرصة ـ لو نجحت ـ كما كان حيى بن أخطب يمنى نفسه ـ لكان فى ذلك القضاء التام على الدعوة الإسلامية .

ولكن عين الله كانت ساهرة فأنجت الإسلام وأهله ، ودحرت الباطل وحزبه ، ونكل الله بالمشركين تنكيلا كبيرا . .

وفاة سعد

وقد مات سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ بعد ذلك من أثر الجرح الذى كان مصابا به ، فلقى ربه شهيدا مجاهدا فى سبيل دينه كما كان يتمنى . .

لم يكن سعد يرهب الموت بل كان يتمناه . .

وتمنى الموت فى سبيل الله صفة يتميز بها المسلم على غيره . . . فقد كان اليهود ينفرون من الموت ويخافونه خوفا شديدا ، وقد تحداهم القرآن بذلك قائلا :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (٢٣٣)

---

(٢٣٣) الجمعة ٦ : ٨

وليس معنى ذلك أن يتمنى الإنسان الموت على أى وجه أو حال ، فقد نهى النبى - ﷺ - عن ذلك فقال : « لا يتمن أحدكم الموت إما محسنا فلعله يزداد وإما مسيئا فلعله يتوب »[٢٤]

ولكن معناه ألا يرهب المؤمن الموت أو يجزع منه ذلك الجزع الذى يدفع صاحبه الى الجبن أو الخوف من لقاء العدو أو اليأس من رحمة الله .

وقد ورد عن أبى بن كعب أن الله علمه ما يقوله فى دعائه حين يستأخر أجله . . . وذلك على لسان عبد صالح رآه يصلى أمامه ويقول : «اللهم لك الحمد كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله إنك على كل شيء قدير ، اللهم اغفر لى ما مضى من ذنوبى واحفظنى فيما بقى من عمرى وتب على »

ولم يكن سعد أو أحد من أصحاب رسول الله - ﷺ - يتمنى الموت ، ولكنهم كانوا يتمنون الشهادة ، وتمنى الشهادة أمر محبوب دعا إليه الدين ، وحرص عليه الصادقون من المسلمين . .

الملائكة تشيع جنازة سعد

وقد حضر جنازة سعد بن معاذ سبعون ألفا من الملائكة ما وطئوا الأرض إلا يومهم هذا ، كما فتحت له أبواب السماء . .

---

(٢٣٤) رياض الصالحين حديث رقم ٥٨٣

وقد حزن النبى - ﷺ - لموت سعد بن معاذ ، كما حزن عليه المسلمون . . . وليس حزن النبى - ﷺ - جزعا من الموت ، أو اعتراضا على القدر ، ولكنه حزن الفطرة السوية التى يسوؤها فراق الأحباب وموت الأصحاب . وقد دمعت عينا النبى - ﷺ - على فراق أصحابه كثيرا ، ودمعت على ولده إبراهيم حين مات وقال : إن العين لتدمع وإن القلب ليخشع ولكنا لا نقول ما يغضب الرب .

ولذلك نهى النبى - ﷺ - أبا بكر حين جزع على سعد بن معاذ - وكان أبو بكر قد قال حين بلغته وفاة سعد : وانكسار ظهراه فقال له الرسول : مه - فقال عمر - رضى الله عنه - : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وهذا خير عزاء قدمه القرآن الكريم للمصابين ، وقال فى ذلك :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (٢٣٥)

---

(٢٣٥) البقرة ١٥٥ : ١٥٧

وروى الرواة قالوا : إن جبريل -عليه السلام- نزل الى النبى - ﷺ - معتجرا بعمامة من استبرق ، فقال : يانبى الله ، من هذا الذى فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش

فخرج رسول الله - ﷺ - فوجد سعدا قد قبض .

ولما دفنه رسول الله - ﷺ - وفرغ من جنازته جعلت دموعه تتحدر على لحيته ، وأخذت أم سعد تندب قائلة :

ويل أم سعد سعدا   براعة ونجدا
ويل أم سعد سعدا   صرامة وجدا

فقال النبى - ﷺ - : كل نادبة كاذبة إلا نادبة سعد »

حديث اهتزاز العرش .

روى أن النبى - ﷺ - قال : « اهتز العرش لموت سعد بن معاذ » . .

وقد تكلم الرواة حول معنى هذا الحديث . فقال بعضهم : هو على ظاهره ، واهتزاز العرش معناه تحركه بأمر الله فرحا بقدوم روح سعد بن معاذ . .

وفى اهتزاز العرش فضيلة لسعد .

وقد يكون اهتزاز العرش علامة للملائكة على موت أحد عظماء الإسلام . .

وقال بعضهم : المراد بالاهتزاز الاستبشارة والقبول ، وان العرش قد فرح وسعد بإرادة الله عندما مات سعد بن معاذ ، وذلك لكرامته عند ربه

ومنه قول العرب : فلان يهتز للمكارم ، لا يريدون ذلك اضطراب الجسم والحركة ، وانما يريدون الارتياح للمكارم والإقبال عليها . . . وقيل : اهتزاز العرش اهتزاز حملته فرحا بقدوم روح سعد لما رأوا من كرامته وعظم منزلته+ . وهذا هو الأقرب . . . ويؤيد ذلك ما أورده الحاكم قال : إن جبريل سأل . . من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واستبشر به أهلها ؟

وقد خفت خشبة سعد على أعناق مشيعيه . .

فقال النبى - ﷺ - إن الملائكة كانت تحمله .

لقد أعلن النبى - ﷺ - عن منزلة سعد - رضى الله عنه - عند ربه ، ومكانته فى الجنة ، فقد روى البراء بن عازب قال : أهديت للنبى - ﷺ - حلة كان الذى أهداها لى صاحب دومة الجندل - فجعل أصحابه يمسونها

ويعجبون من لينها ، فقال - ﷺ - : « أتعجبون من لين هذه ؟ والذى نفس محمد بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منها وألين[٢٣٦] وإذا كانت

---

(٢٣٦) المواهب اللدنية ج ٢ ص ١٤١

المناديل ألين من هذه الحلة ، فما بال الحلة نفسها التى يرتديها سعد فى الجنة ؟ والمعروف أن المناديل تكون عادة أدنى من الثياب .

وروى الطبرانى برجال ثقات عن عطارد بن حاجب أنه أهدى إلى النبى - ﷺ - ثوبا فاعجب به أصحابه

فقال : وما تعجبون من ذا ؟ لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير من هذا . ثم بعث رسول الله بالثوب إلى أبى جهم بن حذيفة ،

وتخصيص سعد بذلك لأنه كان يعجبه ذلك الجنس من الثياب اللينة أو لأن الذين تعجبوا من لين هذا الثوب كانوا من الأنصار فأراد أن يطمئنهم على منزلة سيدهم سعد بن معاذ .

وإن كان النبى - ﷺ - قد وهب الثوب الذى أهداه إليه عطارد بن حاجب إلى أبى جهم ، فهو أيضا قد وهب الحلة التى أهديت اليه من صاحب دومة الجندل الى عمر بن الخطاب .

وحين دفن سعد بن معاذ انبعثت من القبر رائحة طيبة . . . وروى عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : أخذت قبضة من تراب قبر سعد بن معاذ فوجدت منه رائحة المسك .

وفى رواية أخرى عن محمد بن شر حبيل بن حسنة تقول : قَبَضَ رجل يومئذ بيده من تراب قبره قبضة فذهب بها ، فإذا فيها رائحة المسك ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ سبحان الله سبحان الله ـ قالها مرتين تعجبا ـ حتى عرف ذلك فى وجهه فقال : الحمد لله ، لو كان أحد ناجيا من ضمة القبر لنجا منها سعد ، لقد ضم ضمة ثم فرج الله عنه .

وروى عن جابر قال : لما دفن سعد ونحن مع رسول الله ـ ﷺ ـ سبح ـ ﷺ ـ فسبح الناس معه ، ثم كبر فكبر الناس معه . . .

إن فى ذلك تذكيرا للناس حتى يعملوا لهذه اللحظة ، ولذلك قال عائشة ـ رضى الله عنها ـ : يارسول الله مااستمتعت بشىء منذ سمعتك تذكر ضغطة القبر وصوت منكر ونكير .

فقال ـ ﷺ ـ ياعائشة ، ضمة القبر على المؤمن كضم الأم الشفيقة يديها على رأس ابنها يشكو إليها الصداع فتغمر رأسه غمرا رقيقا ، ولكن يا عائشة ويل للشاكين فى الله أولئك يضغطون فى قبورهم ضغطة لا يعلم مدى شدتها إلا الله عز وجل . .

هل نجا أحد من بنى قريظة ؟

لقد نجا من بنى قريظة من أسلم منهم ، ومن هؤلاء أبو سعد بن وهب القرظى ، فقد روى ابن الأنثر أنه نزل إلى النبى ـ ﷺ ـ فأسلم .

وإن كان بعضهم قد نسبه إلى بنى النضير وحسن إسلام . أبى سعد كما حسن إسلام غيره ممن أسلموا من أهل الكتاب[٢٣٧]

دلائل وعبر

إن فى غزوة بنى قريظة دلائل وعبرا نستخلص منها ما يأتى : ـ

١ ـ حرص المسلمين على إرضاء الله ورسوله ولو كان فى ذلك إجهاد لهم وتضحية بمصالحهم الخاصة .

فقد رأينا كيف قيد أبو لبابة نفسه وأبى أن يفكه أحد من قيده حتى يتوب الله عليه أو يموت ، لأنه أدرك أن إشارته إلى حلقة بين بنى قريظة فيها خيانة لله ولرسوله .

ورأينا كيف أرضى سعد بن معاذ ضميره ، وآثر رضاء الله ورسوله على قومه حين أصدر حكمه فى بنى قريظة . . وهذا هو الإيمان الكامل الذى لا تأخذ صاحبه فى الحق لومة لائم .

وشتان بين موقف سعد هذا وموقف عبدالله بن أبى سلول حين آثر رضا اليهود على رضا الله ورسوله ، ومازال يلح على النبى ـ ﷺ ـ فى شأنهم ، حتى أغضبه ، فقال له : خذهم لا بارك الله لك فيهم .

---

(٢٣٧) أسد الغابة ج ٦ ص ١٤٠

٢ ـ ومن الآيات الواضحة فى هذه القصة أن الإسلام هو دين البر والوفاء ، وأنه يأنف من الغدر والخيانة ، وقد ضاق ذرعا باليهود الذين نقضوا العهد أكثر من مرة فكان لابد من الوقوف منهم موقفا حاسما ،

وقد رضى النبى ـ ﷺ ـ أن يحكم فيهم مولاهم وحليفهم الذى اختاروه بأنفسهم فحكم فيهم بما حكم الله ، وطهرت المدينة من أرجاسهم .

والاسلام يجيز نبذ عهد الخائن وإن كتم خيانته،فمن الأولى أن ينبذ عهد الذى أظهر غدره وخيانته قال تعالى : ـ

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢٣٨)

٣ ـ ونأخذ من ذلك أيضا أن نقض العهد وخصوصا فى أوقات الحرب يستحق فاعله القتل ، حتى لايتعرض المسلمون للطعن من الخلف ، أو الحياة فى قلق وخوف ومفاجآت غادرة .

---

(٢٣٨) الأنفال ٥٨

٤ ـ ان اليهود كانوا متأكدين من نبوة الرسول ـ ﷺ ـ ولكنهم مع ذلك كانوا مصرين على عدواته والكيد له وتأليب الأحزاب ضده ، ولذلك أصبحت سياسة الملاينة غير مجدية معهم ،

وقد ثبت أنهم الذين حرضوا القبائل حتى أحاطوا بالمدينة على زعم استئصال شأفة المسلمين فيها . لولا أن رد الله كيد ، الى نحورهم . .

٥ ـ وفى غزوة بنى قريظة هذه نزول قوله ـ تعالى ـ :

﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ (٢٣٩)

ولم تنته مؤامرات اليهود مع ذلك عند هذا الحد ، فمسلسل حقدهم لا ينتهى وسوف تكون معهم جولة أخرى فى خيبر نعرض لها إن شاء الله فيما بعد . .

وننتقل الآن بعون الله ومشيئته إلى الحديث عن غزوة أحد . . وذلك مع بداية المجلد الثانى عشر .

---

(٢٣٩) الأحزاب ٢٦ : ٢٧

فهرس

انتهى بحمد الله المجلد الحادى عشر ويليه
بمشيئة الله تعالى المجلد الثانى عشر وأوله
غـــزوة أحـــد